برنامج شروح

متون طالب العلم

تحت إشراف الشيخ

د. عبد المحسن بن محمد القاسم

إمام وخطيب المسجد النبوي الشريف

شرح العقيدة الطحاوية

ترجمة الإمام الطَّحاويِّ رحمه اللَّه

اسمه، ونَسبه، ونِسبته:

هو: أحمد بن محمد بن سلامة بن سلمة الأزْديُّ الحَجريُّ الطَّحاوِيُّ[١].

والأزْديُّ نسبة إِلَى قبيلة أَزْد الحجر[٢].

والحَجْريُّ بفتح الحاء المهملة، وسكون الجيم، والراء المهملة: بطنٌ منهم[٣].

والطَّحَاويُّ بفتح الطاء والحاء المهملتين: نسبة إلى «طحا» قرية بصعيد مصر[٤].

---

(١) الجواهر المضية في طبقات الحنفية (١/ ١٠٢)، تاج التراجم (ص١٠٠)، الطبقات السنية في تراجم الحنفية (ص١٣٦)، سير أعلام النبلاء (١٥/ ٢٧).

(٢) الجواهر المضية في طبقات الحنفية (١/ ١٠٢)، الطبقات السنية في تراجم الحنفية (ص١٣٦).

(٣) الطبقات السنية في تراجم الحنفية (ص١٣٦).

(٤) الجواهر المضية في طبقات الحنفية (١/ ١٠٢)، (٢/ ٣٢٦)، الطبقات السنية في تراجم الحنفية (ص١٣٦).

كنيته:

أبو جعفر[1].

مولده:

ولد سنة (٢٢٩هـ)[2].

نشأته:

عندما بلغ رحمه الله سن الإدراك تحول إلى مصر لطلب العِلم، وأخذ يتلقى العِلم عن خاله إسماعيل بن يحيى المزني[3] أفقه أصحاب الإمام الشافعي، فتفقه بالمذهب الشافعي على يديه، ثم جعل ينظر خاله إذا اعترضته مسألةً عويصةً إذا به يطالع كتب أصحاب أبي حنيفة رحمه اللَّه، ثم يختار في أغلبها ما ذهب إليه أبو حنيفة، فلم يسعه بعد ذلك إلا أن ينظر في كتب أصحاب أبي حنيفة ويطَّلع على منهجهم في التأصيل والتفريع،

(١) الجواهر المضية في طبقات الحنفية (١/ ١٠٢)، تاج التراجم (ص١٠٠)، الطبقات السنية في تراجم الحنفية (ص١٣٦)، سير أعلام النبلاء (١٥/ ٢٧).

(٢) الجواهر المضية في طبقات الحنفية (١/ ١٠٢)، تاج التراجم (ص١٠٠)، الطبقات السنية في تراجم الحنفية (ص١٣٦)، سير أعلام النبلاء (١٥/ ٢٧).

(٣) هو: أبو إبراهيم إسماعيل بن يحيى بن إسماعيل المزَنيّ، ولد سنة (١٧٥هـ)، وتوفي رحمه الله سنة (٢٦٤هـ). طبقات الشافعية الكبرى (٢/ ٩٣).

حتى إذا اكتملت معرفته بمذهب الإمام أبي حنيفة تحوَّل إليه واقتدى به وأصبح من أتباعه.

وسمع الحديث من أهل عصره، وخرج إلى الشام فسمع ببيت المقدس وغزَّة وعسقلان، وتفقه بدمشق، ثم رجع إلى مصر.

وقد ناب في القضاء عن محمد بن عبدة[١] قاضي مصر بعد سنة (٢٧٠هـ)، وترقت حاله بمصر، حتى انتهت إليه رياسة أصحاب أبي حنيفة[٢].

ثناء العلماء عليه:

قال عنه ابن يونس رحمه اللَّه[٣]: «كان ثقةً ثبتاً، فقيهاً عاقلاً، لم يخلّف مثله»[٤].

---

(١) هو: أبو عبيد الله محمد بن عبدة بن حرب العباداني، توفي رحمه الله سنة (٣١٣هـ). سير أعلام النبلاء (١٤/ ٤٠٨).

(٢) لسان الميزان (١/ ٦٢٠)، الطبقات السنية في تراجم الحنفية (ص١٣٧)، سير أعلام النبلاء (١٥/ ٢٨).

(٣) هو: أبو سعيد عبد الرَّحمن بن أحمد بن يونس الصَّدَفي، ولد سنة (٢٨١هـ)، وتوفي رحمه الله سنة (٣٤٧هـ). طبقات علماء الحديث (٣/ ٩٢)، سير أعلام النبلاء (١٥/ ٥٧٨).

(٤) تاريخ ابن يونس (١/ ٢٢).

وقال عنه ابن عبد البر رحمه اللَّه[١]: «كان من أعلم الناس بسِيَر القوم وأخبارهم؛ لأنه كان كوفيّ المذهب، وكان عالِماً بجميع مذاهب الفقهاء رحمهم اللَّه»[٢].

وقال عنه ابن الجوزي رحمه اللَّه[٣]: «كَانَ ثبتاً فهماً فقيهاً عاقلاً»[٤].

وقال عنه ابن كثير رحمه اللَّه[٥]: «هو أحد الثقات الأثبات، والحفاظ الجهابذة»[٦].

---

(١) هو: أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر النمري المالكي، وُلد سنة (٣٦٨هـ)، وتوفي رحمه الله سنة (٤٦٣هـ). ترتيب المدارك وتقريب المسالك (٨/ ١٢٧)، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية (١/ ١٧٦).

(٢) جامع بيان العِلم وفضله (٢/ ٨٩٧).

(٣) هو: أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، وُلد سنة (٥١٠هـ)، وتوفي رحمه الله سنة (٥٩٧هـ). سير أعلام النبلاء (٢١/ ٣٦٥).

(٤) المنتظم في تاريخ الملوك والأمم (١٣/ ٣١٨).

(٥) هو: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي، ولد سنة (٧٠١ هـ)، وتوفي رحمه الله سنة (٧٧٤ هـ). الرد الوافر (ص ٩٢)، ذيل طبقات الحفاظ للسيوطي (ص ٢٣٨).

(٦) البداية والنهاية (١٥/ ٧٢).

شيوخه:

من شيوخه[١]:

١. هارون بن سعيد، أبو جعفر السعدي الأيلي، توفي سنة (٢٥٣هـ).

٢. إسماعيل بن يحيى بن إسماعيل، أبو إبراهيم المزني الشافعي، توفي سنة (٢٦٤هـ).

٣. يونس بن عبد الأعلى بن ميسرة أبو موسى الصدفي، توفي سنة (٢٦٤هـ).

٤. أبو جعفر أحمد بن أبي عمران موسى بن عيسى، توفي سنة (٢٨٠هـ).

٥. عبد الحميد بن عبد العزيز، أبو حازم القاضي الحنفي، توفي سنة (٢٩٢هـ).

(١) الجواهر المضية في طبقات الحنفية (١/ ١٠٣)، لسان الميزان (١/ ٦٢٠)، تاج التراجم (ص١٠٠)، سير أعلام النبلاء (١٢/ ٣٤٨)، (١٣/ ٣٣٤)، طبقات الحفاظ للسيوطي (ص٣٣٩)، الطبقات السنية في تراجم الحنفية (ص١٣٦).

تلاميذه:

من أبرزهم[(١)]:

١- سليمان بن أحمد بن أيوب، أبو القاسم الطبراني، توفي سنة (٣٦٠هـ).

٢- أحمد بن القاسم بن عبد اللَّه، أبو الفرج البغدادي، المعروف بابن الخشاب، توفي سنة (٣٦٤هـ).

٣- عبد العزيز بن محمد بن الحسن، أبو محمد التميمي الجوهري، قاضي الصعيد، توفي سنة (٣٦٩هـ).

٤- محمد بن جعفر بن الحسين، أبو بكر البغدادي المفيد، المعروف بغندر، توفي سنة (٣٧٠هـ).

٥- عبيد اللَّه بن علي بن عبيد اللَّه، أبو القاسم الداؤودي القاضي، شيخُ أهل الظاهر في عصره، توفي سنة (٣٧٥هـ).

٦- محمد بن المظفَّر بن موسى بن عيسى، أبو الحسين البغدادي، توفي سنة (٣٧٩هـ).

---

(١) الطبقات السنية في تراجم الحنفية (ص١٣٦)، سير أعلام النبلاء (١٥/ ٢٨)، تاج التراجم (ص١٠٢).

مؤلَّفاته:

صنَّف رحمه الله مؤلَّفات كثيرة منها[1]:

١ - أحكام القرآن.

٢ - معاني الآثار.

٣ - بيان مشكل الآثار.

٤ - المختصر، في الفقه.

٥ - شرح الجامع الكبير.

٦ - شرح الجامع الصغير.

٧ - الوصايا والفرائض.

٨ - العقيدة الطحاوية.

٩ - نقض كتاب المدلسين.

١٠ - مناقب أبي حنيفة.

١١ - الرد على عيسى بن أبان.

١٢ - اختلاف الروايات على مذهب الكوفيين.

---

(١) الجواهر المضية في طبقات الحنفية (١/ ١٠٤)، تاج التراجم (ص١٠١)، الطبقات السنية في تراجم الحنفية (ص١٣٧).

١٣ - النوادر والحكايات.

وغير ذلك من الكتب.

وفاته:

بعد حياة عامرة بالعِلم والتعليم توفي رحمه الله في مصر سنة (٣٢١هـ)[1].

(١) الطبقات السنية في تراجم الحنفية (ص١٣٦)، سير أعلام النبلاء (١٥/ ٢٨)، تاج التراجم (ص١٠٢).

المقدِّمة

بسم اللَّه الرحمن الرحيم

قَالَ الإِمَامُ أَبُو جَعْفَرٍ الطَّحَاوِيُّ رحمه اللَّه:

هَذَا ذِكْرُ بَيَانِ اعْتِقَادِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالجَمَاعَةِ عَلَى مَذْهَبِ فُقَهَاءِ المِلَّةِ:

أَبِي حَنِيفَةَ النُّعْمَانِ بْنِ ثَابِتٍ الكُوفِيِّ.

وَأَبِي يُوسُفَ يَعْقُوبَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ الأَنْصَارِيِّ.

وَأَبِي عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدِ بْنِ الحَسَنِ الشَّيْبَانِيِّ - رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ -.

وَمَا يَعْتَقِدُونَ مِنْ أُصُولِ الدِّينِ، وَيَدِينُونَ بِهِ لِرَبِّ العَالَمِينَ.

الحمد للَّه رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المصنِّف رحمه اللَّه: **(قَالَ الإِمَامُ أَبُو جَعْفَرٍ الطَّحَاوِيُّ رحمه اللَّه)**.

هذه العقيدة تسمى العقيدة الطحاوية نسبة لمصنِّفها رحمه اللَّه، وهو: الإمام أحمد بن محمد بن سلامة الأزدي من الأزد، الطحاوي: نسبة إلى قرية في مصر اسمها: طحا.

وهو من أعلام الإسلام، قال عنه الإمام الذهبي رحمه اللَّه: «الإمام الثقة».

وأثنى عليه ابن كثير أيضا في البداية والنهاية فقال: «ثقة عدل إمام حجة»،

وقال: «وهو أحد الجهابذه الحفاظ».

والإمام أبو جعفر فقيه ومحدث، وممن صنف في العقيدة؛ فمن مصنفاته مثلا في الحديث: مشكل الآثار، وكتاب معاني الآثار.

وفي الفقه: نوادر الفقهاء.

وفي العقيدة: العقيدة الطحاوية[(١)].

ومما يميز هذه العقيدة:

أولاً: أنها من المتون المتقدمة جدّاً في هذه الأمَّة، فالإمام الطحاوي رحمه الله توفي سنة (٣٢١هـ) يعني: يكاد يكون قد شارف القرون المفضَّلة، وأجمعت الأمَّة على جلالته والثناء عليه ومدحه رحمه اللَّه.

ثانياً: أنها مختصرةٌ؛ فليست عقيدة طويلة، وإنما هي مختصرة شاملة جامعة.

---

(١) كل المعلَّم بالأصفر يُحذف ويكتفي بترجمته رحمه الله.

ثالثاً: أنها سهلة الحفظ؛ فألفاظها سهلة واضحة، وليس فيها صعوبة.

رابعاً: أنها شاملةٌ لموضوعين اثنين ذكرهما المصنِّف رحمه الله في المقدِّمة:

الموضوع الأوَّل: الاعتقاد في أصول الدين، مثل: الإيمان باللَّه واليوم الآخر والملائكة والكتب والنبيين؛ لذلك قال: (**وَمَا يَعْتَقِدُونَ مِنْ أُصُولِ الدِّينِ**).

والموضوع الثاني: في معتقد أهل السُّنة والجماعة في الأسماء والصفات وغيرها.

وكتب اللَّه عزوجل لهذه العقيدة القبول، فحفظها طلاب العِلم على مر العصور، وتسابقوا على شرحها تصنيفاً، وشرحها لفظاً؛ لغزير فائدتها، وجزالة ألفاظها، فرحم اللَّه مؤلِّفها.

قال رحمه اللَّه: **(هَذَا ذِكْرُ بَيَانِ اعْتِقَادِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالجَمَاعَةِ عَلَى مَذْهَبِ فُقَهَاءِ المِلَّةِ)** أي: على فقهاء ملة الإسلام.

قال: (أَبِي حَنِيفَةَ النُّعْمَانِ بْنِ ثَابِتٍ الكُوفِيِّ) وإليه يُنسب المذهب، وهو إمامٌ عظيمٌ جليلٌ نفع اللَّه عزوجل به، قال الإمام الشافعي رحمه اللَّه: «ما من فقيهٍ في يده محبرةٌ إلا والإمام أبي حنيفة له عليه فضلٌ»[١].

وأخذ بآرائه ثلَّة كثيرةً من المسلمين، وهو رحمه الله من كبار العباد إضافة إلى أنه من العلماء.

قال: (وَأَبِي يُوسُفَ يَعْقُوبَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ الأَنْصَارِيِّ) هذا تلميذ الإمام أبي حنيفة، وقد كان قاضياً، ولقِّب بقاضي القضاة، وإن كان هذا اللفظ لا يصح، لكن لُقب في عصره بهذا اللفظ؛ ومعناه: رئيس القضاة في عصره، وكان من القضاة الحذَّاق الأذكياء، (وَأَبِي عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدِ بْنِ الحَسَنِ الشَّيْبَانِيِّ) هذا أيضاً من تلاميذ أبي حنيفة رضي الله عنه.

وهذان من أبرز طلاب وتلاميذ أبي حنيفة رحمه اللَّه، (رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ).

---

(١) لعله حصل لبس هنا، فهذا اللفظ هو لأحمد قاله عن الشافعي رحمه الله، حيث قال: «ما من أحد بيده محبرةٌ أو ورقٌ إلا للشافعي في رقبته منة». التاريخ المعتبر في أنباء من غبر (٣/ ١٣٣).

يعني: كأنَّ المصنِّف يقول: هذا معتقد الإمام أبي حنيفة وتلامذته فخذوا به.

قال: (وَمَا يَعْتَقِدُونَ مِنْ أُصُولِ الدِّينِ، وَيَدِينُونَ بِهِ لِرَبِّ العَالَمِينَ)

يعني: اعتقدوا أصول الدين، واعتقدوا مذهب أهل السُّنة والجماعة، واتخذوه ديناً لهم وأعلنوه.

نَقُولُ فِي تَوْحِيدِ اللَّهِ، مُعْتَقِدِينَ بِتَوْفِيقِ اللَّهِ:

إِنَّ اللَّهَ وَاحِدٌ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَلَا شَيْءَ مِثْلُهُ، وَلَا شَيْءَ يُعْجِزُهُ، وَلَا إِلَهَ غَيْرُهُ.

قال رحمه اللَّه: (نَقُولُ فِي تَوْحِيدِ اللَّهِ، مُعْتَقِدِينَ بِتَوْفِيقِ اللَّهِ) هنا أمران:

الأمر الأوَّل: القول.

والأمر الثاني: الاعتقاد.

وهذا هو الإيمان، مع إضافة أمر ثالث وهو: العمل بالجوارح؛ فالإيمان لا بد فيه من إقرار، ولا بد أيضاً من اعتقاد مع عمل بالجوارح، فنقول ذلك ونحن معتقدون به، ونعمل بالجوارح أيضاً.

فقوله: (نَقُولُ) يعني: بما منَّ اللَّه عزوجل علينا فيه من التوفيق لهذا الدين والسداد له نقول ونحن مفتخرون بذلك، ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨].

(إِنَّ اللَّهَ وَاحِدٌ لَا شَرِيكَ لَهُ) يعني: نقول ونعتقد ونعمل بما تتضمنه تلك الكلمة وذلك الاعتقاد، كما قال سبحانه: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ﴾ [البينة: ٥]، وقال سبحانه: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا

قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الصافات: ٣٥]، والنبي صلى الله عليه وسلم يقول: «مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، فِي يَوْمٍ مِئَةَ مَرَّةٍ: كَانَتْ لَهُ عَدْلَ عَشْرِ رِقَابٍ، وَكُتِبَ لَهُ مِئَةُ حَسَنَةٍ، وَمُحِيَتْ عَنْهُ مِئَةُ سَيِّئَةٍ، وَكَانَتْ لَهُ حِرْزاً مِنَ الشَّيْطَانِ يَوْمَهُ ذَلِكَ حَتَّى يُمْسِيَ»(١).

فقوله: **(إِنَّ اللَّهَ وَاحِدٌ)** كما قال سبحانه: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١]، وقال: ﴿وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [الرعد: ١٦] سبحانه، فنعتقد بأن اللَّه واحدٌ لا معبود بحق سواه.

(لَا شَرِيكَ لَهُ) تأكيداً للجملة الأُولى، كما قال سبحانه: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهاً وَاحِداً لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١]، وقال سبحانه: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢-١٦٣].

---

(١) رواه البخاريُّ، كتاب الدعوات، باب فضل التهليل، رقم (٦٤٠٣)، ومسلمٌ، كتاب الذكر، والدعاء، والتوبة، والاستغفار، باب فضل التهليل، والتسبيح، والدعاء، رقم (٢٦٩١)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

قال: (**وَلَا شَيْءَ مِثْلُهُ**) كما قال سبحانه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، فليس كمثله شيءٌ في ذاته، ولا في أسمائه وصفاته، ولا في أفعاله، والكاف هنا للتأكيد وليست للتشبيه، وقال سبحانه: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ﴾ [الإخلاص:٤] فهو سبحانه ليس له مكافئ ولا مثيل ولا نظير.

(**وَلَا شَيْءَ يُعْجِزُهُ**) يعني: هو القوي، قال اللَّه سبحانه: ﴿وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾ [الشورى: ١٩]، وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٨]، وقال: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]، وقال: ﴿الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الحشر: ٢٣]، وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٠]، والجن عجبت من ذلك وقالت: ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نُعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَنْ نُعْجِزَهُ هَرَباً﴾ [الجن: ١٢] أي: ظننا ذلك، واللَّه عزوجل لا يعجزه شيء، يأتي بما يخطر العقول، ويأتي بالأمر المعتاد، وبما ليس بمعتاد كالآيات والمعجزات.

قال: (**وَلَا إِلَهَ غَيْرُهُ**) هذا تأكيدٌ للجملة الأولى؛ (**إِنَّ اللَّهَ وَاحِدٌ لَا شَرِيكَ لَهُ**) يعني: لا إله غيره مستحق للعبادة، فلأنه لا شيء مثله ولا

شيء يعجزه فلا إله غيره اعتقاداً جازماً، قال سبحانه: ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾ [الزخرف: ٨٤]؛ يعني: في السماء معبودٌ وفي الأرض معبود؛ أي: يَعبده أهل السماوات ويَعبده أهل الأرض، وقال سبحانه: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١].

فتبيَّن مما سبق أنَّ المصنِّف رحمه الله وضع هذه العقيدة المختصرة الجامعة الشاملة على معتقد أهل السُّنة والجماعة، وذكر فيها أصول الدين.

قَدِيمٌ بِلَا ابْتِدَاءٍ، دَائِمٌ بِلَا انْتِهَاءٍ.

لَا يَفْنَى وَلَا يَبِيدُ، وَلَا يَكُونُ إِلَّا مَا يُرِيدُ.

لَا تَبْلُغُهُ الأَوْهَامُ، وَلَا تُدْرِكُهُ الأَفْهَامُ، وَلَا يُشْبِهُ الأَنَامَ.

خَالِقٌ بِلَا حَاجَةٍ، رَازِقٌ بِلَا مُؤْنَةٍ، مُمِيتٌ بِلَا مَخَافَةٍ، بَاعِثٌ بِلَا مَشَقَّةٍ.

يَذكر المصنِّف رحمه الله هنا أوصافاً للباري جل وعلا، فلمَّا بيَّن رحمه الله أنَّ من عقيدة أهل السُّنة والجماعة أن اللَّه سبحانه لا إله غيرة ولا شيء مثله، ولا شيء يعجزه، بدأ يمجِّد الرب ويَذكر أوصافاً له سبحانه وتعالى.

فقال رحمه اللَّه: (قَدِيمٌ بِلَا ابْتِدَاءٍ) قوله: (**قَدِيمٌ**) هذه اللفظة ليست من أسماء اللَّه عزوجل، فالأسماء توقيفيةٌ، واستدرك المصنِّف رحمه الله ذلك فقال: (**بِلَا ابْتِدَاءٍ**) لأن القديم ضد الحديث، قال سبحانه: ﴿حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾ [يس: ٣٩] أي: كان العرجون قائماً ثم بعد ذلك قدُم.

وقوله: (**قَدِيمٌ**) كأنَّه ضد الجديد، لذلك استدرك المصنِّف فقال: (**قَدِيمٌ بِلَا ابْتِدَاءٍ**) ليثبت أن اللَّه عزوجل لا شيء قبله، ويغني عن هذا الاسم: قوله سبحانه: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ﴾ [الحديد: ٣]، والنبي عليه الصلاة

والسلام فسَّر معنى الأوَّل فقال: «اللَّهُمَّ أَنْتَ الأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ»(١).

إذاً لو قال شخصٌ: اللَّه قديم؛ نقول: لا يصح، لماذا؟

لأمرين:

الأمر الأوَّل: أن هذا ليس من أسماء اللَّه.

الأمر الثاني: لأنَّ معنى القديم ضد الجديد، فكأن اللَّه عزوجل من أسمائه بأنه كان حادثاً ثم قدُم.

ثم قال: **(دَائِمٌ بِلَا انْتِهَاءٍ)** المراد بذلك: إثبات صفة الحياة للَّه عزوجل والديمومة له، قال سبحانه: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ* وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٦ - ٢٧] فليس له سبحانه نهاية.

ويغني عن هذا: قوله سبحانه: ﴿هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ﴾ [الحديد: ٣]، فكلمة الآخر تغني عن قول المصنِّف رحمه اللَّه: **(دَائِمٌ بِلَا انْتِهَاءٍ)**،

---

(١) رواه مسلمٌ، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب ما يقول عند النوم وأخذ المضجع، رقم (٢٧١٣)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

والنبي صلى الله عليه وسلم فسَّر الآخر بقوله: «وَأَنْتَ الآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ»(١).

ثم قال: (لَا يَفْنَى وَلَا يَبِيدُ) هذا مقرِّر ومؤكِّد لقوله: (**دَائِمٌ بِلَا انْتِهَاءٍ**) وهو إقرارٌ بدوام بقائه سبحانه وتعالى، قال سبحانه: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص:٨٨]، وقال: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ﴾ [الفرقان:٥٨].

والفناء والبيد متقاربان في المعنى، وجَمع بينهما هنا للتأكيد.

قال: (وَلَا يَكُونُ إِلَّا مَا يُرِيدُ) هذا فيه إثبات الإرادة للَّه جل وعلا، والإرادة ثابتةٌ له سبحانه وتعالى بالكِتاب والسُّنة والإجماع والعقل،

---

(١) هو نفس الحديث الذي سبق تخريجه بالحاشية السابقة.

ولذلك فالإرادة من الصفات التي يُثبتها من يَعتمد العقل في إثبات الصفات؛ كالأشاعرة[١] والماتريدية[٢] وغيرهم.

والإرادة - أي: صفة الإرادة للَّه - تنقسم إلى قِسمين:

القِسم الأوَّل: إرادةٌ كونيةٌ قدَريةٌ؛ يعني: أراد اللَّه عز وجل لوقوع هذا الأمر كوناً وقدَراً، وهذه الإرادة بمعنى المشيئة، وهذه الإرادة أعمّ من الإرادة في القِسم الثاني الذي سيأتي.

---

(١) الأشاعرة هم: طائفة تُنسَب إلى أبي الحسن الأشعري، ظهرت في القرن الرابع وما بعده، من معتقداتهم: أنهم لا يقبلون حديث الآحاد في العقيدة، ويُؤوِّلون أكثر الصفات، وأن الواجبات كلها سمعية، والعقل لا يوجب شيئا، ولا يقتضي تحسيناً ولا تقبيحاً. المِلَل والنِّحل (١/ ٩٤، ١٠١)، موسوعة الفرق المنتسبة **للإسلام (١/ ١٩٦، ٢٩٥، ٣٧٠)**.

(٢) الماتريدية هم: فرقة كلامية تُنسَب إلى أبي منصور محمد بن محمد الماتريدي السمرقندي الحنفي، قامت على استخدام البراهين والدلائل العقلية والكلامية في محاججة خصومها؛ من المعتزلة والجهمية وغيرهم، من معتقداتهم: أنهم جعلوا معظم مباحث الإلهيات عقلياتٍ، فجعلوا السمع تابعاً للعقل فيها، ومن ذلك: الصفات الثمان التي يسمونها صفاتٍ عقلية ثبوتية، ونفوا جميع الصفات الخبرية والاختيارية، وتركوا الاحتجاج بأحاديث الآحاد في العقيدة، كما أنهم مرجئة في باب الإيمان. مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٧/ ٥١٠)، موسوعة الفرق المنتسبة للإسلام (٢/ ٢٠٣، ٢١٨، ٢٢٣).

مثال ذلك: إذا سرق سارقٌ، فهذا أراد اللَّه عز وجل له أن يَسرق كوناً وقدراً، ولو صلّى المصلِّي فهذا أراد اللَّه عز وجل كوناً وقدراً أنه يصلّي، وأيضاً شرعاً أنه يصلّي.

والقِسم الثاني: إرادةٌ دينيةٌ شرعيةٌ، وهي بمعنى: المحبة؛ أي: أن كل شيءٍ أمر اللَّه عز وجل به فهو يحبُّه.

مثل: طلب العِلم، وطالب العِلم وهو يحفظ المتون؛ هذه إرادةٌ دينيةٌ شرعيةٌ؛ اللَّه يحبُّ ذلك - وهو العِلم -، وأيضاً ما دام أنَّ طالب العِلم طلبَه: فهي إرادةٌ كونيةٌ؛ فاللَّه قدَّر وقوع ذلك.

والفَرْق بين الإرادتين:

أنَّ الإرادة الشرعية: اللَّه يحبُّها وهي مرادةٌ للآمر، مثل: تلاوة القرآن اللَّه يحبُّها ويريد اللَّه عز وجل ذلك، وكذا الإرادة الشرعية قد تتخلّف، فمثلاً: في بلد كُفرٍ، فنقول الإرادة الشرعية الدينية هنا متخلِّفةٌ فلم تقع.

أمَّا الإرادة الكونية: فهي أعمُّ من الإرادة الشرعية، فتشمل الطائعين والعاصين، وهي مرادةٌ للآمر سبحانه، إذا اللَّه أراد وقوعها وقعتْ سواء كانت ممّا يحبُّه اللَّه أو لا يحبُّه.

وتجتمع الإرادتان في حق الطائع، فالذي يصلِّي اللَّه عز وجل أراد كوناً وقدراً أنْ يصلِّي، وديناً وشرعاً اللَّه أراد أنْ يصلِّي وهو يحبُّها.

وهذا التفصيل في الإرادة يبعد عنك إشكالاً وهو: كيف يقع شيءٌ في الكون واللَّه ما يحبُّه؟! نقول: لا، الأفعال تنقسم قِسمين: ما يحبُّها اللَّه وهي إرادة كونية قدرية، فاللَّه أراد وجود معاصي مثل القتل ونحو ذلك؛ لحكمةٍ عظيمةٍ، وأراد الصلاة والزكاة وهو يحبُّها؛ لحكمةٍ عظيمةٍ، لذلك اللَّه يقول: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ [هود: ١١٨]؛ يعني على الإسلام، وقال: ﴿ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ﴾ [محمد: ٤]، فغلب الكفار وجعل جميع الأرض مسلمين لكن لحكمةٍ عظيمةٍ.

قال شيخ الإسلام رحمه اللَّه: «وقد ضلَّ كثيرٌ من الناس في عدم التفريق بين الإرادتين»[(١)]؛ لأنَّ بعض الناس يقول: كيف اللَّه عز وجل ينهى عن السرقة وتقع السرقة؟ نقول: اللَّه أراد هكذا كوناً وقدراً لحِكمةٍ، ولم يُردْها شرعاً.

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام (١١/ ٢٤٥).

فبناءً على عدم التفريق: كانت هذه من شُبه المشركين؛ قال سبحانه عنهم: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٤٨]، وقال سبحانه: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [النحل: ٣٥].

ولذلك ضلَّ كثيرٌ من النَّاس في عدم الاستقامة لا سيما من أهل الشرك؛ لأنَّهم يقولون: اللَّه أرادنا مثلاً بديانة النصرانية؛ لأنَّ اللَّه عز وجل أوجدنا هكذا نصارى، ولم يوجدنا هكذا نصارى إلَّا لأنه يحبُّ ذلك.

فإذا قيل: هل الإنسان مسيَّرٌ أم مخيَّرٌ؟

نقول: كلاهما، فهو مسيَّر؛ لأنَّ مشيئة اللَّه فوق مشيئته، وهو أيضاً مخيَّر؛ لأنَّ اللَّه عز وجل جعل له مشيئةً وإرادةً.

مثالُ ذلك: أنت تستطيع أنْ تخرج مع هذا الباب ولكَ أنْ تخرج مع هذا الباب، لكنْ إرادة اللَّه فوق ذلك، ومثل: أنت تريد أنْ تتزوَّج امرأةً اسمها زينب، لكن لو اللَّه عز وجل ما أراد ذلك فلا يقع؛ لأنَّ مشيئة اللَّه فوق مشيئتك.

فلا يصحُّ أنْ نقول: أنَّ الإنسان مجبَر، ولا نقول أيضاً: أنَّ الإنسان مخيَّرٌ؛ بل هو مسيَّرٌ ومخيَّرٌ.

ثم قال رحمه اللَّه: (لَا تَبْلُغُهُ الأَوْهَامُ) يعني: الظنون، فكلما ظننتَ في كيفية صفات اللَّه عزوجل فإنه لا يمكن أن تدرك حقيقتها؛ يعني: أننا لم نشاهد صفات اللَّه ولا نعرف صفات اللَّه إلا عن طريق ما أخبرنا به سبحانه أو أخبرنا به النبي صلى الله عليه وسلم، فاللَّه سميعٌ، ولكن ليس كسمعنا، وبصيرٌ لكن ليس كبصرنا، له يدان ولكن ليست كأيادينا، فكلما أشغلتَ عقلك في التوصل لصفات اللَّه فلا يمكن أن تدرك ذلك؛ قال سبحانه: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً﴾ [طه: ١١٠].

قال: (وَلَا تُدْرِكُهُ الأَفْهَامُ) أي: لا تحيط به الأفهام، كما قال سبحانه: ﴿وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ﴾ [البقرة:٢٥٥]، وقال: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً﴾ [طه: ١١٠].

(وَلَا يُشْبِهُ الأَنَامَ) أي: الخلْق، يعني: ظنك الذي هو التخمين وعقلك الذي هو التصوير وتشبيهك لصفات اللَّه عزوجل بالخلْق لا يمكن أن تدرك حقيقة الصفة، وإنما علينا أن نؤمن بالصفة، ولا نَعلم عن

كيفية الصفة؛ لأنها من المتشابهات، فحقيقة كيفية الصفة من المتشابه، أما إثبات الصفة فمُحْكم.

لذلك قال: (وَلَا يُشْبِهُ الأَنَامَ) فلا تتخيل صفة اللَّه كالبصر مثلاً كبصر الخلْق؛ لأنَّ اللَّه يقول: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

ثم قال: (حَيٌّ لَا يَمُوتُ، قَيُّومٌ لَا يَنَامُ)[١] عندنا صفتان: حيٌّ، وقيّومٌ، هاتان الصفتان قال ابن القيم[٢] رحمه اللَّه: «جميع صفات اللَّه تعود إلى تلك الصفتين»[٣]، فهو سبحانه حي في ذاته، قيوم بأمور غيره، وجميع الصفات ترجع إليهما؛ لذلك ذهب بعض أهل العِلم كابن القيم وغيره إلى أن اسم اللَّه الأعظم: الحي القيوم.

(١) ليست في المطبوع، ولعلها في نسخة أخرى.

(٢) هو: أبو عبد اللَّه شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب الزرعي الأصل، ثم الدمشقي، الحنبليّ، ابن قيم الجوزية، وُلد سنة (٦٩١هـ)، وتوفي رحمه الله سنة (٧٥١هـ). ذيل طبقات الحنابلة (٥/ ١٧٠).

(٣) زاد المعاد في هدي خير العباد (٤/ ١٨٧).

فقوله: (**حَيٌّ لَا يَمُوتُ**) كما قال سبحانه: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقال: ﴿هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [غافر: ٦٥]، وقال: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٦ - ٢٧]، فهو سبحانه حيٌّ لا يموت، وجميع الخلق يموتون.

وقوله: (**قَيُّومٌ لَا يَنَامُ**) يعني: قائم بأمر الخلق لا ينام، لا تأخذه سِنةٌ ولا نوم، وهو سبحانه جل وعلا يتنزه عن النوم وعن النعاس، فلو نام لهلك الخلق في لحظة سبحانه وتعالى، لكن لكمال صفاته سبحانه جل وعلا اتصف بأعظم الصفات وهي الحياة والقيومية.

ثم قال: (**خَالِقٌ بِلَا حَاجَةٍ**) كما قال سبحانه: ﴿وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ [يس: ٨١]، وقال: ﴿هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ﴾ [الحشر: ٢٤]، وقال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [فاطر: ١] فهو سبحانه الخالق، وخلقه لعباده لم يكن عن حاجه؛ كما قال عزوجل في الحديث القدسي(١): «يَا عِبَادِي! لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ

---

(١) الحديث القدسي هو: ما نُقل إلينا آحاداً عنه صلى الله عليه وسلم مع إسناده له عن ربه عز وجل. الفتح المبين (١/ ٤٣٢).

وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئاً»(١)، وقال سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ * مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ * إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٦-٥٨].

(رَازِقٌ بِلَا مُؤْنَةٍ) أي: بلا مشقة ولا كلفة؛ كما قال عز وجل عن نفسه: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]، فرزقه للعباد كله بكلمة «كن فيكون»، لذلك قال عن نفسه: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: ٣٧].

ودعا سبحانه الخلْق إلى أن يدعوه ليعطيهم من رزقه فقال: ﴿وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [النساء: ٣٢]، وقال: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ١٨٦]، وأعطى سليمان ما أعطاه، وأعطى داوود ما أعطاه، وأعطى ملوك الأرض ما أعطاهم، وأعطى قارون ما أعطاه، فهذا رزقٌ من رزقه.

---

(١) رواه مسلمٌ، كتاب البِر والصلة والآداب، باب تحريم الظُّلْم، رقم (٢٥٧٧)، من حديث أبي ذرٍّ رضي الله عنه.

فهو سبحانه رازقٌ بلا كلفةٍ ولا مشقةٍ، بل خلق السماوات والأرض ولم يحصل له مشقة؛ كما قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾ [ق: ٣٨] يعني: من تعب، فإذا كان كذلك فالرزق من باب أَولى أَلَّا يكون فيه مشقة.

قال: (مُمِيتٌ بِلَا مَخَافَةٍ) يعني: لا يميت أحداً من البشر لأنه يخاف منه؛ فهو القوي سبحانه؛ قال سبحانه: ﴿وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾ [الشورى: ١٩]، وقال عن قوم عاد: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ [فصلت: ١٥]، فهو سبحانه يميت من يشاء لا من خوف؛ وإنما من عزةٍ وقوةٍ وعِلمٍ وحكمةٍ سبحانه وتعالى.

قال: (بَاعِثٌ بِلَا مَشَقَّةٍ) فهو سبحانه يحييهم غير شاقٍّ عليه ذلك؛ قال سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة:٢٠]، وقال سبحانه: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢]، وكما قال: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعاً كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ﴾ [المعارج: ٤٣]، فهو يخرجهم من القبور وليس عليه سبحانه مشقة في ذلك؛ لأنه هو القوي جل وعلا، وقال سبحانه: ﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ

وَالْأَرْضِ﴾ [الزمر: ٦٣]، وقال: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ [فاطر: ٤٤].

مَا زَالَ بِصِفَاتِهِ قَدِيماً قَبْلَ خَلْقِهِ، لَمْ يَزْدَدْ بِكَوْنِهِمْ شَيْئاً لَمْ يَكُنْ قَبْلَهُمْ مِنْ صِفَاتِهِ.

وَكَمَا كَانَ بِصِفَاتِهِ أَزَلِيّاً، كَذَلِكَ لَا يَزَالُ عَلَيْهَا أَبَدِيّاً.

لَيْسَ مُنْذُ خَلَقَ الخَلْقَ اسْتَفَادَ اسْمَ الخَالِقِ، وَلَا بِإِحْدَاثِهِ البَرِيَّةَ اسْتَفَادَ اسْمَ البَارِي. لَهُ مَعْنَى الرُّبُوبِيَّةِ وَلَا مَرْبُوبَ، وَمَعْنَى الخَالِقِ وَلَا مَخْلُوقَ.

وَكَمَا أَنَّهُ مُحْيِي المَوْتَى بَعْدَمَا أَحْيَا، اسْتَحَقَّ هَذَا الاِسْمَ قَبْلَ إِحْيَائِهِمْ، كَذَلِكَ اسْتَحَقَّ اسْمَ الخَالِقِ قَبْلَ إِنْشَائِهِمْ، ذَلِكَ بِأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، وَكُلُّ شَيْءٍ إِلَيْهِ فَقِيرٌ، وَكُلُّ أَمْرٍ عَلَيْهِ يَسِيرٌ، لَا يَحْتَاجُ إِلَى شَيْءٍ، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾.

لمَّا ذكر رحمه الله بعض صفات اللَّه سبحانه فكأنه أراد أن يبيِّن أنَّ صفات اللَّه عزوجل قبل أن يخلق الخلْق كاملةٌ، وكذا بعد أن خلق الخلْق، لذلك قال: (مَا زَالَ بِصِفَاتِهِ قَدِيماً قَبْلَ خَلْقِهِ) فقبل أن يَخلق الخلق صفاته سبحانه قديمةٌ، فلم يكن متّصفاً بصفة الخلْق بعد أن خلق الخلْق؛ بل هو متصف بها قبل أن يخلق، ولم يكن متصفاً بالرزق وأنه الرازق بعد أن رزق الخلق؛ بل من قبل أن يَخلقهم، وكذلك لم يتصف

بالقدرة بعد أن أحيا الخلق، أو بعد أن أمات الخلق، فهو سبحانه قديرٌ قبل أن يَخلق الخلق، قويٌّ قبل أن أحيا الخلق.

ثم بيَّن لك أمراً آخر وهو أن اللَّه عزوجل لم يزدد أيَّ صفة من صفات الخلق بعد أن خلقهم، فصفاته كاملةٌ قبل أن يخلق الخلق، ولو لم يخلق الخلق فصفاته كاملةٌ، فخلقه للخلْق لم يَزِدْ صفة من صفاته، بل هو متصف بها قبل أن يخلق الخلق؛ لذلك قال: (لَمْ يَزْدَدْ بِكَوْنِهِمْ شَيْئاً لَمْ يَكُنْ قَبْلَهُمْ مِنْ صِفَاتِهِ).

ثم بيَّن لك أمراً ثالثا أيضاً وهو: كما أنَّ صفات اللَّه عزوجل من قبل قديمةٌ وأزليةٌ، كذلك ما يزال بصفاته الآن وفي المستقبل؛ أي: أنه لا آخر لهذه الصفات، بل هي ممتدة، لذلك قال: (وَكَمَا كَانَ بِصِفَاتِهِ أَزَلِيّاً، كَذَلِكَ لَا يَزَالُ عَلَيْهَا أَبَدِيّاً).

فكأنه يقول لك: لا تظن أنَّ اللَّه لمَّا أحيا الخلْق في أوَّل خلقهم اتصف بالإحياء، والآن لا يتصف به؛ لا، بل اتصف بالإحياء ومازال متصف بالإحياء إلى الأبد، وكذلك لمَّا خلق السماوات والأرض وخلق آدم، هل معنى ذلك أن صفة الخلق انتفت عنه؟ لا، ما زال متصفاً بها صفةً أبديةً قبل الخلق وبعد الخلق.

ثم ضرب رحمه الله عدة أمثلةٍ ليبيِّن أنه سبحانه متصف بالصفات قبل أن يوجد أثر تلك الصفة في المخلوق أو قبل أن يوجد ذلك المخلوق، لذلك قال: (لَيْسَ مُنْذُ خَلَقَ الخَلْقَ اسْتَفَادَ اسْمَ الخَالِقِ) أي: اللَّه عزوجل متَّصفٌ بالخلْق قبل أن يَخلق الخلق، ومتَّصفٌ بالمغفرة قبل أن يوجَد المذنبين، ومتَّصفٌ بالحِلم قبل أن يوجد المسيئين، ومتَّصفٌ بالتوبة سبحانه قبل أن ينشئ المخطئين، وهكذا.

فصفاته كاملةٌ قبل وجود الخلْق، فهو سبحانه خالقٌ متَّصفٌ بالخلْق قبل أن يَخلق الخلق، وهو سبحانه رزاقٌ قبل أن يَخلق الخلْق، وهو سبحانه كريمٌ قبل أن يوجد الخلْق، وهو سبحانه ودودٌ قبل أن يوجد الخلْق سبحانه وتعالى، وهو سبحانه مهيمن قبل أن يوجد الخلْق، وهو سبحانه غنيٌّ قبل أن يوجد الخلق، وهكذا.

قال: (وَلَا بِإِحْدَاثِهِ البَرِيَّةَ اسْتَفَادَ اسْمَ البَارِي) الفَرق بين الخالق والبارئ: أن الخلْق إيجادٌ، والبرأ إبرازٌ وإظهارٌ، فهو سبحانه يَخلق

ويُظهر هذا الخلْق، فالخلْق: التكوين، والبرأ: الإبراز والإيجاد وتكوين هذا الخلْق، وهذا كلام ابن كثيرٍ رحمه اللَّه(١).

وذهب الخطابيُّ(٢) وغيره(٣) إلى أنَّ اسم البارئ يَختص بخلق الحيوانات، والخالق يختص بالسموات والأرض وغير الحيوانات.

واسم البارئ أتى في القرآن ثلاث مراتٍ؛ مرَّة معرّفاً في قوله تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ﴾ [الحشر: ٢٤]، ومرَّتان أتى منكَّراً مضافاً؛ وهما في قوله تعالى: ﴿فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ﴾، ﴿ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ﴾ [البقرة: ٥٤].

---

(١) تفسير ابن كثير (٨/ ٨٠).

وابن كثير هو: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشيُّ البصريُّ ثم الدمشقيُّ، ولد سنة (٧٠١ هـ)، وتوفي رحمه الله سنة (٧٧٤ هـ). الرد الوافر (ص ٩٢)، ذيل طبقات الحفاظ للسيوطيّ (ص ٢٣٨).

(٢) شأن الدعاء (١/ ٥٠).

والخطابيُّ هو: أبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم بن الخطاب، الخطابيُّ، البستيُّ، الشافعيُّ، وُلد سنة (٣١٩هـ)، وتوفي رحمه الله سنة (٣٨٨هـ). طبقات الفقهاء الشافعية (١/ ٤٦٧).

(٣) كابن منظور رحمه الله. لسان العرب (١/ ٣١).

قال: (لَهُ مَعْنَى الرُّبُوبِيَّةِ وَلَا مَرْبُوبَ) أي: أن اللَّه سبحانه وتعالى متَّصفٌ بأنه الرب ولا مربوب؛ لأنه بصفاته قديمٌ، وهو الأوَّل الذي ليس قبله شيءٌ.

(وَمَعْنَى الخَالِقِ وَلَا مَخْلُوقَ) أي: أنه سبحانه موصوفٌ بأنه الخالق ولا مخلوق، وهذا تكرار لقوله: (لَيْسَ مُنْذُ خَلَقَ الخَلْقَ اسْتَفَادَ اسْمَ الخَالِقِ).

ثم مثَّل فقال: (وَكَمَا أَنَّهُ مُحْيِي المَوْتَى بَعْدَمَا أَحْيَا، اسْتَحَقَّ هَذَا الِاسْمَ قَبْلَ إِحْيَائِهِمْ، كَذَلِكَ اسْتَحَقَّ اسْمَ الخَالِقِ قَبْلَ إِنْشَائِهِمْ)، فهو سبحانه متصف قبل إيجاد الفعل، ومتصف بعده بلا شك، لذلك قال: (ذَلِكَ بِأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) فاتصاف اللَّه سبحانه وتعالى بهذه الصفات العظيمة، وأنه موصوف بها أزلاً وأبداً؛ ذلك بأنه جل وعلا على كل شيء قديرٌ، كما قال سبحانه: ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة:٢٨٤].

(وَكُلُّ شَيْءٍ إِلَيْهِ فَقِيرٌ) من المخلوقات؛ أي: أنَّ الفقر ليس فقط في الإنس أو الجن أنهم محتاجون إلى اللَّه؛ بل حتى السماوات مفتقرة إلى اللَّه، والأرض مفتقرة إلى اللَّه؛ كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ﴾

[فاطر: ٤١]، فالسماء محتاجةٌ للَّه؛ لئلا تسقط على الأرض، والأرض ثبَّتها لئلا تسقط عليها السماء، فكل شيءٍ إليه محتاجٌ.

وقال سبحانه عن الناس: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥]، وقال: ﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الزمر: ٦٣]، وقال سبحانه: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الحديد: ١]، وقال سبحانه: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [الجمعة: ١]، وقال : ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤]، فكل شيء إليه فقيرٌ سبحانه عز وجل.

قال: (وَكُلُّ أَمْرٍ عَلَيْهِ يَسِيرٌ) أي: كل شيء سهلٌ عليه سبحانه، كما قال سبحانه عن نفسه: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة:٢٠]، وقال سبحانه: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢]، وقال: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ [فاطر: ٤٤]، وقال: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِراً﴾ [الكهف: ٤٥]، وقال: ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة: ١٢٠]، وقال : ﴿إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فصلت: ٣٩] سبحانه.

(لَا يَحْتَاجُ إِلَى شَيْءٍ) فالخلْق جميعاً - إنسهم وجنهم -، مفتقرٌ إلى اللَّه، بل هذه الشمس الكبيرة التي هي أكبر الأفلاك في السماء تَسجد للَّه عزوجل في كل يوم تحت العرش مفتقرةٌ له وتخاف منه عز وجل[١].

ثم ساق آية دالّة على أنَّ قدرة اللَّه عظيمة لا تقاس بشيءٍ، فقال: (﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾) والكاف في (كَمِثْلِهِ) للتأكيد، فتقدير الكلام: ليس شيء مثله أبداً، فمثله: خبرٌ مقدَّمٌ، وشيء: مبتدأٌ مؤخَّرٌ، فهو سبحانه ليس له نظيرٌ، كما قال: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ﴾ [الإخلاص:٤]، وقال: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيّاً﴾ [مريم: ٦٥]، وهكذا.

(﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾) مطَّلعٌ على خلْقه، قائمٌ بشؤونهم، عليمٌ بهم، مطَّلعٌ على أفعالهم، سميعٌ لأقوالهم، بصيرٌ بأفعالهم.

فتبين لك مما سبق أنه سبحانه متصفٌ بصفاته أزلاً وأبداً، فهو الخالق قبل الخلْق وبعده، ولم يكتسب اسم الباري بعد إحداث البرية؛ بل هو اسمه قبل وبعد الإحداث، له معنى الربوبية ولا مربوب، وهو

(١) كما في حديث أبي ذرٍّ رضي الله عنه، وفيه: «إنَّ الشَّمْسَ تَذْهَبُ حتَّى تَسْجُدَ تَحْتَ العَرْشِ، فَتَسْتَأْذِنَ، فيُؤْذَنُ لَهَا...» الحديث رواه البخاريُّ، كتاب بدء الخلق، باب صفة الشمس والقمر، رقم (٣١٩٩).

الموصوف بالكمال، والمتصف بالخلْق قبل أن يكون مخلوقاً من البشر أو غير البشر.

خَلَقَ الخَلْقَ بِعِلْمِهِ، وَقَدَّرَ لَهُمْ أَقْدَاراً، وَضَرَبَ لَهُمْ آجَالاً، لَمْ يَخْفَ عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ أَفْعَالِهِم قَبْلَ أَنْ خَلَقَهُمْ، وَعَلِمَ مَا هُمْ عَامِلُونَ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَهُمْ، وَأَمَرَهُمْ بِطَاعَتِهِ، وَنَهَاهُمْ عَنْ مَعْصِيَتِهِ.

قال المصنِّف رحمه اللَّه: (خَلَقَ الخَلْقَ بِعِلْمِهِ، وَقَدَّرَ لَهُمْ أَقْدَاراً، وَضَرَبَ لَهُمْ آجَالاً، لَمْ يَخْفَ عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ أَفْعَالِهِم قَبْلَ أَنْ خَلَقَهُمْ، وَعَلِمَ مَا هُمْ عَامِلُونَ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَهُمْ) هنا يذكر رحمه الله إثبات سعة عِلم اللَّه عزوجل.

قال: (خَلَقَ الخَلْقَ بِعِلْمِهِ) يعني: خلقهم وهو عالِم بهمٌ، وهو سبحانه موصوف بالعِلم قبل أن يخلق الخلْق، وموصوف بالعِلم بعد أن خلق الخلْق، قال سبحانه: ﴿وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ [يس: ٨١].

وهو سبحانه يخلق ويعلم قبل أن يخلق ما سيكون، وبعد أن خلق عَلم ما خلق، قال سبحانه: ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ [النمل: ٧٨] سبحانه، وقال: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً﴾ [طه: ١١٠]، وقال: ﴿وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً﴾ [طه: ٩٨].

وهو سبحانه لا تخفى عليه خافيه، قال سبحانه: ﴿وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ

ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [يونس: ٦١]، وقال ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩]، وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَداً وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ [لقمان: ٣٤].

قال: (وَقَدَّرَ لَهُمْ أَقْدَاراً) أي: أن اللَّه سبحانه خلق كلَّ شيء وقدَّره، فلم يخلقه وجهل تقدير ذلك الخلْق، فمثلاً: اللَّه عزوجل ينزل المطر، وليس معنى ذلك أنه لا يعلم كمية نزول المطر؛ بل سبحانه يَعلم حتى القدْر الذي يَنزل، كما قال سبحانه: ﴿وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ﴾ [الزخرف: ١١]، فكل شيء مقدَّرٌ، قال سبحانه: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩]، وقال سبحانه: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً﴾ [الفرقان: ٢]، وقال: ﴿وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ﴾ [المؤمنون: ١٧] سبحانه.

فلو قال شخصٌ: لو تقدَّمتُ شهراً وخطبتُ تلك المرأة لتزوجتُها؛ نقول: لا؛ لأنَّ اللَّه مقدِّر كل شيءٍ، وعالِمٌ بكل شيءٍ، فهو الذي قدَّر أن

فلاناً يَخطب فلانةً ويتزوجها، وهو الذي غيَّب عنك تلك المرأة لخطبتها؛ لأنه سبحانه قدَّر كل شيءٍ، وكتب كل شيءٍ سبحانه وتعالى.

وكذلك لو قال شخص: لو ذاكرتُ هذه الصفحة لحفظتُها وأجبتُ في الامتحان؛ فنقول: إن اللَّه مقدِّرٌ كل شيءٍ، فقدر سبحانه أن هذه الصفحة ما تذاكرها، ولا تجيب في الامتحان، وهكذا.

إذاً فكل شيءٍ مقدَّر، فما خلقه اللَّه قدَّره؛ كما قال سبحانه: ﴿وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى﴾ [الأعلى: ٣] فقدَّره وهداه.

قال: (وَضَرَبَ لَهُمْ آجَالاً) يعني: جعل لكل شيءٍ منتهى، قال سبحانه: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ [الرعد: ٣٨]، وقال: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ [الرحمن: ٢٥]، وفي صحيح البخاري[(١)]: «حَقٌّ عَلَى اللَّهِ أَنْ لَا يَرْتَفِعَ شَيْءٌ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا وَضَعَهُ»، وقال صلى الله عليه وسلم: «كَتَبَ اللَّهُ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ»[(٢)].

---

(١) كتاب الجهاد والسير، باب ناقة النبي صلى الله عليه وسلم، رقم (٢٨٧٢)، من حديث أنسٍ رضي الله عنه.

(٢) رواه مسلمٌ، كتاب القدَر، باب حجاج آدم وموسى عليهما السلام، رقم (٢٦٥٣)، من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

فكل شيءٍ لا يخفى عليه، كما قال سبحانه: ﴿لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٨]، وقال سبحانه: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٣٧]، وقال: ﴿وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [التحريم: ٢]، وقال: ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [إبراهيم: ٤].

فلعِلمه وحكمته سبحانه وتعالى لا يخفى عليه شيءٌ قبل أن يخلقهم، فقبل أن يخلقهم يَعلم ما سيفعلون، كما قال سبحانه: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٨]، وقال سبحانه: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالاً وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ﴾ [التوبة: ٤٧]، فهو سبحانه يَعلم ما يريدوا قبل أن يفعلوا.

لذلك قال رحمه اللَّه: (لَمْ يَخْفَ عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ أَفْعَالِهِم قَبْلَ أَنْ خَلَقَهُمْ، وَعَلِمَ مَا هُمْ عَامِلُونَ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَهُمْ) فهو سبحانه ﴿الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد: ٣].

ثم قال: (وَأَمَرَهُمْ بِطَاعَتِهِ، وَنَهَاهُمْ عَنْ مَعْصِيَتِهِ) يذكر هنا الحكمة من خلقه للجن والإنس، وأنه خلقهم لطاعته.

وهنا يثبِت الإرادتين: الإرادة الكونيَّة القدَريَّة، والإرادة الدينيَّة الشرعيَّة.

يعني: كأن المصنِّف يقول لك: اللَّه خلق الخلق بعِلمه، وهؤلاء الخلق سينقسمون إلى قِسمين: طائع، وعاصي.

فاللَّه أمر الجميع بالطاعة، ونهى الجميع عن المعصية، من أطاعه فتلك الإرادة الدينية الشرعية ويدخل فيها الإرادة الكونية القدرية، ومن عصاه فاللَّه يَعلم أنه عاصي، وتلك الإرادة الكونية القدرية.

أي: أن الجميع لن يخرج عن عِلم اللَّه وقهره، فهو سبحانه مطَّلعٌ عليهم حتى العاصي، لكن العاصي اللَّه سبحانه نهاه عن معصيته، لذلك قال: (**وَأَمَرَهُمْ بِطَاعَتِهِ، وَنَهَاهُمْ عَنْ مَعْصِيَتِهِ**) كما قال سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، وقال: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥].

فتبين مما سبق إثبات سعة عِلم اللَّه، وأن اللَّه سبحانه خلق الخلْق، فهو عالِم بهم، وأنه سبحانه لمَّا خلقهم قدر الآجال والرزق والحركة والسكون، وهكذا، فكل شيء عنده بمقدارٍ، كما قال سبحانه: ﴿وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ﴾ [المؤمنون: ١٧]، وحركاتهم لها آجالٌ تنتهي فيها، واللَّه سبحانه قبل أن يَخلقهم لا يخفى عليه شيءٌ، وقبل أن يَخلقهم عالِمٌ بأعمالهم، والجميع مأمورٌ بطاعة اللَّه ومنهيٌّ عن معصيته سبحانه.

وَكُلُّ شَيْءٍ يَجْرِي بِقُدْرَتِهِ وَمَشِيئَتِهِ، وَمَشِيئَتُهُ تَنفُذُ، لَا مَشِيئَةَ لِلْعِبَادِ إِلَّا مَا شَاءَ لَهُمْ، فَمَا شَاءَ لَهُمْ كَانَ، وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ، يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَيَعْصِمُ وَيُعَافِي فَضْلاً، وَيُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَخْذُلُ وَيَبْتَلِي عَدْلاً.

وَكُلُّهُمْ يَتَقَلَّبُونَ فِي مَشِيئَتِهِ بَيْنَ فَضْلِهِ وَعَدْلِهِ، لَا رَادَّ لِقَضَائِهِ، وَلَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ، وَلَا غَالِبَ لِأَمْرِهِ، آمَنَّا بِذَلِكَ كُلِّهِ، وَأَيْقَنَّا أَنَّ كُلّاً مِنْ عِنْدِهِ.

قال رحمه اللَّه: (وَكُلُّ شَيْءٍ يَجْرِي بِقُدْرَتِهِ وَمَشِيئَتِهِ) يعني: جميع ما في الكون اللَّه عزوجل هو الذي قدَّره وخلقه وهيَّأ أموره، قال سبحانه: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩]، وقال: ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [البقرة: ١٠٧]، وقال: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الحديد: ١]، وقال: ﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الزمر: ٦٣]، وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٠]، وقال: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤]، وقال: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ [الرعد: ٨]، وقال: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢].

فكل شيءٍ في هذا الكون بتقدير اللَّه، فهو الذي قدَّره، فقدَّر أن فلاناً يُخلق، وقدَّر أن يَجعل الجبال راسياتٍ، وهكذا.

قال: (وَمَشِيئَتُهُ تَنْفُذُ) يعني: إذا شاء شيئاً يَنفذ، قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]، وقال: ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ﴾ [فاطر: ٢].

ثم قال: (لَا مَشِيئَةَ لِلْعِبَادِ إِلَّا مَا شَاءَ لَهُمْ، فَمَا شَاءَ لَهُمْ كَانَ) فإذا شاء اللَّه عزوجل لخلقه شيئاً؛ يكون هذا الأمر، (وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ) فإذا ما أراد هذا الأمر لا يمكن أن يَحدث، قال النبي صلى الله عليه وسلم: «اللَّهُمَّ لَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ، وَلَا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ»[1]، وقال سبحانه: ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ﴾ [فاطر: ٢]، وقال سبحانه: ﴿يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثاً وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ﴾ [الشورى: ٤٩]، وقال سبحانه: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ﴾ [الشورى: ٢٧] سبحانه.

(١) رواه البخاريُّ، كتاب الأذان، باب الذكر بعد الصلاة، رقم (٨٤٤)، ومسلمٌ، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب استحباب الذِّكر بعد الصلاة وبيان صفته، رقم (٥٩٣)، من حديث المغيرة بن شعبة رضي الله عنه.

فهو عزوجل ما شاءه في الكون يقع، والعباد ليس لهم مشيئةٌ فوق مشيئة اللَّه عزوجل، وإنما لهم مشيئةٌ تليق بحالهم، ولكن مشيئة اللَّه فوق مشيئتهم؛ يعني: أن العباد لهم فعل السبب وهي المشيئة التي أقدرها اللَّه عزوجل لهم، فإذا أرادوا شيئاً واللَّه عزوجل لم يُرِده؛ لم يقع إلا ما أراده اللَّه، قال صلى الله عليه وسلم: «وَاعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ؛ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ، وَلَوِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ؛ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الْأَقْلامُ، وَجَفَّتِ الصُّحُفُ»[١].

وقال سبحانه: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً﴾ [يونس: ٩٩]، لكن اللَّه ما شاء أن يؤمنوا حتى مع سعي الكفار للَّهداية وتمنيهم لها؛ كما قال سبحانه: ﴿رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ [الحجر: ٢]، ومع ذلك لأن اللَّه لم يُرِد أن ينالوا تلك الهداية ما نالوها، قال سبحانه: ﴿وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [النحل: ٩٣]، وقال سبحانه: ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾

---

(١) رواه أحمد في المسند، رقم (٢٦٦٩)، من حديث عبد الله بن عباسٍ رضي الله عنهما.

[الأنبياء: ٢٣]، وقال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾ [هود: ١٠٧]، وقال: ﴿وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

قال: (يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ) كما قال سبحانه: ﴿فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [إبراهيم: ٤]، فبعزته وحكمته يهدي، وبعزته وحكمته وعدله يضل.

(وَيَعْصِمُ وَيُعَافِي) يعصم من الغواية، ويعصم من الشيطان، ويعصم من الأمراض، ويعصم من الفقر، وغير ذلك من الشرور، ويعافي من أضداد ذلك، فيعافيك من المرض فيصحّك، ويعافيك من الفقر فيغنيك، وهكذا، لذلك النبي صلى الله عليه وسلم يقول: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْعَفْوَ وَالْعَافِيَةَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ»[١] فالعفو: في الماضي، والعافية: الآن.

قال: (فَضْلاً) فهنا سبحانه فعل ذلك فضلاً منه، فالهداية والعافية والعصمة، وكذلك الغنى والجاه، وكثرة الأولاد والأرزاق والزوجات، وهكذا؛ كل ذلك بفضله سبحانه، قال سبحانه: ﴿وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ

(١) رواه ابن ماجه، كتاب الدعاء، باب ما يدعو به الرجل إذا أصبح وإذا أمسى، رقم (٣٨٧١)، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

فَضْلِهِ﴾ [النساء: ٣٢]، وسليمان عليه السلام قال: ﴿وَهَبْ لِي مُلْكاً لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ [ص: ٣٥]؛ لأنه سبحانه هو المتفضِّل، وقال سبحانه لمَّا ذكر قصة مريم وزكريا: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: ٣٧]، وقال: ﴿وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [البقرة: ٢١٢]، وقال: ﴿هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [ص: ٣٩].

لذلك يجِب على المرء أن يَسأل اللَّه من واسع فضله العظيم؛ لذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم: «فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَتَعَاظَمُهُ شَيْءٌ أَعْطَاهُ»(١)، فكل شيءٍ عنده يَسير، فاسأل اللَّه عزوجل ما تتمناه وفوق ما تتمناه، قال اللَّه: ﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٤٧]، وقال: ﴿وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [التغابن: ٦]، وفي الآية الأخرى: ﴿غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ [النمل: ٤٠]، فهو سبحانه غنيٌّ كريمٌ، واسعٌ حميدٌ، ودودٌ رؤوفٌ، قويٌّ قديرٌ يعطيك سؤلك.

فيجِب على المرء أن يسأل ربه كثيراً، فمن أجمع الأدعية: اللَّهم إني أسألك من فضلك العظيم.

---

(١) رواه مسلمٌ، كتاب الذِّكر، والدعاء، والتوبة، والاستغفار، باب العزم بالدعاء، ولا يقل: إن شئت، رقم (٢٦٧٩)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

قال: (وَيُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ) بمشيئته سبحانه، فيضل بالخروج عن الإسلام، أو بالفسق ممن كان في الإسلام، كما قال سبحانه: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً﴾ [يونس: ٩٩]، لكن لم يشأ، فأضل من شاء، وقال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [إبراهيم: ٤]، وقال: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾ [الأنعام: ١٢٥]، وقال سبحانه: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾ [الأنعام: ١١٢]، وقال: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [البقرة: ٢٥٣]، وقال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾ [هود: ١٠٧].

(وَيَخْذُلُ) سبحانه من يشاء بعد أن كان عزيزاً، وبعد أن كان قوياً يَضعف، وبعد أن كان مكيناً يُهتك الستر، وهكذا.

(وَيَبْتَلِي) بمرض، أو بفقر، أو بوفاة أولاد له أو إخوة، أو يبتليه بشدة محن في هذه الدنيا.

قال: (عَدْلاً) كما قال سبحانه عزوجل: ﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِلْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ١٠٨]، وقال: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾

[فصلت: ٤٦]، وقال: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ﴾ [الزخرف: ٧٦]، وقال: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ [هود: ١٠١]، وقال: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠]، وقال: ﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٥]، وقال: ﴿وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولاً وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً﴾ [النساء: ٧٩].

ثم قال رحمه اللَّه: (وَكُلُّهُمْ يَتَقَلَّبُونَ فِي مَشِيئَتِهِ) فيما يشاءه لهم من الخير والشر، فإذا اللَّه أراد للعبد الخير والرفعة وقع له، أو شاء له غير ذلك وقع ما شاء، كما قال المصنِّف قبل ذلك: (وَمَشِيئَتُهُ تَنْفُذُ).

والخلْق ينقسمون إلى قِسمين في مشيئة اللَّه، لذا قال: (بَيْنَ فَضْلِهِ وَعَدْلِهِ) كما قال سبحانه: ﴿فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ﴾ [التغابن: ٢]، وقال: ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ [الشورى: ٧]، وقال: ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾ [الحشر: ٢٠].

فجميع الخلق في هذه المشيئة التي يريدها اللَّه عزوجل إن شاء أضل وإن شاء هدى، لهذا على المرء أن يدعو ربه كثيراً بالهداية؛ لأنه

متقلِّب في مشيئة اللَّه، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: «قُلُوبُ الْبَشَرِ بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ يُقَلِّبُهَا كَيْفَ يَشَاءُ»(١).

وقول المصنِّف رحمه الله فيما سبق إلى قوله: (**وَكُلُّهُمْ يَتَقَلَّبُونَ فِي مَشِيئَتِهِ بَيْنَ فَضْلِهِ وَعَدْلِهِ**) ردٌّ على القدَرية(٢) الذين يقولون: إن العبد يَخلق فعْل نفسه؛ يعني: أن اللَّه لا يخلق شيئاً من ذلك، فالقدَرية وغيرهم يَرَون أن العبد هو الذي يخلق فعل نفسه، واللَّه لا يستطيع – تعالى اللَّه عن ذلك – أن يغني فلاناً، أو أن يعافي فلاناً، أو أن يهديه أو أن يضِله، وأنَّ العبد هو الذي يخلق فعل نفسه؛ فإن شاء أن يهدي نفسه هداها، وإن شاء أن يُمرض نفسه أمرضها، وإن شاء أن يعافي نفسه عافاها، وقد ردَّ عليهم

---

(١) رواه مسلمٌ، كتاب القدَر، باب تصريف الله تعالى القلوب كيف شاء، رقم (**٢٦٥٤**)، من حديث عبد الله بن عمرو بن العاصي رضي الله عنهما، ولفظه: «إِنَّ قُلُوبَ بَنِي آدَمَ كُلَّهَا بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ، كَقَلْبٍ وَاحِدٍ، يُصَرِّفُهُ حَيْثُ يَشَاءُ».

(٢) القدرية هم: فرقة أنكرت القدَر، وزَعمت أنَّ الأمر أُنُف، وأنَّ الله لم يَخلق أفعال العباد، ويَجعلون العبد هو خالق فعل نفسه، وأوَّل مَن تكلَّم في القدَر: مَعْبدُ الجُهْنّي، وقد سماهم النبي صلى الله عليه وسلم: مجوس هذه الأمَّة، تَبرَّأ منهم الصحابة، وأَوصوا أخلافهم بأن لا يُسلِّموا عليهم، ولا يصلُّوا على جنائزهم، ولا يعودوا مرضاهم. الفَرْق بين الفِرَق (ص١٤-١٥)، شرح العقدية الطحاوية (ص ٦٨، ٢٤٩).

القرآن في قوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الإنسان: ٣٠]، فللخلق مشيئة لكنها ليست فوق مشيئة اللَّه.

ثم قال بعد ذلك: (وَهُوَ مُتَعَالِي عَنِ الأَضْدَادِ وَالأَنْدَادِ)[١] ساق رحمه الله هذه العبارة؛ ليبيِّن أنَّ من قال أنَّ العبد هو الذي يخلق فعل نفسه كأنه جعل مع اللَّه ندّاً، فكأنه يقول: اللَّه يخلق السماوات والأرض، والعبد يخلق فعل نفسه؛ فنقول: لا؛ اللَّه عزوجل هو الذي خلق أفعال العباد، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩].

وللعباد مشيئة وقدرة، لكن مشيئتهم وقدرتهم تحت مشيئة اللَّه، فتعالى عن الأضداد والأنداد، كما قال سبحانه: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ﴾ [الإخلاص:٤]، وقال: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيّاً﴾ [مريم: ٦٥]، فاللَّه سبحانه وتعالى ليس له مكافئٌ ولا ندٌّ، تعالى عن الأضداد والأنداد.

قال: (لَا رَادَّ لِقَضَائِهِ) فالذي يريد وقوعه يقع، كما قال اللَّه: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]، وقال: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [فصلت: ١١]، وقال: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا

(١) ليست في المطبوع، لعلها في نسخة أخرى.

تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤]، وقال: ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْداً* لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدّاً * وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْداً﴾ [مريم: ٩٣-٩٥].

فهو سبحانه قويٌّ متعالٌ، عظيمٌ ملكٌ، سيّدٌ مقتدرٌ على كل شيءٍ، لا أحد يَرُد ما شاءه، قال سبحانه: ﴿وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾ [الشورى: ١٩]، وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٨].

قال: **(وَلَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ)** أي: إذا أراد اللَّه شيئاً لا يستطيع أحدٌ أن يؤخِّر نزوله، أو يغيِّر نزول هذا الخير من فلانٍ إلى فلانٍ، أو من زمنٍ إلى زمنٍ، أو من مكانٍ إلى مكانٍ؛ يعني: لا معقِّب لحكمه في الزمان والمكان.

(وَلَا غَالِبَ لِأَمْرِهِ) يعني: لا أحد يَغلب اللَّه عزوجل في نزول أمره؛ أي: إذا أراد اللَّه شيئاً لا أحد يَغلب اللَّه عزوجل في نزول ذلك الأمر؛ لأن اللَّه هو القوي، وهو العلي، وهو العظيم، وهو السيد، قال سبحانه: ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٢١]، وقال عن يوم القيامة: ﴿وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ﴾ [الذاريات: ٦] قهراً عن الجميع، وقال سبحانه: ﴿وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [الرعد: ١٦]،

وقال سبحانه: ﴿الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الحشر: ٢٣].

فلا أحد يستطيع أن يُرد أمر اللَّه أبداً، ولا أن يبدله ولا أن يغيره، فالجميع مذعن للَّه، قال اللَّه: ﴿إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾ [الشعراء: ٤]، وقال: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ﴾ [الأعراف: ١٧١]، فالجميع تحت قهر اللَّه عزوجل، وقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥] أي: المحمود على كل جميع أفعاله.

ثم ختم ذلك الأمر فقال: (آمَنَّا بِذَلِكَ كُلِّهِ) يعني: بجميع ما ذكرناه في هذه العقيدة من البداية إلى هنا، وما سيأتي، (وَأَيْقَنَّا) من اليقين، ورتبة اليقين أقوى من الإيمان، (أَنَّ كُلّاً مِنْ عِنْدِهِ) أي: أن كل ما يَحدث من عند اللَّه، كما قال سبحانه: ﴿آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران: ٧].

لذلك يجِب على العبد أن يَستحضر ضعفه وقوة اللَّه، وأن يَستحضر فقره وغنى اللَّه، وأن يَعرف قدْر مشيئته التي أعطاه إياها اللَّه عزوجل، وأن يَستحضر عظمة مشيئة اللَّه عزوجل، ويَستحضر أيضاً أنَّ أمر اللَّه نافذٌ وما قدَّره فإنه يكون.

وَإِنَّ مُحَمَّداً صلى الله عليه وسلم عَبْدُهُ الْمُصْطَفَى، وَنَبِيُّهُ الْمُجْتَبَى، وَرَسُولُهُ الْمُرْتَضَى.

وَإِنَّهُ خَاتَمُ الأَنْبِيَاءِ، وَإِمَامُ الأَتْقِيَاءِ، وَكُلُّ دَعْوَةِ نُبُوَّةٍ بَعْدَ نُبُوَّتِهِ فَغَيٌّ وَهَوىً، وَهُوَ الْمَبْعُوثُ إِلَى عَامَّةِ الْجِنِّ وَكَافَّةِ الْوَرَى بِالْحَقِّ وَالْهُدَى[1].

قال رحمه اللَّه: **(وَإِنَّ مُحَمَّداً صلى الله عليه وسلم عَبْدُهُ)** أي: عبد اللَّه جل وعلا، فالضمير هنا عائدٌ إلى ما تقدم في قوله: **(نَقُولُ فِي تَوْحِيدِ اللَّهِ)**.

ووصْف النبي صلى الله عليه وسلم بالعبودية من أعظم ما يوصف به صلى الله عليه وسلم؛ فاللَّه سبحانه وتعالى وصف نبيَّنا محمداً صلى الله عليه وسلم بالعبودية في أربعة مواضعٍ هي من أعظم المواضع:

الموضع الأوَّل: في الدَّعوة، فقال: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ﴾ [الجن: ١٩].

والموضع الثاني: في القرآن، فقال: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا﴾ [البقرة: ٢٣]، وهذا في التَّحدي.

والموضع الثالث: في نزول القرآن، فقال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ﴾ [الكهف: ١].

---

(١) هذه القطعة لم يشرحها الشيخ، وتم تجميع شرحها من شروح مختلفة.

والموضع الرابع: في الإسراء، فقال: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾ [الإسراء: ١].

فهذه المواضع الأربعة وصف اللَّه عز وجل نبيَّه محمداً صلى الله عليه وسلم بالعبودية؛ لأنَّ اللَّه عز وجل تفضَّل عليه بالشيء العظيم فيها، وكلَّما ذلَّ العبد للَّه: رفعه اللَّه، فوُصِفَ في تلك الأحوال بعبوديته للَّه فرفعه اللَّه.

فقوله: (**عَبْدُهُ**) كما قال عن نفسه عليه الصَّلاة والسَّلام: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، قُولُوا بِقَوْلِكُمْ، وَلَا يَسْتَهْوِيَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ، أَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ، وَرَسُولُ اللَّهِ، وَاللَّهِ مَا أُحِبُّ أَنْ تَرْفَعُونِي فَوْقَ مَا رَفَعَنِي اللَّهُ»(١)، وفي هذا ردٌّ على من غلا في النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم بأنْ جعله ينفع أو يضر.

والعبودية تنقسم إلى قِسمين:

القِسم الأوَّل: عبوديةٌ عامّةٌ، وهذه في أمرين:

الأمر الأوَّل: في ربوبية اللَّه سبحانه وتعالى؛ قال تعالى: ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْداً﴾ [مريم: ٩٣].

---

(١) رواه أحمد في المسند، رقم (١٣٥٢٩)، من حديث أنسٍ رضي الله عنه.

والأمر الثاني: عبوديةٌ في ألوهيته تعالى؛ كما قال سبحانه: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ [فاطر: ٣٢].

وهذه العبودية لجميع الناس فلا يُحمد المرء عليها، وإنَّما يُحمد على القِسم الثاني.

والقِسم الثاني: عبوديةٌ خاصةٌ، وهي عبودية التَّشريف والتَّكريم كما في قوله سبحانه: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ﴾ [الجن: ١٩]، فكلُّ من عَبَدَ اللَّه تذلُّلاً له مُطيعاً له: يُحمد.

وكلمة الخطيب وغيره في المناسبات «وأشهدُ أنّ محمَّداً عبده ورسوله»: أبلغ وأكمل وأفضل من كلمة «وسيدنا محمد»، لماذا؟

لأمرين: **الأمر الأوَّل**: لأن الوارد في خطبة الحاجة(١) هو «عبده ورسوله»، وليس «سيدنا».

والأمر الثاني: مقام النبوة أعلى من السيادة، ففي هذه الأمَّة لا يُطلق

---

(١) كما في حديث ابن مسعودٍ رضي الله عنه قال: «عَلَّمَنَا خُطْبَةَ الْحَاجَةِ: الْحَمْدُ لِلَّهِ، نَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ، فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ، فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ». رواه أحمد في المسند، رقم (٣٧٢٠).

نبيٌّ إلا على شخصٍ واحدٍ وهو النبي محمد صلى الله عليه وسلم، وأما السيد يطلق حتى على الكفار؛ قال اللَّه: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا﴾ [الأحزاب: ٦٧]، فحتى أهل النفاق يطلق عليهم سيد، وقال النبي صلى الله عليه وسلم: «لَا تَقُولُوا لِلْمُنَافِقِ سَيِّدنا؛ فَإِنَّهُ إِنْ يَكُ سَيِّدكُمْ فَقَدْ أَسْخَطْتُمْ رَبَّكُمْ عَزَّ وَجَلَّ»(١)، والمؤمنون يطلق عليهم سيدٌ، النَّبِيُّ صلى اللَّه عيه وسلم قال: «أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ»(٢).

فأيهما أفضل أن نطلق لقباً – وهو عبده ورسوله – لا يحوزه إلا هو، أو نطلق عليه لفظاً يشاركه فيه خلقٌ كثير؟! بدون شكٍ الأفضل أن نطلق عليه لفظاً يختصُّ به هو.

قال: (المُصْطَفَى) أي: المختار، ثم قال: (وَنَبِيُّهُ المُجْتبَى) فهو صلى الله عليه وسلم عبدٌ نبيٌ منبَّأٌ بالوحي الذي أنزله اللَّه إليه، قال تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ﴾

---

(١) رواه أحمد في المسند، رقم (٢٢٩٣٩)، من حديث بريدة رضي الله عنه.

(٢) رواه مسلمٌ، كتاب الفضائل، باب تفضيل نبيِّنا صلى الله عليه وسلم على جميع الخلائق، رقم (٢٢٧٨)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

[النساء: ١٦٣]، والاجتباء: قريبٌ من معنى الاصطفاء[1].

قال: (وَرَسُولُهُ المُرْتَضَى) أي: الذي ارتضاه اللَّه، قال سبحانه وتعالى: ﴿إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا﴾ [الجن: ٢٧]، والمرتضى هو الذي يكون ممتثلاً للأمر منتهياً عن النهي مسارعاً إلى الخير، والنبي صلى الله عليه وسلم مرضيٌّ من رب العالمين، ولذلك خصَّه سبحانه وتعالى بما لم يُخصَّ به غيره.

والاصطفاء والاجتباء والارتضاء: متقاربة المعنى.

ونلاحظ هنا أنَّ المصنِّف رحمه الله قد أحسن في تناسب هذه الكلمات حيث ربط الاصطفاء بالعبودية، فقال: **(عَبْدُهُ المُصْطَفَى)**، والاجتباء بالنبوة فقال: **(وَنَبِيُّهُ المُجْتَبَى)**، والارتضاء بالرسالة فقال: **(وَرَسُولُهُ المُرْتَضَى)**؛ فإن هذا موافقٌ لِما جاء في القرآن، فقد قال سبحانه وتعالى: ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى﴾ [النمل: ٥٩]، وفي سورة الأنعام لمَّا ذكر اللَّه إبراهيم، ومن هدى اللَّه من ذريته فقال: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ﴾ [الأنعام: ٨٤] قال بعد ذلك: ﴿وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ

---

(١) تكملة المعاجم العربية (٢/ ١٤٢).

وَاجْتَبَيْنَاهُمْ﴾ [الأنعام: ٨٧] فوصف هؤلاء الصفوة من الأنبياء بالاجتباء.

وأما الارتضاء ففي قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ﴾ [الجن: ٢٧]، فكأنه استوحى هذا من الآيات.

ثم قال: (وَإِنَّهُ خَاتَمُ الأَنْبِيَاءِ) أي: الذي خُتم به الأنبياء، فلا نبي بعده، وقد دل على ذلك قوله سبحانه: ﴿وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ [الأحزاب: ٤٠]، وقوله صلى الله عليه وسلم: «وَأَنَا خَاتَمُ النَّبِيِّينَ لَا نَبِيَّ بَعْدِي»[١]، فهو خاتمهم؛ يعني: كأن الرسالة وُضعت في مِثل الإناء، ثُم أتى النبيُّ صلى الله عليه وسلم وخَتمها.

قال: (وَإِمَامُ الأَتْقِيَاءِ) كما قال صلى الله عليه وسلم قال: «أَمَا وَاللَّهِ! إِنِّي لَأَتْقَاكُمْ لِلهِ، وَأَخْشَاكُمْ لَهُ»[٢]، والإمام هو الذي يؤتم به، فإمام الأتقياء هو رسول اللَّه صلى اللَّه وعليه وسلم؛ لأنه مقدَّمهم، ولأنه محل الأسوة لهم، فبه يتأسون وبه يقتدون، وعن فعله يسيرون صلى اللَّه عليه وعلى آله وسلم، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ

(١) رواه أحمد في المسند، رقم (٢٢٣٩٥)، من حديث ثوبان رضي الله عنه.

(٢) رواه مسلمٌ، كتاب الصيام، باب بيان أن القبلة في الصوم ليست محرمة على من لم تحرك شهوته، رقم (١١٠٨)، من حديث عمر بن أبي سلمة رضي الله عنهما.

حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ﴾ [الأحزاب:٢١]، وقال جل وعلا: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران:٣١]، فجعله اللَّه إماماً لهم في العمل وفي الأسوة، فهو إمام الأتقياء صلى الله عليه وسلم.

ثم قال رحمه اللَّه: **(وَكُلُّ دَعْوَةِ نُبُوَّةٍ بَعْدَ نُبُوَّتِهِ فَغَيٌّ وَهَوىً)** هذا نفيٌ وإبطالٌ لدعوى النبوة بعد النبي صلى الله عليه وسلم، وهذا هو مقتضى أنه خاتم الأنبياء، فإذا عُلم بالضرورة أنه خاتم الأنبياء، فيُعلم بالضرورة أن كل دعوى للنبوة بعده فهي دعوى باطلة.

وقوله: **(فَغَيٌّ)** الغيُّ هو الجهل عن اعتقادٍ فاسدٍ، فادعاء النبوة بعد نبوة النبي صلى الله عليه وسلم جهلٌ ناشئٌ عن اعتقادٍ فاسدٍ، وهو أنه تجوز النبوة بعده صلى الله عليه وسلم، **(وَهَوىً)** أي: واتباعٌ للَّهوى، وهو ما تشتهيه النفس وتميل إليه، فالهوى: مأخوذ من هوى يهوى إذا مال إلى الشيء والتذَّ به وانجذب إليه[١]، فكل من ادعى النبوة بعد محمد بن عبد اللَّه صلى الله عليه وسلم فدعواه لا تخرج عن هذين: عن كونها جهلاً ناشئاً عن اعتقاد فاسد، أو اتباعاً للَّهوى.

---

(١) الصحاح (٦/ ٢٥٣٨).

قال: (وَهُوَ المَبْعُوثُ إِلَى عَامَّةِ الجِنِّ وَكَافَّةِ الوَرَى) أي: الناس، فهو صلى الله عليه وسلم مرسلٌ إلى الثقلين الجن والإنس؛ فالدليل على كونُه مبعوثاً إِلَى عامة الجِن: قال تَعَالَى حكايةً عن قَوْلِ الجن: ﴿يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ﴾ [الأحقاف:٣١]، وكذا سورة الجن تدل على أنه أرسل إليهم أيضاً.

والأدلة على كونه مرسلاً للإنس كثيرةٌ جدّاً؛ منها: قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبأ:٢٨]، وقال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف:١٥٨]، وقال تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء:٧٩]، وغير ذلك من الآيات، وكما قال صلى الله عليه وسلم: «أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي: - وذكر منها - وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً، وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً»(١).

قال: (بِالحَقِّ وَالهُدَى) وهذا وصفٌ مطابقٌ لفظاً ومعنىً لِما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم؛ فإن نبينا صلى الله عليه وسلم بعثه اللَّه بالهدى

(١) رواه البخاريُّ، كتاب التيمم، رقم (٣٣٥)، ومسلمٌ، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، رقم (٥٢١)، من حديث جابر رضي الله عنه.

ودين الحق، كما قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ﴾ [الفتح:٢٨]، والهدى: العِلم النافع، ودين الحق: العمل الصالح(١)، فبعث اللَّه عز وجل رسوله بالحق في الأقوال والأعمال، وبالهدى في العِلم والاعتقاد.

(١)تفسير ابن كثير (٧/ ٣٠٣).

وَإِنَّ القُرْآنَ كَلَامُ اللَّهِ تعَالَى، مِنْهُ بَدَأَ بِلَا كَيْفِيَّةٍ قَوْلاً، وَأَنْزَلَهُ عَلَى نَبِيِّهِ وَحْياً، وَصَدَّقَهُ الْمُؤْمِنُونَ عَلَى ذَلِكَ حَقّاً.

وَأَيْقَنُوا أَنَّهُ كَلَامُ اللَّهِ تَعَالَى بِالحَقِيقَةِ، وَلَيْسَ بِمَخْلُوقٍ كَكَلَامِ البَرِيَّةِ، فَمَنْ سَمِعَهُ وَزَعَمَ أَنَّهُ كَلَامُ البَشَرِ فَقَدْ كَفَرَ، وَقَدْ ذَمَّهُ اللَّهُ تَعَالَى وَعَابَهُ، وَأَوْعَدَهُ عَذَابَهُ، حَيْثُ قَالَ تَعَالَى: ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ﴾، فَلَمَّا أَوْعَدَ اللَّهُ سَقَرَ لِمَنْ قَالَ: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ﴾؛ عَلِمْنَا أَنَّهُ قَوْلُ خَالِقِ البَشَرِ، وَلَا يُشْبِهُ قَوْلَ البَشَرِ.

قال رحمه اللَّه: **(وَإِنَّ القُرْآنَ كَلَامُ اللَّهِ تَعَالَى)** يعني: أنَّ اللَّه سبحانه تكلم بهذا القرآن بقوله عزوجل، قال سبحانه: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ﴾ [الفتح: ١٥]، وقال سبحانه: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٦]، فاللَّه سبحانه وتعالى يتكلم متى شاء، إذا شاء، كيف شاء، بما شاء.

وقوله: **(وَإِنَّ القُرْآنَ كَلَامُ اللَّهِ تَعَالَى)** يعني: ليس كل كلام اللَّه هو القرآن، وإنما هو من كلام اللَّه، قال تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً﴾ [الكهف: ١٠٩]، فأهل السُّنة والجماعة يثبتون أن اللَّه يتكلم.

ومعنى كلام اللَّه: يعني: أنَّ اللَّه عزوجل قال مثلاً: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢] بصوت وحرف مسموعين، وكذا سبحانه قال: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١]، وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً﴾ [الأحزاب: ٧٠]، وقال: ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٢٨]، وغير ذلك.

فجميع القرآن تكلَّم اللَّه به بصوت وحرف مسموعين، فجبريل سمع كلام اللَّه عز وجل، ثم أنزله جبريل على النبي عليه الصلاة والسلام.

قال: (مِنْهُ بَدَأَ) أي: هو الذي تكلَّم به، والدليل: قوله سبحانه: ﴿تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ [فصلت: ٢]، وقال: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٢]، وقال: ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [السجدة: ٢].

(بِلَا كَيْفِيَّةٍ قَوْلاً) الكلام فيه تقديم وتأخير، وتقدير الكلام: وأنَّ القرآن كلام اللَّه منه بدأ قولاً بلا كيفية.

وقوله: (**بِلَا كَيْفِيَّةٍ**) يعني: كلام اللَّه لا نكيِّفه، فلا نقول: كيف يتكلم اللَّه عزوجل بالقرآن؟ وإنما نقول: أخبرنا أنه تكلَّم به ولم يخبرنا كيف تكلم به، (**قَوْلاً**) يعني: تكلَّم اللَّه به قولاً.

قال: (**وَأَنْزَلَهُ عَلَى نَبِيِّهِ وَحْياً**) بواسطة جبريل عليه السلام؛ يعني: اللَّه عزوجل تكلم به، وسمعه جبريل عليه السلام، ثم جبريل أتى وبلغه إلى النبي صلى الله عليه وسلم، وقال له: إن اللَّه يقول كذا وكذا من القرآن.

وقد يجد طالب العِلم في بعض الكتب وبعض الإجازات في القرآن في السند قول: «عن أُبيّ عن النبي صلى الله عليه وسلم عن جبريل عن اللوح المحفوظ»؛ هذا خطأ محض، والصحيح أن يقال في السند: «عن النبي صلى الله عليه وسلم عن جبريل عليه السلام، عن اللَّه رب العالمين»، فلا يقال أنَّ جبريل أخذه من اللوح المحفوظ.

قال: (**وَصَدَّقَهُ الْمُؤْمِنُونَ عَلَى ذَلِكَ حَقّاً**) يعني: صدَّقوا النبي عليه الصلاة والسلام فيما أخبره اللَّه عزوجل بأنه يتكلم حقّاً، وهذا تأكيدٌ لا مرية فيه بأن اللَّه تكلم حقيقةً.

فالأشاعرة مثلا يقولون: اللَّه ما تكلَّم لمَّا نادى موسى، وإنما الشجرة تكلمت، فكلام اللَّه عُبِّر بهذه الشجرة، فالشجرة تكلمت بما أراده اللَّه، لماذا؟ قالوا: الشجرة أعظم من اللَّه، فهي تتكلم واللَّه عزوجل لا يتكلم – تعالى اللَّه عن ذلك –، فهذا مذهبٌ قبيحٌ ينفي الصفات عن اللَّه عزوجل.

لذا قال: (**وَصَدَّقَهُ الْمُؤْمِنُونَ عَلَى ذَلِكَ حَقّاً**) فلا مرية عندهم في أن اللَّه تكلَّم به.

ثم قال: (**وَأَيْقَنُوا أَنَّهُ كَلَامُ اللَّهِ تَعَالَى بِالحَقِيقَةِ**) لا بالمجاز، خلافاً للكلاّبية الذين قالوا: أنه حكاية، وخلافا للأشاعرة الذين قالوا: أنه عبارة.

فمن قال إنه حكايةٌ؛ يعني: هذا يشبه كلام اللَّه، واللَّه لم يتكلم به.

ومن قال إنه عبارة عن كلام اللَّه: أي: أن اللَّه ما يستطيع أن يتكلم، فأتى جبريل فعبّر عما يريده اللَّه – تعالى اللَّه عن ذلك –، فمعنى كلامهم: أن اللَّه أخرس، تعالى اللَّه عن ذلك.

وكلا المعتقدَين مبنيان على أن الكلام نفسيٌّ لفظاً؛ يعني: أن الشخص لو لم يتكلم نَحكم عليه بأنه تكلم، مثال ذلك: لو أن شخصاً أتى

في خاطره أنه يطلِّق زوجته؛ فعندهم أنها تطلق؛ لأنه كلامٌ نفسيٌّ، والكلام النفسي عندهم يعتبرونه كلاماً؛ وهذا باطلٌ.

ووضعوا هذه القاعدة فقط من أجل نفي أن اللَّه يتكلم، لتنقيص اللَّه عن صفاته، تعالى اللَّه عما يزعمون، لهذا لو قال شخصٌ: ويحكي اللَّه في كتابه كذا وكذا؛ نقول له: لا، ليس هذا مذهب أهل السُّنة والجماعة، وإنما قل: قال اللَّه عزوجل في كتابه، فلا نقول حكاية؛ وإنما نقول إنه قول، كما قال عزوجل: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ [التكوير: ١٩]، وقال: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلاً﴾ [النساء: ١٢٢].

فاللَّه سبحانه تكلم حقيقةً بكلامٍ ليس الحروف دون المعاني، ولا المعاني دون الحروف، وذهبت طائفة إلى أن كلام اللَّه هو حروف لكن ليس لها معاني؛ قالوا: - تعالى اللَّه عن ذلك - مثل البهائم تنعق وتنادي بعضها بعضاً؛ هذه أصوات، لكن لا نفهمها، قال شيخ الإسلام ابن تيمية

رحمه اللَّه[1]: «وهو مذهب السالمية[2]، ومذهب بعض طوائف أهل الحديث، وهو باطلٌ»[3].

وذهبت طائفة – وهم الأشاعرة والكلابية[4] – إلى أنَّه المعاني دون الحروف، فيقولون: هذا الذي يريده اللَّه في نفسه، يريد أن يأمر الناس أن يصلُّوا لكن ما يستطيع يتكلم، فأتى جبريل وأنقذ اللَّه عزوجل وقال: إن ربكم يقول: صلُّوا، وصوموا، وزكوا، وهكذا، فعلى قولهم: أنَّ المخلوق وهو جبريل أشرف وأعظم من اللَّه؛ فهذا يتكلم – أي: جبريل – والرب لا يتكلم – تعالى عن اللَّه عن ذلك –.

فهنا بيّن أن القرآن كلام اللَّه، وإذا كان القرآن كلام اللَّه؛ فنثبت أن اللَّه يتكلم.

---

(١) هو: أبو العباس تقي الدين أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية الحراني، ثُمَّ الدمشقيّ الحنبليّ، وُلد سنة (٦٦١ هـ)، وتوفي رحمه الله سنة (٧٢٨هـ). ذيل طبقات الحنابلة (٤/ ٤٩١).

(٢) هم: أصحاب هشام بن سالم الجواليقي، يقولون: إن الله تعالى جسم على صورة إنسانٍ. الفرق بين الفرق (ص٥١)، السيوف المشرقة ومختصر الصواقع المحرقة (ص٧٠).

(٣) مجموع الفتاوى (١٢/ ١٦٦).

(٤) هم: أتباع عبد الله بن سعيد بن كلاب القطان، يثبتون الأسماء والصفات لكن على طريقة أهل الكلام. مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٣/ ١٠٣).

ثم قال: (وَلَيْسَ بِمَخْلُوقٍ كَكَلَامِ البَرِيَّةِ) يَذكر رحمه الله أنَّ القرآن أو كلام اللَّه سبحانه وتعالى ليس بمخلوقٍ، وكلام البشر مخلوقٌ، كما قال سبحانه: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الزمر: ٦٢]، فهو الذي يَخلق حركة اللسان، وحركة الشفة، وهو رب العالمين.

وأما كلام اللَّه جل وعلا فليس بمخلوقٍ، بل هو سبحانه خالق المخلوقات، لذلك قال: (وَلَيْسَ بِمَخْلُوقٍ كَكَلَامِ البَرِيَّةِ) واللَّه عزوجل ذكر بقوله: ﴿يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثاً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ﴾ ثم قال: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤]، فالخلق لهذه الأمور، والأمر بتدبيرها، فالخلق شيءٌ، والأمر شيء.

(فَمَنْ سَمِعَهُ) يعني: كلام اللَّه عزوجل، والمراد به هنا: القرآن، (وَزَعَمَ أَنَّهُ كَلَامُ البَشَرِ فَقَدْ كَفَرَ)؛ لأن قول البشر شيءٌ، وقول اللَّه شيءٌ آخر، فاللَّه يتكلم، والبشر يتكلمون، ولكن كلام اللَّه سبحانه ليس بمخلوقٍ يليق بجلالته وعظمته، وكلام البشر مخلوقٌ يليق بحالهم.

قال: (وَقَدْ ذَمَّهُ اللَّهُ تَعَالَى وَعَابَهُ، وَأَوْعَدَهُ عَذَابَهُ) يعني: أوعده بجهنم (حَيْثُ قَالَ تَعَالَى: ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ﴾) سقر: اسم من أسماء النار،

نعوذ باللَّه منها، وقيل: إنه اسم من أسماء أبوابها[١]، (فَلَمَّا أَوْعَدَ اللَّهُ سَقَرَ لِمَنْ قَالَ: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ﴾) يعني: يضع في جهنم من قال إن هذا إلا قول البشر، فمن قال إن القرآن هو كلام البشر وليس بكلام اللَّه؛ فاللَّه عزوجل ذمَّه، وتوعَّده، ووعده بسقر.

فلمَّا عَلمنا وأيقنَّا بأن القرآن ليس من قول البشر، واللَّه توعَّد من قال أنه قول البشر؛ قال: (عَلِمْنَا أَنَّهُ قَوْلُ خَالِقِ البَشَرِ) يعني: علِمنا أنَّ القرآن هو كلام اللَّه، كما قال سبحانه: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثاً﴾ [النساء: ٨٧]، وقال: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلاً﴾ [النساء: ١٢٢]، وقال عزوجل: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٦]، وقال: ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾ [النساء: ٤٦]، فهو كلام اللَّه منزَّلٌ غير مخلوقٍ.

فهنا أعطاك عدة قواعد عظيمةً، وهي:

القاعدة الأُولى: أنَّ القرآن أو أنَّ كلام اللَّه غير مخلوقٍ.

والقاعدة الثانية: أنَّ كلام اللَّه منزَّلٌ.

والقاعدة الثالثة: أنَّ القرآن كلام اللَّه.

---

(١) تفسير الطبري (١٤/ ٧٤).

والقاعدة الرابعة: قال: **(وَلَا يُشْبِهُ قَوْلَ البَشَرِ)** يعني: كلام اللَّه لا يشبه كلام البشر، فاللَّه يتكلم وكلامه يليق بجلاله وعظمته، والبشر يتكلمون وكلامهم يليق بحالهم، وكلام اللَّه منزَّلٌ غير مخلوقٍ، أما كلام البشر فمخلوقٌ، قال اللَّه عزوجل: ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾ [الإسراء: ٨٨]، لماذا؟ لأن كلام اللَّه ليس ككلامهم، وقال: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ﴾ [هود: ١٣]، وقال: ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ﴾ [البقرة: ٢٣]، فعجزوا أن يأتوا بمثله؛ لأن كلام اللَّه ليس ككلامهم.

لذلك قال: **(وَلَا يُشْبِهُ قَوْلَ البَشَرِ)** كما قال عزوجل: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، ففي كلامه ليس كمثله شيءٌ سبحانه وتعالى.

وَمَنْ وَصَفَ اللَّهَ تَعَالَى بِمَعْنًى مِنْ مَعَانِي البَشَرِ فَقَدْ كَفَرَ، فَمَنْ أَبْصَرَ هَذَا اعْتبَرَ، وَعَنْ مِثْلِ قَوْلِ الكُفَّارِ انْزَجَرَ، وَعَلِمَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى بِصِفَاتِهِ لَيْسَ كَالبَشَرِ.

قال رحمه اللَّه: **(وَمَنْ وَصَفَ اللَّهَ تَعَالَى بِمَعْنًى مِنْ مَعَانِي البَشَرِ فَقَدْ كَفَرَ)** أي: من شبَّه اللَّه بخلقه فقد كفر؛ لمخالفته القرآن؛ لأن اللَّه قال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، وقال: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيّاً﴾ [مريم: ٦٥]، وقال: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ﴾ [الإخلاص:٤].

فلو أنَّ شخصاً قال: اللَّه ينام؛ نقول له: النوم من خصائص البشر ومن أوصافهم، أما اللَّه فتعالى عن ذلك.

قال: **(فَمَنْ أَبْصَرَ هَذَا اعْتبَرَ)** ومن أبصر هذه القاعدة العظيمة وهي أن اللَّه لا يشبّه بمخلوقاته؛ اعتبر وظهر له الصواب، **(وَعَنْ مِثْلِ قَوْلِ الكُفَّارِ انْزَجَرَ)** إذا تبيَّن له أنَّ اللَّه لا يشابهه شيء من صفاته، فعن مثل هذا القول – وهو مشابهة اللَّه لخلقه – وهو قول الكفار لمّا شبهوا اللَّه بصفاته، فينزجر عن مثل هذا القول.

(وَعَلِمَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى بِصِفَاتِهِ لَيْسَ كَالبَشَرِ) لأنَّ اللَّه عزوجل له صفاتٌ تليق بجلال اللَّه وعظمته، وللبشر صفاتٌ تليق بحالهم، فكلٌّ له صفاتٌ، فصفات اللَّه لا تشبه خلْقه، والخلق لهم صفاتٌ لكنهم لا يصِلون بها إلى صفات الخالق.

وَالرُّؤْيَةُ حَقٌّ لِأَهْلِ الجَنَّةِ بِغَيْرِ إِحَاطَةٍ وَلَا كَيْفِيَّةٍ، كَمَا نَطَقَ بِهِ كِتَابُ رَبِّنَا: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ ۞ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾، وَتَفْسِيرُهُ عَلَى مَا أَرَادَ اللَّهُ تَعَالَى وَعَلِمَهُ.

اللَّه عز وجل يتكرم على المؤمنين بالخير العظيم، فمن عمل صالحاً فليستبشر، وليفرح بكرم اللَّه وفضله وعطاءه، وأمر اللَّه عز وجل رسوله أن يبشِّر المؤمنين بالخير العظيم، لذلك قال: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٣]، وقال: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٥]، فأعظم ما أمر اللَّه عز وجل رسوله أن يبشِّر المؤمنين رؤيتهم لربهم يوم القيامة، ورؤية الخلق للَّه عز وجل تنقسم إلى قِسمين:

القِسم الأوَّل: في الدنيا.

والقِسم الثاني: في الآخرة.

ففي الدنيا: الرب سبحانه وتعالى لا يُرى في الابصار، لذلك قال صلى الله عليه وسلم لمَّا سألته عائشة: «هَلْ رَأَيْتَ رَبَّكَ؟ قَالَ: «نُورٌ

أَنَّى أَرَاهُ»[١]، فلا يُرى سبحانه بالدنيا، والنبي صلى الله عليه وسلم قال: «وَاعَلَّمُوا أَنَّهُ لَنْ يَرَى أَحَدٌ مِنْكُمْ رَبَّهُ عَزَّ وَجَلَّ حَتَّى يَمُوتَ»[٢].

وأمَّا رؤيته رؤية قلبية - يعني: في المنام - فالنَّبِيُّ عليه الصَّلاة والسَّلام رأى ربَّه في المنام[٣]، وشيخ الإسلام رحمه الله يرى أنَّه لا يُمنع أنَّ أحداً يرى ربَّه في المنام كالغاشية[٤].

أما في الآخرة فهناك موضعين:

الموضع الأوَّل: في المحشر، فالصحيح أن جميع الخلق المسلم منهم والكافر والمنافق يَرون اللَّه عز وجل، ونظرة المنافقين والكفار للَّه

(١) رواه مسلمٌ، كتاب الإيمان، باب في قوله عليه السلام: «نُورٌ أَنَّى أَرَاهُ»، وَفِي قَوْلِهِ: «رَأَيْتُ نُوراً»، رقم (١٧٨)، من حديث أبي ذرٍّ رضي الله عنه.

(٢) رواه مسلمٌ، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب ذكْر ابن صياد، رقم (١٦٩)، من حديث عمر بن ثابتٍ عن بعض أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم.

(٣) كما في حديث معاذ بن جبلٍ رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إِنِّي سَأُحَدِّثُكُمْ مَا حَبَسَنِي عَنْكُمُ الْغَدَاةَ إِنِّي قُمْتُ مِنَ اللَّيْلِ، فَصَلَّيْتُ مَا قُدِّرَ لِي فَنَعَسْتُ فِي صَلَاتِي حَتَّى اسْتَيْقَظْتُ، فَإِذَا أَنَا بِرَبِّي فِي أَحْسَنِ صُورَةٍ...» الحديث. رواه أحمد في المسند، رقم (٢٢١٠٩).

(٤) مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٣/ ٣٩٠)، (٥/ ٢٥١).

ابتداءً، ثم يحتجب عنهم سبحانه؛ قال اللَّه: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٥]، قال اللَّه: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر: ٢٢] للفصل بين الخلائق، فيأتي ويراه الجميع.

ورؤية المنافقين والكفار لربهم في المحشر ليست رؤية تلذذ، والمؤمنون كذلك يرونه في المحشر، وفي الحديث: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا سَيُكَلِّمُهُ رَبُّهُ، لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ حَاجِبٌ وَلَا تُرْجُمَانٌ»(١).

والموضع الثاني: في الجَنة، ولا يدخلها إلا المؤمنون، فيرونه سبحانه، فتفضَّل اللَّه عز وجل على عباده المؤمنين بأربع أمور:

الأمر الأوَّل: عدم دخولهم النار.

والأمر الثاني: دخولهم الجَنة، قال سبحانه: ﴿فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

والأمر الثالث: رضوان اللَّه عز وجل عليهم، كما قال عز وجل: ﴿وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة: ٧٢]؛ أي: أكبر من دخول الجَنة.

---

(١) رواه البخاريُّ، كتاب التوحيد، باب كلام الرب عز وجل يوم القيامة مع الأنبياء وغيرهم، رقم (٧٥١٢)، ومسلمٌ، كتاب الزكاة، باب الحث على الصدقة ولو بشق تمرة، أو كلمة طيبة وأنها حجاب من النار، رقم (١٠١٦)، من حديث عدي بن حاتمٍ رضي الله عنه.

والأمر الرابع - وهو الأعظم -: النظر لوجه اللَّه العظيم؛ قال سبحانه: ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [ق: ٣٥]، وقال: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى﴾؛ أي: الجَنة ﴿وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]؛ فسَّر النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم الزيادة: بِالنْظَرِ إلى وَجهِ اللَّهِ الكَرِيم(١).

فإذا قيل: لماذا كانت الرؤية أعلى من الرضى؟ نقول: لا يرى أحد ربه في الجَنة الا بعد أن رضي عنه، فاللَّه أوَّلاً يرضى عن العبد، ثم العبد يراه بعد ذلك.

فإذا قيل: لماذا الرؤية هي أعلى نعيم في الجنة؟

نقول: لأمرين:

الأمر الأوَّل: لأن اللَّه جميلٌ؛ كما قال صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ اللَّهَ

(١) كما في حديث صهيبٍ رضي الله عنه، ولفظه: «يَقُولُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: تُرِيدُونَ شَيْئاً أَزِيدُكُمْ؟

فَيَقُولُونَ: أَلَمْ تُبَيِّضْ وُجُوهَنَا؟ أَلَمْ تُدْخِلْنَا الْجَنَّةَ وَتُنَجِّنَا مِنْ النَّارِ؟

قَالَ: فَيَكْشِفُ الْحِجَابَ، فَمَا أُعْطُوا شَيْئاً أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنْ النَّظَرِ إِلَى رَبِّهِمْ عَزَّ وَجَلَّ، ثُمَّ تَلَا رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: {لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ}» رواه مسلمٌ، كتاب الإيمان، باب إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم سبحانه وتعالى، رقم (١٨١).

جَمِيلٌ يُحِبُّ الجَمَالَ»[1]، فجمال وجه اللَّه أعظم من جمال المخلوق، وأجمل وأنعم من الحور العين، وأجمل مما فيها – أي: الجَنة – من الأنهار والبساتين.

والأمر الثاني: لأن النفوس تتشوَّق وتتشوَّف إلى خالق هذا الكون، وإلى ذلك المعبود الذي طالما عبدتْه في حياتها واشتاقت لرؤيته، قال سبحانه عن حديث أهل الجَنة بعضهم لبعضٍ وهم في داخلها: ﴿إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ﴾ فأدخلنا الجَنة فرأيناه، ﴿إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ﴾ [الطور: ٢٨].

لذا قال رحمه اللَّه: **(وَالرُّؤْيَةُ حَقٌّ لِأَهْلِ الجَنَّةِ)** يعني: اللَّه عز وجل هو الذي جعله تفضلاً وتكرّماً حقّاً لهم منه سبحانه وتعالى، فاللَّه سبحانه لا يَقهره أحدٌ، ولا يُلزِمه أحدٌ؛ بل هو الذي يتكرم على عباده، كما قال

(١) رواه مسلمٌ، كتاب الإيمان، باب تحريم الكبر وبيانه، رقم (٩١)، من حديث ابن مسعودٍ رضي الله عنه.

عليه الصلاة والسلام: «وَحَقَّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ أَلَّا يُعَذِّبَ مَنْ لَا يُشْرِكُ بِهِ شيئاً»[١].

قال: **(بِغَيْرِ إِحَاطَةٍ)** يعني: لا يحيطون به من جميع الجهات سبحانه، فاللَّه سبحانه وسع كل شيءٍ، فهو سبحانه الكبير المتعال، **(وَلَا كَيْفِيَّةٍ)** يعني: لا نَعلم ما هي كيفية رؤيتنا للَّه عز وجل، فنثبتها بلا تكييف.

(١) رواه البخاريُّ، كتاب اللباس، باب إرداف الرجُل خلْف الرجُل، رقم (٥٩٦٧)، ومسلمٌ، كتاب الإيمان، باب من لقي الله بالإيمان وهو غير شاك فيه دخل الجنة وحرم على النار، رقم (٣٠).

والمصنِّف رحمه الله قال: (**بِغَيْرِ إِحَاطَةٍ وَلَا كَيْفِيَّةٍ**) للرد على شبهة الجهمية[١] والمعتزلة[٢] القائلين بنفي رؤية اللَّه سبحانه، لأنهم قالوا: كيف نرى اللَّه؟ ما نستطيع أن نرى اللَّه، فقال: (**وَلا كَيْفِيَّةٍ**).

وقال: (**بِغَيْرِ إِحَاطَةٍ**) لأنهم قالوا: لو أثبتنا الرؤية للَّه عز وجل فمعنى ذلك: أننا أكبر من اللَّه وأننا أحطنا به؛ فنقول: لا هذا غير صحيح؛ لأنك ترى الجبل وما تحيط به، ولا تعرف ما هو جانب الجبل الأيمن ولا الأيسر ولا خلفه، وكذا ترى القمر وما تحيط به، وترى منارة

---

(١) الجهمية هم: أتباع جهم بن صفوان، وهم من الجبرية الخالصة، ومن معتقداتهم: نفي صفات الله عز وجل الأزلية ككونه سبحانه حيّاً عالماً، وأنَّ الإيمان هو المعرفة بالله تعالى فقط، فمن جحد بلسانه لا يكفر، وأنَّ الإيمان يتبعَّض، ولا يتفاضل أهله فيه، فإيمان الأنبياء وإيمان الأمة كلهم سواء، وقد اتَّفقت الأمَّة على تكفيرهم. الفَرْق بين الفِرَق (ص ١٩٩)، المِلَل والنِّحل (١/ ٨٦-٨٧).

(٢) المعتزلة هم: فرقةٌ كلاميةٌ ظهرت في أوَّل القرن الثاني الهجري، وسمُّوا بذلك؛ لاعتزال إمامهم واصل بن عطاء مجلسَ الحسن البصري بعد قول واصلٍ قولَه المبتدَع في مرتكب الكبيرة، وقيل: لاعتزالهم المسلمين ومخالفتهم لهم في ذلك، ومِن بدَعهم: نفي الصفات والقَدَر، والقول بخَلْق القرآن، وتقديم العقل على النقل. المِلَل والنِّحل (١/ ٤٣)، الفَرْق بين الفِرَق (ص٧٨).

المسجد وما تحيط بها، فإذاً لا يستلزم من الرؤية الإحاطة، فلذلك شبهتهم باطلة، واللَّه سبحانه يقول: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ﴾ يعني: ما تحيط به الأبصار، ﴿وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾ [الأنعام: ١٠٣] سبحانه.

قال: (**كَمَا نَطَقَ بِهِ كِتَابُ رَبِّنَا**) ولو قال: كما قال اللَّه: كان أَولى؛ لإثبات الكلام للَّه، وكذا قوله: (**كَمَا نَطَقَ بِهِ كِتَابُ رَبِّنَا**) هذه العبارة صحيحة، ومعناها؛ أي: تكلم اللَّه به مما أتى بيانه في القرآن فقال: (**﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ﴾**) يعني: وجوه المؤمنين فيها نضارةٌ وحُسنٌ وسرورٌ، فهذه الوجوه الجميلة (**﴿إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾**) أي: تَنظر الى اللَّه عز وجل، ففيه إثباتٌ ودليلٌ صريحٌ على الرؤية.

ثم قال: (**وَتَفْسِيرُهُ**) يعني: وتفسير النظر الذي في الآية: (**عَلَى مَا أَرَادَ اللَّهُ تَعَالَى وَعَلِمَهُ**) يعني: على الكيفية التي يريدها اللَّه ويَعلمها، فهو سبحانه الذي عَلِم من يراه، وهو سبحانه الذي وضع الأحكام والدِّين، فمن أراد من عباده يَرونه - وهم المؤمنون -، يَرونه بالكيفية التي يريدها سبحانه.

وقوله: (**عَلَى مَا أَرَادَ اللَّهُ تَعَالَى وَعَلِمَهُ**) ضد قوله: (**بِغَيْرِ إِحَاطَةٍ وَلَا كَيْفِيَّةٍ**) وفيها الرد على الجهمية والمعطلة، وهذا هو منهج أهل السُّنة والجماعة، فأهل السُّنة يثبتون رؤية المؤمنين لربهم سبحانه وتعالى.

وَكُلُّ مَا جَاءَ فِي ذَلِكَ مِنَ الحَدِيثِ الصَّحِيحِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم فَهُوَ كَمَا قَالَ، وَمَعْنَاهُ عَلَى مَا أَرَادَ، لَا نَدْخُلُ فِي ذَلِكَ مُتَأَوِّلِينَ بِآرَائِنَا، وَلَا مُتَوَهِّمِينَ بِأَهْوَائِنَا، فَإِنَّهُ مَا يَسْلَمُ فِي دِينِهِ إِلَّا مَنْ سَلَّمَ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَلِرَسُولِهِ صلى الله عليه وسلم، وَرَدَّ عِلْمَ مَا اشْتَبَهَ عَلَيْهِ إِلَى عَالِمِهِ.

قال رحمه اللَّه: **(وَكُلُّ مَا جَاءَ فِي ذَلِكَ)** أي: في إثبات صفة رؤية المؤمنين لربهم يوم القيامة **(مِنَ الحَدِيثِ الصَّحِيحِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم)** مثل: ما في صحيح مسلمٍ[1]: «يَقُولُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: تُرِيدُونَ شَيْئاً أَزِيدُكُمْ؟

فَيَقُولُونَ: أَلَمْ تُبَيِّضْ وُجُوهَنَا؟ أَلَمْ تُدْخِلْنَا الْجَنَّةَ وَتُنَجِّنَا مِنْ النَّارِ؟

قَالَ: فَيَكْشِفُ الْحِجَابَ، فَمَا أُعْطُوا شَيْئاً أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنْ النَّظَرِ إِلَى رَبِّهِمْ عَزَّ وَجَلَّ، ثُمَّ تَلَا رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾».

---

(١) كتاب الإيمان، باب إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم سبحانه وتعالى، رقم (١٨١)، من حديث صهيب رضي الله عنه.

فكل ما جاء في الحديث الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم في إثبات الرؤية نؤمن به؛ لذلك قال: (فَهُوَ كَمَا قَالَ) يعني: نمرها كما جاءت، ونثبتها كما قالها النبي صلى الله عليه وسلم، (وَمَعْنَاهُ عَلَى مَا أَرَادَ) فهو أراد الرؤية؛ فنثبت الرؤية.

قال: (لَا نَدْخُلُ فِي ذَلِكَ مُتَأَوِّلِينَ بِآرَائِنَا) أي: لا نَردُّ الأحاديث التي جاءت في الصفة من أجل آرائنا؛ وإنما نثبتها بالنَّص، والعقل السليم يدل على ما جاء به النَّص الصحيح، (وَلَا مُتَوَهِّمِينَ بِأَهْوَائِنَا) أي: ولا نَردُّ لأحاديث التي جاءت في الصفة من أجل الشك الذي في قلوبنا؛ وإنما نؤمن بها.

ثم بعد ذلك ذكر قاعدةً عظيمةً يجِب على كل مسلمٍ أن يَحفظها، فقال: (فَإِنَّهُ مَا يَسْلَمُ فِي دِينِهِ إِلَّا مَنْ سَلَّمَ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَلِرَسُولِهِ صلى الله عليه وسلم، وَرَدَّ عِلْمَ مَا اشْتَبَهَ عَلَيْهِ إِلَى عَالِمِهِ) ففي كل أمرٍ من أمور الشريعة لا بد أن تَجعل هذه القاعدة تسير معك.

فلا يَسلم الشخص في دينه إلا إذا سلَّم للَّه ولرسوله بالإيمان والانقياد والخضوع والاستسلام والتسليم لِما أراده اللَّه عز وجل ورسوله صلى الله عليه وسلم، قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا

دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ [النور: ٥١]، فهذا هو طريق السلامة في الدين، وقال اللَّه: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ [النور: ٥٤]، وقال: ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً﴾ [الأحزاب: ٧١]، وقال: ﴿وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾ [النور: ٥٤].

فإذا سلَّمتَ أمرك للَّه وللرسول بالإيمان بنصوص الصفات وغيرها: يَسلم دينك.

قال: (**وَرَدَّ عِلْمَ مَا اشْتَبَهَ عَلَيْهِ إِلَى عَالِمِهِ**) وهو اللَّه سبحانه، كما قال عز وجل: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران: ٧]، فإذا اشتبه عليك شيءٌ رُدَّه الى عالِمه وهو اللَّه؛ أي: رُدَّه إلى كتاب اللَّه، والسُّنة مفسِّرةٌ ومبينةٌ وموضِّحةٌ للكتاب، فلا تجعل للرأي مجالاً ولا للعقل طريقاً ولا للَّهوى شكّاً؛ وإنما اجعل إيمانك ويقينك بالصراط المستقيم؛ باقتفاء النصوص من الكتاب والسُّنة، وبهذا تَسلم.

لهذا ذكر رحمه الله هذه القاعدة العظيمة التي يجِب على كل طالب عِلمٍ، بل كل مسلمٍ أن يَحفظها حفظاً راسخاً، فإنه ما سَلِم في دينه الا من سلَّم للَّه ولرسوله، وَرَد ما اشتبه عليه إلى عالِمه، سواء في مسائل أصول الدين أو في فروع الشريعة.

وَلَا يَثْبُتُ قَدَمُ الإِسْلَامِ إِلَّا عَلَى ظَهْرِ التَّسْلِيمِ وَالاِسْتِسْلَامِ، فَمَنْ رَامَ عِلْمَ مَا حُظِرَ عَنْهُ عِلْمُهُ، وَلَمْ يَقْنَعْ بِالتَّسْلِيمِ فَهْمُهُ؛ حَجَبَهُ مَرَامُهُ عَنْ خَالِصِ التَّوْحِيدِ، وَصَافِي المَعْرِفَةِ، وَصَحِيحِ الإِيمَانِ، فَيَتَذَبْذَبُ بَيْنَ الكُفْرِ وَالإِيمَانِ، وَالتَّصْدِيقِ وَالتَّكْذِيبِ، وَالإِقْرَارِ وَالإِنْكَارِ، مُوَسْوِساً تَائِهاً، شَاكّاً زَائِغاً، لَا مُؤْمِناً مُصَدِّقاً، وَلَا جَاحِداً مُكَذِّباً.

لمَّا بيَّن المصنِّف رحمه الله بأن الرؤية تكون بلا كيفية على ما أراده اللَّه عز وجل، لذا قال: (**بِلَاكَيْفِيَّةٍ**) عرَّج رحمه الله على هذه اللفظة، فبيَّن أنها تكون سواء في إثبات الرؤية أو في جميع كنه صفات اللَّه عز وجل، لذلك قال: (**وَلَا يَثْبُتُ قَدَمُ الإِسْلَامِ إِلَّا عَلَى ظَهْرِ التَّسْلِيمِ وَالاِسْتِسْلَامِ**) يعني: لا يمكن أن يكون الشخص مسلِماً حقّاً إلا إذا استسلم باطنه ويقينه للَّه عز وجل، فلا يُدخِل في ذلك عقله ولا يتأوَّل نصوص شرع اللَّه.

وقوله: (**وَلَا يَثْبُتُ قَدَمُ الإِسْلَامِ**) هذا من باب الاستعارة، فالإسلام ليس له قَدم، وإنما المراد: ولا يثبت الشخص في الإسلام إلا على ظهر التسليم والاستسلام لنصوص الشريعة، كما قال عز وجل: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾ [آل

عمران: ٧]، وقال: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ [النور: ٥١].

واللَّه عز وجل حذَّر ممن اقتفى غير هذا الأثر، فقال: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٩٣]، فليس الإيمان أن تقولوا سمعنا وعصينا؛ وإنما هو التسليم والاستسلام، ومعنى الاستسلام: أن يكون قلبك مفتوحاً مذعناً خاضعاً له سبحانه.

ثم بيَّن رحمه الله جزاء من يأوَّل أو يحرِّف في صفات اللَّه، فقال: (فَمَنْ رَامَ) يعني: طلب وقصد (عِلْمَ مَا حُظِرَ عَنْهُ عِلْمُهُ) أي: عِلم شيءٍ اللَّه سبحانه وتعالى أخفاه عن العباد ولم يبيِّنه لهم، (وَلَمْ يَقْنَعْ بِالتَّسْلِيمِ فَهْمُهُ) يعني: لا يدلُّه فهمه على ذلك الأمر، وتقدير العبارة: ولم يقنع فهمه بالتسليم؛ بل استكبر وأوَّل وحرَّف.

فالنتيجة قال: (حَجَبَهُ مَرَامُهُ) أي: قصده - وهو طلب ما أخفاه اللَّه عز وجل من العلوم ككيفية كنه صفات اللَّه عزوجل - (عَنْ خَالِصِ التَّوْحِيدِ) يعني: لم يكن موحِّداً حق التوحيد؛ بسبب: أنه دخل في عِلمٍ محظورٍ عليه أن يَبحث فيه، (وَصَافِي المَعْرِفَةِ) يعني: نقاء معرفة القلب

للَّه عز وجل بأسمائه وصفاته، فمن كيَّف صفات اللَّه عز وجل فقد دنَّس عِلمه ومعرفته به سبحانه بأسمائه وصفاته وأفعاله.

قال: (وَصَحِيحِ الإِيمَانِ) أي: هو كذلك يدنِّس معتقده الصحيح؛ بسبب: أنه أوَّل وحرَّف وكيَّف في صفات اللَّه عز وجل، فالإيمان لا يصح إلا في تفويض كنه صفات اللَّه عز وجل، فلا يقول الشخص: إنَّ سمع اللَّه كذا، أو: بصر اللَّه كذا، ولا يحرِّف ويأوِّل رؤية اللَّه عز وجل لخلقه، فيؤدي مرامه وقصده لذلك إلى تعطيل صفة اللَّه عز وجل من رؤية المؤمنين لربهم سبحانه.

ثم قال: (فَيَتَذَبْذَبُ بَيْنَ الكُفْرِ) بالنصوص التي أتت في آيات الصفات والوعيد ونحو ذلك، (وَالإِيمَانِ) بتلك النصوص إذا أتى شيءٌ وافق هواه، (وَالتَّصْدِيقِ وَالتَّكْذِيبِ) فيصدِّق بالنصوص أو يكذِّبها؛ كل ذلك بسبب أنه أجرى نصوص الشريعة - من آيات الصفات ونحوها - على ما أملاه له عقله ولم يسلِّم لِما جاءت به النصوص، (وَالإِقْرَارِ وَالإِنْكَارِ) فيقِر مثلاً أحياناً بنصوص الوعيد، وينكر نصوص الوعد، والسبب: عدم تسليمه لنصوص الشريعة.

ثم بيَّن حالَه فقال: (مُوَسْوِساً) أي: يحتار هل هذا صواب أو خطأ؟ فأحياناً يقول: هذا هو الصواب، وأحيانا يتراجع عن هذا ويقول: غيره هو الصواب.

(تَائِهاً شَاكّاً زَائِغاً) يعني: غير متيقِّن، (لَا مُؤْمِناً مُصَدِّقاً) فما آمن بالنصوص ولا صدَّق بها، (وَلَا جَاحِداً مُكَذِّباً) أي: ولا جحد النصوص أو كذَّب بها، فما حاله؟ حاله التذبذب والزيغ والضلال، فمرَّة يقول: اللَّه يتكلم، ثم يقول: لو قلتُ أنَّ اللَّه يتكلم فمعناه أنِّي شبهتُه بالبشر؛ فيرجع فيقول: اللَّه لا يتكلم.

فنقول لمن حاله هذه: بدل هذه الحيرة قل: آمنتُ باللَّه، فاللَّه أخبر عن نفسه أنه يتكلم فنثبت أنه يتكلم، وكذا أخبر أنَّ له يدين؛ فنصدِّق ونقول: إن له سبحانه يدين، وهكذا نجري نصوص الشريعة على هذا الأمر، لألا يحتار الشخص سواء في نصوص العقيدة أو في فروعها، فيسلِّم الشخص لجميع النصوص، قال اللَّه: ﴿وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾ [النور: ٥٤]، ومن الطاعة: الانقياد والتسليم.

وأخبر اللَّه عز وجل عن غير المسلمين الاستكبار، حيث قال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الصافات: ٣٥]،

فالاستكبار يؤدِّي بك إلى عدم الانقياد؛ ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا﴾ [السجدة: ٢٢]، والإعراض وعدم الانقياد يؤدِّي إلى الكفر.

فيجب على الشخص إذا أتاه أيّ نَص من اللَّه عز وجل يسلِّم به ويصدِّق، في الصحيحين[١]: «رَأَى عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَجُلاً يَسْرِقُ، فَقَالَ لَهُ عِيسَى: سَرَقْتَ؟ قَالَ: كَلَّا وَالَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ! فَقَالَ عِيسَى: آمَنْتُ بِاللَّهِ، وَكَذَّبْتُ نَفْسِي»، فلأنَّ الرجل حلف باللَّه صدَّقه عيسى عليه السلام وكذَّب نفسه، وهذا من قوة إيمانه باللَّه.

ومن آمن بالنصوص وصدّق بها يفر الشيطان منه؛ قال اللَّه: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ [الحجر: ٤٢]، وفي الآية الأخرى: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ [الحجر: ٤٠]، فمن أخلص وأيقن باللَّه تعالى لا يوسوس له الشيطان، فليدْعُ الشخص مثلاً ويقول: اللَّهم إني أسألك إيماناً كاملاً ويقيناً صادقاً.

(١) رواه البخاريُّ، كتاب أحاديث الأنبياء، بَابُ قَوْلِ اللهِ: {وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا}، رقم (٣٤٤٤)، ومسلمٌ، كتاب الفضائل، باب فضائل عيسى عليه السلام، رقم (٢٣٦٨)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وَلَا يَصِحُّ الإِيمَانُ بِالرُّؤْيَةِ لِأَهْلِ دَارِ السَّلَامِ لِمَنِ اعْتَبَرَهَا مِنْهُمْ بِوَهْمٍ، أَوْ تَأَوَّلَهَا بِفَهْمٍ؛ إِذْ كَانَ تَأْوِيلُ الرُّؤْيَةِ وَتَأْوِيلُ كُلِّ مَعْنىً يُضَافُ إِلَى الرُّبُوبِيَّةِ: تَرْكَ التَّأْوِيلِ وَلُزُومَ التَّسْلِيمِ، وَعَلَيْهِ دِينُ الْمُرْسَلِينَ.

يذكر المصنِّف رحمه الله تعالى هنا أن ما اعتقده المعتزلة من نفي رؤية اللَّه عز وجل بأنهم اعتبروها بوهمٍ أو تأولوها بفهمٍ، أنَّ هذا غير صحيحٍ؛ لذلك قال: **(وَهَذَا غَيْرُ صَحِيحٌ)**[1].

ثم أعطاك قاعدة: أنَّ الصحيح سواء في الرؤية أو بمعنىً من معاني الربوبية هو بترك تأويل ذلك الأمر وتحريفه، لذلك قال: **(وَلَا يَصِحُّ الإِيمَانُ بِالرُّؤْيَةِ)** أي: رؤية اللَّه عز وجل **(لِأَهْلِ دَارِ السَّلَامِ لِمَنِ اعْتَبَرَهَا مِنْهُمْ بِوَهْمٍ، أَوْ تَأَوَّلَهَا بِفَهْمٍ)** كما اعتقدها المعتزلة، فلا يصح تفسيرهم.

وقوله: **(اعْتَبَرَهَا مِنْهُمْ بِوَهْمٍ)** أي: توهموا في حقيقة أصلها وفي إثباتها، **(أَوْ تَأَوَّلَهَا بِفَهْمٍ)** يعني: حرَّفها فلَم يواقع الصواب.

ثم بيَّن رحمه الله ما سبب وقوعهم في ذلك الأمر؟ فقال: **(إِذْ كَانَ تَأْوِيلُ)** أي: تفسير **(الرُّؤْيَةِ وَتَأْوِيلُ كُلِّ مَعْنىً يُضَافُ إِلَى الرُّبُوبِيَّةِ: تَرْكَ التَّأْوِيلِ وَلُزُومَ التَّسْلِيمِ)** معنى هذا الكلام: إن منهجهم غير صحيحٍ؛ فكل

---

(١) ليست في المطبوع، لعلها في نسخة أخرى.

تفسيرٍ للرؤية أو معنىً من معاني الربوبية – مثل: النزول والخلْق والرزق ونحو ذلك – التفسير الصحيح فيها هو: ترك التأويل؛ يعني: ترك التحريف ولزوم التسليم، كما قال السلف: «مروها كما جاءت»، فنسلِّم بها ونعتقدها ونؤمن بها.

قال: (وَعَلَيْهِ) أي: على هذا الأمر؛ وهو إمرار النصوص كما جاءت والإيمان بها، (دِينُ الْمُسْلِمِين[١]) كما قال الإمام مالك رحمه اللَّه: «الاستواء معلومٌ، والكيف مجهولٌ، والإيمان به واجبٌ، والسؤال عنه بدعةٌ»[٢]، فعلى ذلك سار المسلمون في هذا الاعتقاد، وأيضاً سار على هذا الاعتقاد المرسلون عليهم السلام.

ويكون المصنِّف رحمه الله بهذا الأمر قد ختم صفة الرؤية.

(١) في المطبوع: (الْمُرْسَلِينَ).

(٢) رواه اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنَّة والجماعة (٣/ ٤٤١/ ٦٦٤).

وَمَنْ لَمْ يَتَوَقَّ النَّفْيَ وَالتَّشْبِيهَ زَلَّ، وَلَمْ يُصِبِ التَّنْزِيهَ، فَإِنَّ رَبَّنَا جَلَّ وَعَلَا مَوْصُوفٌ بِصِفَاتِ الوَحْدَانِيَّةِ، مَنْعُوتٌ بِنُعُوتِ الفَرْدَانِيَّةِ، لَيْسَ فِي مَعْنَاهُ أَحَدٌ مِنَ البَرِيَّةِ.

تَعَالَى عَنِ الحُدُودِ وَالغَايَاتِ، وَالأَرْكَانِ وَالأَعْضَاءِ وَالأَدَوَاتِ، لَا تَحْوِيهِ الجِهَاتُ السِّتُّ كَسَائِرِ المُبْتَدَعَاتِ.

قال رحمه اللَّه: **(وَمَنْ لَمْ يَتَوَقَّ النَّفْيَ)** يعني: من لم ينفِ عن اللَّه عز وجل ما نفاه عن نفسه أو نفاه عنه رسوله صلى الله عليه وسلم فقد زل، فمثلاً: اللَّه نفى عنه أنه لم يكن له كفواً أحد؛ أي: ليس له مماثل، وقال: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ [الإخلاص: ٣]، فمن أثبت أن للَّه ولداً فقد زل، كما قالت النصارى واليهود ذلك.

(وَالتَّشْبِيهَ) يعني: من شبَّه اللَّه عز وجل بخلقه؛ **(زَلَّ)** يعني: أخطأ ووقع في الأمر العظيم، فيجِب عليه أن ينزِّه اللَّه عز وجل عن مشابهة المخلوقين، فيثبِت ما أثبته اللَّه عز وجل لنفسه، وما أثبته رسوله صلى الله عليه وسلم، وينفي ما نفاه اللَّه عز وجل عن نفسه، أو نفاه عنه رسوله صلى الله عليه وسلم، من غير تحريفٍ ولا تعطيلٍ، ومن غير

تكييفٍ ولا تمثيلٍ، على حد قوله عز وجل: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

قال: (وَلَمْ يُصِبِ التَّنْزِيهَ) يعني: لم ينزِّه اللَّه عز وجل من قال: إن اللَّه مِثل خلْقه - تعالى اللَّه عز وجل - في بعض صفاته أو في كل صفاته، أو لم ينف عن اللَّه ما لا يليق به سبحانه.

قال: (فَإِنَّ رَبَّنَا جَلَّ وَعَلَا مَوْصُوفٌ بِصِفَاتِ الوَحْدَانِيَّةِ) مثل: قوله عز وجل: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١]، وقوله: ﴿وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [الرعد: ١٦]، فهو سبحانه واحدٌ لا يشبهه أحدٌ.

(مَنْعُوتٌ) أي: موصوفٌ (بِنُعُوتِ الفَرْدَانِيَّةِ) أي: بوصف الفردانية، والفَرد ليس من أسماء اللَّه عز وجل، وإنما يُخبر سبحانه بأنه الفرد، لكن ما يجوز الشخص أن يدعو فيقول: يا فرد! أو أن يسمَّى شخص بعبد الفرد؛ فلم يَثبت أن الفرد من أسماء اللَّه، وإنما يَذكره بعض العلماء -

كابن كثيرٍ[١] والقرطبي[٢] وغيرهما - من باب الإخبار، فقوله: (**مَنْعُوتٌ بِنُعُوتِ الفَرْدَانِيَّةِ**) يغني عنها: منعوتٌ بنعوت الوحدانية.

(**لَيْسَ فِي مَعْنَاهُ أَحَدٌ مِنَ البَرِيَّةِ**) يعني: لا يُشبهه سبحانه أحدٌ، قال عز وجل: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، وقال: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيّاً﴾ [مريم: ٦٥]، وقال: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ﴾ [الإخلاص:٤].

فإذا أثبتنا صفةً للَّه عز وجل، فليس معناه أن صفته كصفات المخلوقين؛ وإنما صفة تليق بجلاله وعظمته سبحانه.

ثم قال: (**تَعَالَى عَنِ الحُدُودِ وَالغَايَاتِ**) قوله رحمه الله في هذه العبارة فيه إجمالٌ، وقصده رحمه الله من هذا الإجمال: البعد عن تشبيه اللَّه عز وجل بخلقه؛ فإذا قلنا للَّه حدٌّ فنحن شبهناه بالبشر، تعالى اللَّه عن ذلك.

---

(١) كما في قوله: «فإنه الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي كل شيءٍ عبدٌ لديه». تفسير ابن كثير (٧/ ٨٥).

(٢) كما في قوله: «فهو سبحانه القديم الأزلي الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد». تفسير القرطبي (٢/ ٨٥):

والقرطبي هو: أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر الأنصاري الخزرجي القرطبي المالكي، توفي رحمه الله سنة (٦٧١هـ). طبقات المفسرين للسيوطيّ (١/ ٩٢)، طبقات المفسرين للداووديّ (٢/ ٧٠).

فقوله: **(تَعَالَى عَنِ الحُدُودِ)** فيما يعلمه البشر، **(وَالغَايَاتِ)** فليس له غاية في حكمته ولا في ذاته يُنتهى إليه، كما يعلَمه البشر، فهي لفظةٌ مجمَلةٌ أراد المصنِّف رحمه الله منها تنزيه اللَّه عن مشابهة المخلوقين.

قال: **(وَالأَرْكَانِ)** يعني: كل ما يتعلق بالذات، كمثل أن نقول: من أركان العبد: القدمان، ومن أركانه أيضاً: القلب، وهكذا، فهو هنا رحمه الله يريد أن يعظِّم اللَّه، ولكنه تعظيمٌ مجمَلٌ، وفي التفصيل نقول: اللَّه عز وجل أثبت لنفسه يدان وقدمان وعينان وهكذا، كما أثبته له رسوله عليه الصلاة والسلام.

(وَالأَعْضَاءِ) مثل: الوجه والقدم واليدين، **(وَالأَدَوَاتِ)** أي: الجوارح، فهو يقول: اللَّه تعالى عن ذلك؛ فنقول: نعم، اللَّه تعالى عن مثل تلك الأمور، ولكن اللَّه أثبتها لنفسه، وأثبتها له رسوله عليه الصلاة والسلام، كما جاءت به النصوص.

قال: **(لَا تَحْوِيهِ الجِهَاتُ السِّتُّ)** يعني: لا نقول أنَّ للَّه سبحانه وتعالى منتهى، ولا نقول أنه تحويه الجهات الست، والمقصود بالجهات الست: يمين، شمال، أمام، خلف، فوق، تحت، وليس مراد المصنِّف

هنا نفي العلو عنه سبحانه، بل فيه إثبات العلو وأنه سبحانه مستو على عرشه إلى حد ينتهي إليه.

قال: (كَسَائِرِ المَخْلُوقَاتِ[١]) فهم تحويهم الجهات الست، فمثلاً أنت أمامك شيءٌ، وخلفك شيءٌ، وعن يمينك شيءٌ، وعن يسارك شيءٌ، ومن فوقك شيءٌ، ومن تحتك شيءٌ، فأنت محتوى؛ لأنك مخلوقٌ صغيرٌ، وهكذا جميع المخلوقات لها حدٌّ تحويه وتنتهي إليه.

---

(١) في المطبوع (المُبْتَدَعَاتِ).

وَالمِعْرَاجُ حَقٌّ، وَقَدْ أُسْرِيَ بِالنَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم وَعُرِجَ بِشَخْصِهِ فِي اليَقَظَةِ إِلَى السَّمَاءِ، ثُمَّ إِلَى حَيْثُ شَاءَ اللَّهُ مِنَ العُلَا، وَأَكْرَمَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِمَا شَاءَ، وَأَوْحَى إِلَيْهِ مَا أَوْحَى.

قال رحمه اللَّه: **(وَالمِعْرَاجُ حَقٌّ)** أي: ونؤمن بالمعراج، وأنه حقٌّ لا نمتري فيه ولا نشكِّك، والمعراج هو مثل السُّلم الذي يَصعد عليه الشخص، ولا تُعلم كيفية هيئه المعراج.

وهناك إسراءٌ ومعراجٌ، فالإسراء من كذَّب به كفر؛ لأنه أتى في القرآن، وقد ذكره اللَّه سبحانه وتعالى في موضعٍ واحدٍ فقال: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الإسراء: ١]، والمراد بالإسراء: السَّير ليلاً(١)، فذكر القرآن السَّير ليلاً من مكة إلى المسجد الأقصى.

فلمَّا أسري به صلى الله عليه وسلم من بيت أم هانئ في مكة، وركب البراق - وهو بين البغل والحمار -، وكان منتهى خطوته منتهى بصره، وكان رديف جبريل عليه السلام في البراق، فلمَّا أسري به أتى إلى

---

(١) الصحاح (٦/ ٢٣٧٦).

المسجد الاقصى فربط البراق بحلقة الباب، ثم صلَّى بالأنبياء في المسجد الأقصى؛ يعني: صلَّى بأرواحهم، هذا الإسراء.

ثم بعد ذلك المعراج، والمعراج ورد في السُّنة(١).

فعُرج به صلى الله عليه وسلم بصحبة جبريل عليه السلام إلى السماء الأُولى فاستفتحها؛ لأن السماء لها أبوابٌ ولها حراسٌ لا يَدخلها أحدٌ حتى يستأذن، ثم يؤذَن له إن كان قد أُذن له، فدخل عليه الصلاة والسلام السماء الأُولى، ووجد فيها آدم عليه السلام، فقال آدم: مرحباً بالابن الصالح.

ثم عُرج به إلى السماء الثانية فاستفتحها، ودخلها وفيها عيسى ويحيى بن زكريا وهما أبناء خالة، فقالوا له: مرحباً بالأخ الصالح.

ثم في السماء الثالثة وجد يوسف عليه السلام فقال له: مرحبا بالأخ الصالح.

(١) رواه البخاريُّ، كتاب مناقب الأنصار، باب المعراج، رقم (٣٨٨٧)، من حديث مالك بن صعصعة رضي الله عنه، ومسلمٌ، كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله صلى الله عليه وسلم إلى السماوات وفرض الصلوات، رقم (١٦٢)، من حديث أنسٍ رضي الله عنه، والحديث طويل.

ثم في السماء الرابعة وجد إدريس عليه السلام، وقال مثلما قالوا.

ثم في السماء الخامسة وجد هارون عليه السلام.

ثم في السماء السادسة وجد موسى عليه السلام، وقال: مرحبا بالأخ الصالح، وبكى موسى عليه السلام، فقيل: ما يبكيك؟ قال: لأن غلاماً أتى من بعدي أمَّته يدخلون الجَنة أكثر من أمَّتي، لأن موسى عليه السلام كان يرجو أن يكون هو أكثر الأمم التابعة أمَّته، لكن النبي صلى الله عليه وسلم أصبحت أمَّته هي أكثر اتباعاً.

ثم في السماء السابعة وجد إبراهيم عليه السلام متكئاً على البيت المعمور الموافق للكعبة، فكان كالتكريم له لمَّا بنى الكعبة.

ثم بعد ذلك لمَّا صعد إلى السماء السابعة رُفع إلى مكان أعلى من ذلك عند سدرة المنتهى، وَسمع صرير الأقلام في اللوح المحفوظ، ودنى من ربه عز وجل لكن ما رآه، وافترض اللَّه عليه في ذلك الموقف العظيم الصلوات الخَمس بعد أن خُففت عليه من خمسين صلاة، لأنها فرضت عليه خمسين، ثم يعود الى السماء السادسة فقال له موسى عليه السلام: ماذا قال لك ربك؟

قال: افترض عليَّ خمسين صلاة، فقال له: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف؛ ثم عاد وقال: سل من ربك التخفيف، فلمَّا خُففت إلى خمس صلوات، رآه موسى فقال له: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف، فقال صلى الله عليه وسلم: إني استحيتُ من ربي.

وهذا يدل على أن موسى عليه السلام له فضلٌ كبيرٌ على الأمَّة المحمدية؛ حيث أنَّ الصلاة خُففت بسببه وبرأفته بهذه الأمَّة، لهذا كان من باب الوفاء له أن يصام يوم عاشوراء؛ لأنه اليوم الذي نجاه اللَّه عز وجل من عدوه وهو فرعون الذي كان يريد قتله.

ثم بعد ذلك نزل النبي صلى الله عليه وسلم بعد أن فُرضت عليه الصلاة إلى المسجد الأقصى، فركب البراق وعاد إلى مكة بنفس الليلة.

فلمَّا وصل مكة وأخبرهم بالخبر كذَّبته قريش، وذهبوا إلى أبي بكر رضي الله عنه وقالوا له: إن صاحبك يقول: إنه قد ذهب إلى المسجد الأقصى وأسري به إلى السماء، فقال رضي الله عنه: إن كان قد قال فإنَّه صدق، فلقبوه بالصدِّيق، ولم يصدقوه عليه الصلاة والسلام، فوصف لهم النبي صلى الله عليه وسلم المسجد الأقصى، لأنهم كانوا يعرفونه؛ حيث كانت تجارتهم من الشام، ومع كل هذا لم يصدقوه.

والحكمة من الإسراء بالنبي إلى المسجد الأقصى: لأن المسجد الأقصى هو موطن أكثر الأنبياء، وأبو الانبياء إبراهيم عليه السلام منها، وهي أرض المحشر.

لذلك قال المصنِّف رحمه اللَّه: **(وَالمِعْرَاجُ حَقٌّ)** يعني: نؤمن بذلك الأمر الخارق للعادة، حيث وصل إلى أعلى السماوات وعاد في ليلةٍ واحدةٍ قبل أن يبزغ(١) الفجر، وهذا من آيات اللَّه العظيمة وقدرته العجيبة، واللَّه عز وجل يقول: ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج: ٤]، وهذا في نفس الليلة عاد؛ لذا كان من الآيات العظيمة، وكان الأمر غيبيٌّ لا يُصدَّق بالعقل؛ وإنما بالإيمان بالقلب بما جاءت به النصوص؛ لأنه آية من آيات اللَّه الخارقة.

وبدأ رحمه الله بالكلام عن المعراج؛ لأمرين:

الأمر الأوَّل: لأن الإسراء لا يكذّب به، فهو موجودٌ في القرآن، لكن المعراج غير موجودٍ؛ فقد يكذِّب به بعض الناس.

والأمر الثاني: لأن قوله: **(وَالمِعْرَاجُ حَقٌّ)** يدخل فيه الإسراء كذلك؛ لأنَّه ما عُرج به إلا بعد أن أُسري به.

---

(١) أي: يَطلع. الصحاح (٤/ ١٣١٥).

ثم بدأ رحمه الله يفصِّل فقال: (وَقَدْ أُسْرِيَ بِالنَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم، وَعُرِجَ بِشَخْصِهِ فِي اليَقَظَةِ إِلَى السَّمَاءِ) وفي هذا درء من يقول أنَّ الإسراء كان في المنام فقال: (**بِشَخْصِهِ فِي اليَقَظَةِ**) يعني: بذاته وبجسده أُسري به، وعُرج بشخصه في اليقظة ليس بالمنام، فهو حقيقة بالجسد وحقيقة في اليقظة.

فعُرج بشخصه صلى الله عليه وسلم للسماء الأُولى والثانية والثالثة والرابعة والخامسة، (ثُمَّ إِلَى حَيْثُ شَاءَ اللَّهُ مِنَ العُلَا) حتى وصل إلى سدرة المنتهى وسمع صرير[1] الأقلام، حتى قيل: إنه سمع فيما يختص بالملأ الأعلى من صفاتهم؛ لدنوه من اللَّه عز وجل لكن ما رآه، وكلَّمه اللَّه عز وجل كفاحاً غير مباشرةٍ؛ يعني: فرض اللَّه عز وجل عليه الصلاة من غير واسطةٍ كجبريل عليه السلام، وإنما اللَّه سبحانه وتعالى كلَّمه.

ودنا من جبريل عليه السلام ورآه على صورته الحقيقية، قال اللَّه: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى * فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى﴾ [النجم: ٨-١٠]، ثم قال: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾ [النجم: ١١].

---

(١) أي: صوت. لسان العرب (٤/ ٤٥١).

قال: (وَأَكْرَمَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِمَا شَاءَ) يعني: قرَّبه اللَّه عز وجل منه وافترض الصلاة عليه.

ورفعته فوق الأنبياء تفضيلٌ وإكرامٌ له على بقية الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، بل على جميع البشر لذلك قال: (**وَأَكْرَمَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِمَا شَاءَ**) وكلام اللَّه عز وجل له كفاحاً من غير واسطةٍ هذا تكريمٌ عظيمٌ.

فإذا قيل: لماذا يقال موسى كليم الرحمن؟ نقول: لأنَّ هذه الصفة اختص بها موسى عليه السلام، فكانت أظهر فيه من غيره، وليس معنى ذلك أن اللَّه عز وجل لم يكلِّم غيره من الأنبياء، بل كلَّم آدم فقال: ﴿يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٣٥] فآدم كليم الرحمن كذلك، ونبينا محمد صلى الله عليه وسلم كليم الرحمن.

ثم قال: (وَأَوْحَى إِلَيْهِ مَا أَوْحَى) يعني: بما أراده اللَّه من الصلاة وغيرها.

(﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾)[١] يعني: القلب صدَّق بما رآه بعينه، من رؤية جبريل وغيره دون اللَّه عز وجل.

(١) ليست في المطبوع، لعلها في نسخة أخرى.

قال: (فَصلى اللَّه عليه وسلم فِي الْآخِرَةِ وَالْأُولَى)[١] يعني: اللَّه أثنى عليه في الدنيا والآخرة.

وهذا يدل على أن من حقوق النبي صلى الله عليه وسلم علينا تبجيله واحترامه وتوقيره، وطاعته والبعد عن معصيته؛ لأنه في حال دعوته لاقى من الشدائد ما لاقى من الصعود والعودة وتكذيب قومه بعد ذلك، وسميت سوره كامله بسورة الإسراء؛ لعظيم ما وقع.

(١) ليست في المطبوع، لعلها في نسخة أخرى.

وَالحَوْضُ الَّذِي أَكْرَمَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ غِيَاثاً لِأُمَّتِهِ حَقٌّ.

قدْر النبي صلى الله عليه وسلم عند ربه عظيمٌ، لذلك فضَّله اللَّه عز وجل، وجعل له خصائص ليست لأحدٍ من البشر، لذلك اللَّه عز وجل قال له: ﴿وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً﴾ [النساء: ١١٣]، وقال: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى * وَوَجَدَكَ ضَالّاً فَهَدَى * وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى﴾ [الضحى: ٦-٨]، ففضل اللَّه عز وجل على النبي صلى الله عليه وسلم عظيمٌ، ومع هذا لا يُغلى فيه إلى درجة الألوهية، بل هو عبدٌ ورسولٌ فُضِّل وخُصَّص بخصائص على غيره من البشر.

فهو عليه الصلاة والسلام فُضِّل بالدنيا بأمورٍ؛ من الغنى بعد الفقر، وفتْح القلوب له، ومما فضل به في الآخرة: أنه أوَّل من ينشق عنه

القبر(١)، وكذا الشفاعة العظيمة التي اختص بها؛ ومنها: شفاعته عند ربِّه بفتح أبواب الجَنة لأهل الجَنة(٢).

ومما اختص به النبي صلى الله عليه وسلم يوم القيامة: أن أكرمه اللَّه عز وجل بأمرين:

الأمر الأوَّل: بالحوض، وهذا في المحشر.

والأمر الثاني: إذا دخل الجَنة بنهرٍ اسمه الكوثر، قال سبحانه: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ [الكوثر: ١]، والكوثر هذا له ميزابان يصبّان في الحوض(٣).

---

(١) كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وفيه: «...وَأَنَا أَوَّلُ مَنْ يَنْشَقُّ عَنْهُ الْقَبْرُ...» رواه مسلمٌ، كتاب الفضائل، باب تفضيل نبينا صلى الله عليه وسلم على جميع الخلائق، رقم (٢٢٧٨).

(٢) كما في حديث أنسٍ رضي الله عنه، وفيه: «...آتِي بَابَ الْجَنَّةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَسْتَفْتِحُ، فَيَقُولُ الْخَازِنُ: مَنْ أَنْتَ؟ فَأَقُولُ: مُحَمَّدٌ، فَيَقُولُ: بِكَ أُمِرْتُ لَا أَفْتَحُ لِأَحَدٍ قَبْلَكَ...» رواه مسلمٌ، كتاب الإيمان، بابٌ في قول النبي صلى الله عليه وسلم: «أَنَا أَوَّلُ النَّاسِ يَشْفَعُ فِي الْجَنَّةِ وَأَنَا أَكْثَرُ الْأَنْبِيَاءِ تَبَعاً»، رقم(١٩٧).

(٣) كما في حديث أبي ذرٍّ رضي الله عنه، وفيه: «...يَشْخَبُ فِيهِ مِيزَابَانِ مِنَ الْجَنَّةِ...» رواه مسلمٌ، كتاب الفضائل، باب إثبات حوض نبينا صلى الله عليه وسلم وصفاته، رقم (٢٣٠٠).

ففُضِّل النبي صلى الله عليه وسلم بحوض ترِدُه أمَّته، حوضٌ طوله شهرٌ وعرضه شهرٌ، إذا قام الناس من قبورهم وهم ظمأى تلتجئ أمَّته إلى ذلك الحوض، وأما من كان منهم قد ارتد على عقبه ولم يتبع نهجه - والعياذ باللَّه - رُد عن الحوض، فيقول النبي صلى الله عليه وسلم: «إِنَّهُمْ مِنِّي، فَيُقَالُ: إِنَّكَ لَا تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ، فَيَقُولُ: سُحْقاً سُحْقاً لِمَنْ غَيَّرَ بَعْدِي»(١)، ومن شرب من الحوض لم يظمأ بعده أبداً.

لذلك قال المصنِّف رحمه اللَّه: **(وَالحَوْضُ)** أصل الحوض هو: مكان تجمع الماء(٢)، وحوض النبي صلى الله عليه وسلم على الأرض، لكن في أرضٍ غير هذه الأرض، فهو في أرض المحشر **(الَّذِي أَكْرَمَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ)** يعني: أن الحوض للنبي صلى الله عليه وسلم من إكرام اللَّه له، فالناس ظمأى يأتون للنبي صلى الله عليه وسلم يَشربون من

(١) رواه البخاريُّ، كتاب الرقاق، باب في الحوض وقول الله تعالى: {إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ}، رقم (٦٥٨٤)، ومسلمٌ، كتاب الفضائل، باب إثبات حوض نبينا صلى الله عليه وسلم وصفاته، رقم (٢٢٩٠)، من حديث أبي سعيدٍ الخدريِّ رضي الله عنه.

(٢) الصحاح (٣/ ١٠٧٣).

حوضه؛ لأنه فُضِّل على غيره بماءٍ يستقي الناس منه، عدد آنيته كنجوم السماء[1].

قال: **(غِيَاثاً لِأُمَّتِهِ)** يعني: من الظمأ، فإذا قيل: ما الحكمة من وجود الحوض في المحشر؟ نقول: لريِّ المؤمنين من الظمأ الذي يجِدونه في المحشر.

قال: **(حَقٌّ)** يعني: والحوض الذي أكرمه اللَّه عز وجل به حقٌّ، وهذا فيه الرد على المعتزلة فإنهم ينكِرون الحوض، وأهل السُّنة والجماعة يثبِتون الحوض للنبي صلى الله عليه وسلم؛ بل قال ابن كثير رحمه الله أنَّ أحاديث الحوض متواترةٌ[2]، فنؤمن به كما جاءت السُّنة في وصفه.

---

(١) كما في حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، وفيه: «...وَكِيزَانُهُ كَنُجُومِ السَّمَاءِ...» رواه البخاريُّ، كتاب الرقاق، باب في الحوض وقول الله تعالى: {إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ}، رقم (٦٥٧٩)، ومسلمٌ، كتاب الفضائل، باب إثبات حوض نبينا صلى الله عليه وسلم وصفاته، رقم (٢٢٩٢).

(٢) تفسير ابن كثير (٨/ ٥٠٢).

وَالشَّفَاعَةُ الَّتِي ادَّخَرَهَا لَهُمْ حَقٌّ، كَمَا رُوِيَ فِي الأَخْبَارِ.

النبي صلى الله عليه وسلم له نوعان من الشفاعة:

النوع الأوَّل: شفاعةٌ خاصَّةٌ به لا يَشفع في ذلك الأمر سواه.

والنوع الثاني: شفاعةٌ عامَّة يَشفع فيها معه غيره.

فالنوع الأوَّل وهو الشفاعة الخاصة به: شفاعتان:

الشفاعة الأُولى: الشفاعة العظمى، وهي الشفاعة عند اللَّه عز وجل أن يريح أهل الموقف من ذلك الكرب ليحاسبهم، فالناس إذا قاموا من قبورهم عراةً، والشمس قريبةٌ منهم، والملائكة محيطةٌ بهم، فيسألون اللَّه أن يخلِّصهم من ذلك الكرب، فيذهبون إلى آدم، ثم إلى نوحٍ، ثم إلى موسى، ثم إلى عيسى عليهم السلام، فكل هؤلاء الأنبياء يعتذرون.

ثم يذهبون إلى النبي محمد صلى الله عليه وسلم، قال عليه الصلاة والسلام: «فَأَنْطَلِقُ فَآتِي تَحْتَ العَرْشِ، فَأَقَعُ سَاجِداً لِرَبِّي عَزَّ وَجَلَّ، ثُمَّ يَفْتَحُ اللَّهُ عَلَيَّ مِنْ مَحَامِدِهِ وَحُسْنِ الثَّنَاءِ عَلَيْهِ شَيْئاً لَمْ يَفْتَحْهُ عَلَى أَحَدٍ

قَبْلِي، ثُمَّ يُقَالُ: يَا مُحَمَّدُ! ارْفَعْ رَأْسَكَ، سَلْ تُعْطَهْ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ»(١)، فيشفع عند اللَّه عز وجل بأن يريح الخلق من ذلك الموقف، فيحاسبهم اللَّه سبحانه وتعالى.

وهذه الشفاعة لأهل الموقف جميعاً، وهي خاصَّةٌ بالنبي صلى الله عليه وسلم.

والشفاعة الثانية: لأهل الجَنة إذا أتوا باب الجَنة فلا تُفتح لهم، حتى يستشفع لهم النبي صلى الله عليه وسلم فتُفتح لهم، قال سبحانه: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا﴾ فينتظرون ﴿وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ [الزمر: ٧٣]؛ أي: تُفتح بعد الشفاعة، أما عند النار - والعياذ باللَّه - فقال: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ﴾ بدون واو ﴿أَبْوَابُهَا﴾ [الزمر: ٧١]، فيَدخل أهل النار إلى النار بدون شفاعةٍ، فيدخلون عليها - والعياذ باللَّه - مباشرةً.

---

(١) رواه البخاريُّ، كتاب التوحيد، باب كلام الرب عز وجل يوم القيامة مع الأنبياء وغيرهم، رقم (٧٥١٠)، ومسلمٌ، كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجَنة منزلة فيها، رقم (١٩٤)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وهذه على سبيل الإجمال، وهناك شفاعةٌ خاصةٌ بالنبي صلى الله عليه وسلم برجلٍ خاصٍّ من أهل النار وهو عمه أبو طالب[١]، فيشفع له فيخفَّف عنه العذاب لا ليُخرج من النار.

والنوع الثاني من الشفاعات: الشفاعة العامة للنبي صلى الله عليه وسلم ولغيره، فيشفع النبي صلى الله عليه وسلم والملائكة، ويشفع الأنبياء، ويشفع المؤمنون.

ومن تلك الشفاعات: الشفاعة في خروج العصاة من النار من أهل التوحيد إلى الجَنَّة، والمعتزلة ينكرونها.

لذلك قال رحمه اللَّه: **(وَالشَّفَاعَةُ الَّتي ادَّخَرَهَا لَهُمْ حَقٌّ، كَمَا رُوِيَ فِي الأَخْبَارِ)** كقول الرسول صلى الله عليه وسلم: «شَفَاعَتِي لِأَهْلِ الْكَبَائِرِ مِنْ

(١) كما في حديث أبي سعيدٍ الخدري رضي الله عنه، ولفظه: «أَنَّ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم ذُكِرَ عِنْدَهُ عَمُّهُ أَبُو طَالِبٍ فَقَالَ: لَعَلَّهُ تَنْفَعُهُ شَفَاعَتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيُجْعَلَ فِي ضَحْضَاحٍ مِنْ نَارٍ يَبْلُغُ كَعْبَيْهِ يَغْلِي مِنْهُ دِمَاغُهُ» رواه البخاريُّ، كتاب مناقب الأنصار، باب قصة أبي طالب، رقم (٣٨٨٥)، ومسلمٌ، كتاب الإيمان، باب شفاعة النبي صلى الله عليه وسلم لأبي طالب والتخفيف عنه بسببه، رقم (٢١٠).

أُمَّتِي»[1]، والمعتزلة ينكرونها؛ لأنهم يَرون تخليد صاحب الكبيرة في النار.

ومن الشفاعات العامّة أيضاً: الشفاعة في رفع الدرجات في الجَنة، وهذه لا ينكرها المعتزلة.

ومنها أيضاً: الشفاعة فيمن استحق دخول النار أن لا يَدخلها.

(١) رواه أحمد في المسند، رقم (١٣٢٢٢)، من حديث أنس بن مالكٍ رضي الله عنه.

وَالمِيثَاقُ الَّذِي أَخَذَهُ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ آدَمَ عليه السلام وَذُرِّيَّتِهِ حَقٌّ.

اللَّه سبحانه لا يعذِّب أحداً إلا بعد نذارته؛ قال سبحانه: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً﴾ [الإسراء: ١٥]، ومع إرسال الرسل اللَّه سبحانه أخذ الميثاق على آدم وذريته، كما قال سبحانه: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا﴾ [الأعراف: ١٧٢].

وفي الترمذي[1] وقال: «حديث حسن»: «أنَّ اللَّه مسح على ظهر آدم، فتساقط منه من تساقط منهم إلى النار، ومنهم إلى الجَنَّة، فتلك المسحة من الميثاق الذي أخذ».

(١) أبواب تفسير القرآن، رقم (٣٠٧٥)، من حديث عمر رضي الله عنه، ولفظه: «إِنَّ اللهَ خَلَقَ آدَمَ، ثُمَّ مَسَحَ ظَهْرَهُ بِيَمِينِهِ، فَأَخْرَجَ مِنْهُ ذُرِّيَّةً، فَقَالَ: خَلَقْتُ هَؤُلَاءِ لِلْجَنَّةِ وَبِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ يَعْمَلُونَ، ثُمَّ مَسَحَ ظَهْرَهُ، فَاسْتَخْرَجَ مِنْهُ ذُرِّيَّةً، فَقَالَ: خَلَقْتُ هَؤُلَاءِ لِلنَّارِ وَبِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ يَعْمَلُونَ. فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللهِ، فَفِيمَ الْعَمَلُ؟ قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: إِنَّ اللهَ إِذَا خَلَقَ الْعَبْدَ لِلْجَنَّةِ اسْتَعْمَلَهُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَتَّى يَمُوتَ عَلَى عَمَلٍ مِنْ أَعْمَالِ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَيُدْخِلَهُ اللهُ الْجَنَّةَ، وَإِذَا خَلَقَ الْعَبْدَ لِلنَّارِ اسْتَعْمَلَهُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ حَتَّى يَمُوتَ عَلَى عَمَلٍ مِنْ أَعْمَالِ أَهْلِ النَّارِ، فَيُدْخِلَهُ اللهُ النَّارَ».

فإذا قيل: نحن لا نتذكر ذلك الميثاق؛ نقول: صحيح، نحن لا نتذكر ذلك الميثاق، لكن نؤمن به في القلوب.

والميثاق هو كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ فاللَّه يقول: أنا ربكم، وأنا واحدٌ، ﴿قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا﴾ أنت ربُّنا وأنت الواحد، فكل مخلوقٍ من بني آدم اللَّه أخذ عليه ذلك الميثاق.

فاللَّه عز وجل يوبِّخهم فيقول: ﴿أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ * أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا﴾ يا ربِّ ﴿بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٢- ١٧٣] بذلك الفعل ونحن لا نعلم ذلك؟!

لذلك قال المصنِّف: **(وَالمِيثَاقُ الَّذِي أَخَذَهُ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ آدَمَ عليه السلام وَذُرِّيَّتِهِ حَقٌّ)** نؤمن به؛ لوروده في نَص القرآن كما سبق، ولأنه جاء أيضاً في الأحاديث الصحيحة، كما في صحيح البخاريِّ ومسلمٍ[1]: «إِنَّ

(١) رواه البخاريُّ، كتاب أحاديث الأنبياء، بَابُ قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً}، رقم (٣٣٣٤)، من حديث أنس رضي الله عنه، ولم أقف عليه عند مسلم.

اللَّهَ يَقُولُ لِأَهْوَنِ أَهْلِ النَّارِ عَذَاباً: لَوْ أَنَّ لَكَ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَيْءٍ كُنْتَ تَفْتَدِي بِهِ؟ قَالَ: نَعَمْ.

قَالَ: فَقَدْ سَأَلْتُكَ مَا هُوَ أَهْوَنُ مِنْ هَذَا وَأَنْتَ فِي صُلْبِ آدَمَ، أَنْ لَا تُشْرِكَ بِي، فَأَبَيْتَ إِلَّا الشِّرْكَ».

ومن آثار ذلك الميثاق: برحمة اللَّه أنَّ كل إنسانٍ يَخرج لهذه الحياة على الفطرة، فالفطرة خرجت من ذلك الميثاق الذي أُخذ.

وهذا من فضل اللَّه سبحانه ورحمته بعباده حيث أنشأهم على الفطرة، فلو كان كل شخصٍ ينشأ على غير دين الإسلام لاحتاج حتى يعلِن الإسلام فترةً من عِلمه بالحق بعد أن يبحث عنه طويلاً، وقد يجده أو لا يجده، لكن الآن بفضل اللَّه كل ما ينشأ بالبَر أو الصحراء تجده موحِّداً ولا يعبد غير اللَّه، فاللَّه يقول في الحديث القدسي: «وَإِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ كُلَّهُمْ، وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ»(١) أي: اجتالت من اجتالت منهم، وإلا في الأصل أن الشخص لو وُضع لوحده في صحراء ينشأ ويموت على التوحيد لا يَعبد غير اللَّه، ويَعلم أنَّ

(١) رواه مسلمٌ، كتاب الجَنة وصفة نعيمها وأهلها، باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجَنة وأهل النار، رقم (٢٨٦٥)، من حديث عياض بن حمار رضي الله عنه.

له خالقاً واحداً سبحانه وتعالى، لكن الذي يلوث الفطرة هم الشياطين وجنودهم من الإنس.

وَقَدْ عَلِمَ اللَّهُ فِيمَا لَمْ يَزَلْ عَدَدَ مَنْ يَدْخُلُ الجَنَّةَ وَعَدَدَ مَنْ يَدْخُلُ النَّارَ جُمْلَةً وَاحِدَةً، فَلَا يُزَادُ فِي ذَلِكَ العَدَدِ، وَلَا يُنْقَصُ مِنْهُ، وَكَذَلِكَ أَفْعَالَهُمْ فِيمَا عَلِمَ مِنْهُمْ أَنْ يَفْعَلُوهُ.

قال رحمه اللَّه: **(وَقَدْ عَلِمَ اللَّهُ فِيمَا لَمْ يَزَلْ)** يعني: وقد عَلم جل جلاله بعِلمه الأزلي القديم **(عَدَدَ مَنْ يَدْخُلُ الجَنَّةَ وَعَدَدَ مَنْ يَدْخُلُ النَّارَ)** كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: ٧٥]، وقال: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٩]، وقال: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً﴾ [الطلاق: ١٢]، فهو سبحانه لا يخفى عليه شيءٌ في الأرض ولا في السماء، ﴿وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [النمل: ٧٥].

فهو سبحانه قد عَلِم فيما لم يزل بعِلمه القديم الأزلي ما سيحدث من عدد الذين يدخلون الجَنة وعدد الذين يدخلون النار، قال: **(جُمْلَةً وَاحِدَةً)** يعني: جملةً مرتبطةً بعددٍ، كما قال اللَّه: ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْداً * لَقَدْ أَحْصَاهُمْ﴾ منهم إلى الجَنَّة ومنهم إلى النار ﴿وَعَدَّهُمْ عَدّاً﴾ [مريم: ٩٣-٩٤]، والنبي صلى الله

عليه وسلم قال: «يَدْخُلُ الجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِي سَبْعُونَ أَلْفاً بِغَيْرِ حِسَابٍ وَلَا عَذَابٍ»[1]، واللَّه سبحانه علم عددهم.

قال: (فَلَا يُزَادُ فِي ذَلِكَ العَدَدِ، وَلَا يُنْقَصُ مِنْهُ) فعدد أهل الجَنة اللَّه يَعلمه، وكذا عدد أهل النار يَعلمه اللَّه، وقد فرغ من ذلك فلا يزاد ولا ينقص في ذلك العدد.

ثم قال: (وَكَذَلِكَ أَفْعَالَهُمْ) يعني: اللَّه عز وجل يَعلم أفعالهم (فِيمَا عَلِمَ مِنْهُمْ أَنْ يَفْعَلُوهُ) يعني: عَلم ما سيفعلونه، كما قال سبحانه: ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٧٤]، وقال: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٣٤]، وقال: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٨٣]، وقال: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد: ٤]، وقال: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [آل عمران: ١٥٤]، وقال: ﴿وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٨٤].

---

(١) رواه البخاريُّ، كتاب الرقاق، باب قوله تعالى: {وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ}، رقم (٦٤٧٢)، ومسلمٌ، كتاب الإيمان، باب الدليل على دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حسابٍ ولا عذابٍ، رقم (٢١٨).

لذلك قال: (**وَكَذَلِكَ أَفْعَالَهُمْ فِيمَا عَلِمَ مِنْهُمْ أَنْ يَفْعَلُوهُ**) معنى هذا الكلام: أن اللَّه سبحانه يَعلم أفعال العباد قبل أن يَعملوها، ويَعلمها أيضاً إذا عملوها؛ لذلك اللَّه يقول: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ﴾ [التوبة: ١٠٥]، فيرى بما قد كتب في عِلمه السابق أنهم سيعملونه، وإذا عملوه عَلِم منهم ذلك الفعل.

وَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ، وَالأَعْمَالُ بِالخَوَاتِيمِ، وَالسَّعِيدُ مَنْ سَعِدَ بِقَضَاءِ اللَّهِ، وَالشَّقِيُّ مَنْ شَقِيَ بِقَضَاءِ اللَّهِ.

قال رحمه اللَّه: (**وَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ**) يعني: أن من كان من أهل الجَنة ييسَّر لعمل أهل الجَنة، ومن كان من أهل الشقاء ييسَّر لعمل أهل الشقاء، قال سبحانه: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى * وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى* فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى﴾ [الليل: ٥-١٠]، فكلٌّ ميسَّر لِمَا خُلق له، فصاحب النار هو مَن بَخل واستغنى وكذَّب بالجَنة، فييسَّر لتلك الأعمال حتى يكون من أهل النار - والعياذ باللَّه -، لذلك أهل الإسلام ييسَّرون لعمل الإسلام، وأهل الكُفر ييسَّر لهم أعمال الكفر والعياذ باللَّه.

لذلك لمَّا سأل الصحابة النبي صلى الله عليه وسلم عندما قال: «رُفِعَتِ الْأَقْلَامُ، وَجَفَّتِ الصُّحُفُ» قالوا: «فَفِيمَ العَمَل يَا رَسُولَ اللَّه؟! فقال: اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ»[(١)]، فأهل السعادة ميسَّرون لعمل أهل السعادة، وأهل الشقاوة ميسَّرون لعمل أهل الشقاوة.

---

(١) رواه مسلمٌ، كتاب القدَر، باب كيفية خلق الآدمي في بطن أمه وكتابة رزقه وأجله وعمله وشقاوته وسعادته، رقم (٢٦٤٨)، من حديث جابرٍ رضي الله عنه.

فإذا قيل: إذا كان ذلك مكتوباً فلِمَ نعمل؟

نقول: مثل كما تَعرف أن الشخص لو لم يأكل يموت، فهل إذا جعتَ تقول: لن آكل لأنه مكتوبٌ عليَّ أن أموت؟! ستقول: لا، سوف آكل لئلا أموت، وهنا كذلك تَعمل لئلا تدخل النار، فالعمل مطلوبٌ من الشخص حتى ولو كانت الآجال منسوخةً، لأنك لا تَعلم هل خُتم لك بهذا أو بهذا، فتَسعى الى أن يُختم لك بالعمل الصالح.

قال: (وَالأَعْمَالُ بِالخَوَاتِيمِ) لمَّا بيَّن أنَّ كلّاً ميسَّرٌ لِما عمل من الطاعة والمعصية، ذكر أن الذي يَرتفع به الشخص هو خواتيم عمله، فمن كان على الكفر ثم أسلم ومات؛ يُختم له بالإسلام، ومن كان مسلماً ثم مات على الكفر؛ يُختم له بالكفر - والعياذ باللَّه -؛ لذلك النبي صلى الله عليه وسلم قال: «فَوَ الَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ! إِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّة حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الكِتَابُ؛ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّار، فَيَدْخُلُهَا، وَإِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّار، حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الكِتَابُ؛ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّة،

فَيَدْخُلُهَا»[١]، والأمر الأوَّل قال النوويُّ[٢] رحمه اللَّه: «وهذا قليلٌ»[٣] يعني: بفضل اللَّه قليلٌ أنَّ الشخص يَعمل الصالحات، ثم والعياذ باللَّه يَرتد في آخر عمره، أما الأمر الثاني فهو كثيرٌ بفضل اللَّه.

لكن يخشى الشخص ألَّا يُختم له بخير؛ لذلك الإكثار من الأعمال الصالحة والبعد عن المعاصي من أسباب حُسن الخاتمة.

فإذا قيل: كيف أسعى لحسن خاتمتي؟ نقول: بالإكثار من الطاعات والبعد عن السيئات.

فإذا قيل: ما الدليل؟ نقول: اللَّه يقول: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩].

---

(١) رواه البخاريُّ، كتاب التوحيد، باب قوله تعالى: {وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ} [الصافات: ١٧١]، رقم (٧٤٥٤)، ومسلمٌ، كتاب القدر، باب كيفية خلْق الآدمي في بطن أمّه وكتابة رزْقه وأجلهِ وعملهِ وشقاوتهِ وسعادتهِ، رقم (٢٦٤٣)، من حديث عبد الله بن مسعودٍ رضي الله عنه.

(٢) هو: أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف بن مرّي النوويّ الشافعيّ، وُلد سنة (٦٣١هـ)، وتوفي رحمه الله سنة (٦٧٦هـ). طبقات الشافعيَّة الكبرى (٨/ ٣٩٥)، طبقات الشافعيَّة (٢/ ١٥٣).

(٣) شرح النووي على مسلم (١٦/ ١٩٢).

قال: (وَالسَّعِيدُ مَنْ سَعِدَ بِقَضَاءِ اللَّهِ) فلا شك أنَّ السعيد الذي يَسعد بما كَتبه اللَّه له بأن جَعله من السعداء من أهل الجَنة كما قال سبحانه: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [هود: ١٠٨]؛ أي: ما فيه نقصٌ ولا قطْع.

فمن ناله شيءٌ مما فيه خير القضاء؛ فهذا من فضل اللَّه وكرمه، لذلك اللَّه يقول: ﴿وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [النساء: ٣٢]؛ يعني: الإنسان يدعو ربه كثيراً، فيقول مثلاً: اللَّهم إني أسألك من فضلك العظيم، فيُكثِر المسلم من مثل هذه الدعوة العظيمة.

قال: (وَالشَّقِيُّ مَنْ شَقِيَ بِقَضَاءِ اللَّهِ) يعني: الشقي الذي يناله شر ما كُتب عليه، لذلك قال سبحانه: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ * خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾ [هود: ١٠٦-١٠٧]، فكيف يَجتنب الشخص شقاء القضاء؟! نقول: يدعو ربه أن يجنِّبه السيئات وعمل المنكرات والمعاصي وألَّا يجعله من خلْقه الأشقياء، فيقول: اللَّهم اجعلني من عبادك السعداء، ونحو ذلك.

فإذا قيل: لماذا كان شقيّاً من شقي بالقضاء؟ نقول: لأنه - والعياذ باللَّه - يكون من أهل النار، نسأل اللَّه أن يَجعلنا من عباده السعداء في القضاء.

وَأَصْلُ القَدَرِ: سِرُّ اللَّهِ فِي خَلْقِهِ، لَمْ يَطَّلِعْ عَلَى ذَلِكَ مَلَكٌ مُقَرَّبٌ وَلَا نَبِيٌّ مُرْسَلٌ.

وَالتَّعَمُّقُ وَالنَّظَرُ فِي ذَلِكَ ذَرِيعَةُ الخِذْلَانِ، وَسُلَّمُ الحِرْمَانِ، وَدَرَجَةُ الطُّغْيَانِ.

فَالحَذَرَ كُلَّ الحَذَرِ مِنْ ذَلِكَ نَظَراً وَفِكْراً وَوَسْوَسَةً، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى طَوَى عِلْمَ القَدَرِ عَنْ أَنَامِهِ، وَنَهَاهُمْ عَنْ مَرَامِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾، فَمَنْ سَأَلَ: لِمَ فَعَلَ؟ فَقَدْ رَدَّ حُكْمَ الكِتَابِ، وَمَنْ رَدَّ حُكْمَ الكِتَابِ كَانَ مِنَ الكَافِرِينَ.

قال رحمه اللَّه: (وَأَصْلُ القَدَرِ: سِرُّ اللَّهِ فِي خَلْقِهِ) يعني: حقيقة ما قدَّره اللَّه وقضاه على الخلْق حالاً ومستقبلاً هو سر اللَّه في خلْقه، فما يقضيه اللَّه على عباده - من الهداية والضلال، والغنى والفقر، والسعة والضيق، والمرض والعافية، والصِّغر والكِبَر، والعِلم والجهل، ونحو ذلك من هذه الأمور - هذا سرٌّ من أسرار اللَّه في خلقه؛ يعني: ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾[الأنبياء: ٢٣].

فلا يقال مثلاً: لماذا فلانٌ اللَّه هداه وذاك أضله؟! ولماذا اللَّه أغنى هذا وأفقر هذا؟! ولماذا أمرض هذا الصغير وعافى ذاك الرجل القوي؟!

ولماذا أطال اللَّه عمر ذلك الظالم وأخذ عمر هذا الرجل الصالح؟! فلا يقال ذلك؛ فهو سر اللَّه في خلْقه، قال سبحانه: ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣]، وقال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾ [هود: ١٠٧]، وقال: ﴿وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ [إبراهيم: ٢٧]، وقال: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [القصص: ٦٨]، وقال: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤].

فالقدَر سرٌّ من أسرار اللَّه في خلْقه؛ يعني: كما قال سبحانه: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [فاطر: ٨] فالذي يشاءه اللَّه هو الحق والصواب والعدل والفضل، فأفعاله سبحانه وتعالى كلُّها صوابٌ وعدلٌ؛ قال سبحانه: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلاً﴾ [الأنعام: ١١٥].

لذلك قال: (**وَأَصْلُ الْقَدَرِ: سِرُّ اللَّهِ فِي خَلْقِهِ**) فما يقضيه اللَّه على الخلائق على اختلاف القضاء والقدَر من الخير والشر سرُّ اللَّه في خلقه، فلو قيل: لماذا رَفع درجة محمد صلى عليه الصلاة والسلام، وخفض درجة فرعون وأبي جهل؟! نقول: ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣]، ﴿وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [التحريم: ٢]، ﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ [سبأ: ١].

لذلك قال: (لَمْ يَطَّلِعْ عَلَى ذَلِكَ) أي: لا يَعرف ذلك السر (مَلَكٌ مُقَرَّبٌ وَلَا نَبِيٌّ مُرْسَلٌ) فلا الملائكة ولا الرسل يَعلمون ذلك.

فإذا قرَّرنا هذا الأمر وهو أنَّ اللَّه سبحانه يفعل ما يشاء، والأمر كما قال عن نفسه: ﴿قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٤]، فإذا تقرَّر ذلك: قال المصنِّف: (وَالتَّعَمُّقُ وَالنَّظَرُ فِي ذَلِكَ) يعني: في ذلك الأمر من الهداية والضلالة ونحو ذلك، والنظر في لماذا فعل كذا ولماذا لم يفعل كذا، فالتعمق البحث، والنظر التفكر، قال: (ذَرِيعَةُ الخِذْلَانِ) أي: وسيلةٌ لأن يَخذل اللَّه عز وجل العبد.

والخذلان ضد العزة، قال سبحانه: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً﴾ [فاطر: ١٠] يعني: بالطاعة، فمن أراد الطاعة امتثل أوامر اللَّه بما قضاه اللَّه عز وجل، والرضا والتسليم بذلك.

قال: (وَسُلَّمُ الحِرْمَانِ) يعني: طريقٌ من طرق الحرمان، فمن أراد الهداية والسعادة والخير والرشاد فلا يتعمَّق في القدَر.

(وَدَرَجَةُ الطُّغْيَانِ) يعني: درجةٌ من درجات الضلال، فالطغيان ضد الاستقامة، فإعمال الفكر والنظر في أنك أعلم وأحكم من ربك هو ضلالٌ وطغيانٌ وحرمانٌ؛ فأنت بشرٌ ضعيفٌ كما قال عز وجل: ﴿وَعَسَى

أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦].

فمن نظر في ذلك وتعمق: معناه: أنه يريد أن يشارك الرب في حُكمه وفي قضاءه وما يقدِّره على عباده، لذلك قال: (فَالحَذَرَ كُلَّ الحَذَرِ مِنْ ذَلِكَ نَظَراً) يعني: تأمُّلاً (وَفِكْراً) أي: تفكيراً (وَوَسْوَسَةً) فسماه وسوسة؛ لأن ذلك العِلم حقيقته وسوسةٌ وتيهٌ وضياعٌ، واللَّه عز وجل ما أمرك به، قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ [النور: ٥١]، وقال عز وجل: ﴿آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران: ٧]، وقال: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

فلا يخوض الشخص في التفكر لماذا فعل اللَّه كذا، ولماذا فعل اللَّه كذا؛ وإنما يقول: ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ٨٣]، فلا يستحقرنَّ المرء نعمةً أُسديت لغير مستحقها في نظر البشر، ولا يندمنَّ شخصٌ على نعمةٍ حُرمها شخصٌ في نظره أنه يستحقها، ومن ذلك لو قال مثلاً: حرامٌ ذلك الرجل يَمرض؛ نقول: لا يجوز؛ لأنَّ ما قدَّره اللَّه وقضاه سرُّ اللَّه في خلقه، يُمرِض من يشاء ويعافي من يشاء.

وكذل لو مثلاً شخصٌ مريضٌ أو لم ينجح في الامتحان فيقول شخصٌ: ما يستاهل ذلك الرجل؛ يعني: حقه أن لا يُفعل به ذلك؛ نقول: هذا من الخطأ؛ لأن ما يقضيه اللَّه عز وجل على عباده سرٌّ من أسراره، فقد يكون ذلك الشخص في داخله تعنّتاً وتعتّباً على القضاء والقدر وعدم الإيمان باللَّه الراسخ في قلبه؛ فيصاب بمثل تلك المصائب، أو أنَّ اللَّه عز وجل يريد له الخير والرفعة، فيصاب بمثل تلك الأمور فيكون خيراً له؛ كما قال عليه الصلاة والسلام: «عَجَباً لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ، فَكَانَ خَيْراً لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ، صَبَرَ فَكَانَ خَيْراً لَهُ»(١).

قال: (فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى طَوَى عِلْمَ الْقَدَرِ عَنْ أَنَامِهِ) يعني: اللَّه عز وجل أخفى القدَر عن الخلْق، فلا حاجة للخلق أن يبحثوا عن ذلك السر، فاللَّه سبحانه وتعالى لم يكلِّفهم بذلك، وليس من التعبد أن يبحثوا عن ذلك، ولا أن يتفكَّروا فيه.

(١) رواه مسلمٌ، كتاب الزهد والرقائق، باب المؤمن أمره كله خيرٌ، رقم (٢٩٩٩)، من حديث صهيبٍ رضي الله عنه.

قال: (وَنَهَاهُمْ عَنْ مَرَامِهِ) يعني: نهى الخلْق عن المرام - وهو القصد - عما يعني، كأنه يقول: ونهاهم عن التوغل فيما أراده اللَّه عز وجل في أيِّ أمرٍ أراده، فمثلاً: اللَّه أراد أن يكون هذا الشخص كافراً، والشخص الآخر مؤمناً، فنهاهم أن يتوغَّلوا لماذا يريد اللَّه ذلك الرجل أن يكون كافراً، وجعل ذلك الرجل مؤمناً.

قال: (كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾) أي: لا يُسأل الرب عن أفعاله (﴿وَهُمْ﴾) يعني: الخلْق (﴿يُسْأَلُونَ﴾) عما يَفعلون، فمن يَفعل فعلاً اللَّه عز وجل يُحاسِبه عليه، لكن أنت لا تَسأل ربك لِم فعل ذلك، لأن جميع ما يَحدث ناشئٌ عن حكمةٍ للَّه عز وجل وعدلٍ وفضلٍ، وصادرٌ أيضاً عن خبرةٍ من اللَّه عز وجل وهو القائل: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ [الرعد: ٨]، فكل أمرٍ يَحدث اللَّه يَعلمه ومقدِّره، قال عز وجل: ﴿وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ﴾ [المؤمنون: ١٧].

قال: (فَمَنْ سَأَلَ: لِمَ فَعَلَ؟) يعني: لماذا فعل اللَّه ذلك؟ مثل لو قال: لماذا أعطى الكفار مالاً أو زروعاً؟! ونحو ذلك؛ قال: (فَقَدْ رَدَّ حُكْمَ الكِتَابِ) لأن اللَّه قال: ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣]، (وَمَنْ رَدَّ حُكْمَ الكِتَابِ كَانَ مِنَ الكَافِرِينَ).

فالواجب هو الرضا والتسليم بأنه سبحانه المصرِّف للأمور والحقائق، قال عز وجل: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤]، فهو سبحانه خلقهم وهو أعلم بهم وبنياتهم وبأفعالهم، لذلك ما على المسلم سوى الرضا والاستسلام والتسليم والإيمان بما قضاه اللَّه عز وجل وقدَّره.

فَهَذَا جُمْلَةُ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ مَنْ هُوَ مُنَوَّرٌ قَلْبُهُ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ تَعَالَى، وَهِيَ دَرَجَةُ الرَّاسِخِينَ فِي العِلْمِ؛ لِأَنَّ العِلْمَ عِلْمَانِ: عِلْمٌ فِي الخَلْقِ مَوْجُودٌ، وَعِلْمٌ فِي الخَلْقِ مَفْقُودٌ، فَإِنْكَارُ العِلْمِ المَوْجُودِ كُفْرٌ، وَادِّعَاءُ العِلْمِ المَفْقُودِ كُفْرٌ.

وَلَا يَصِحُّ الإِيمَانُ إِلَّا بِقَبُولِ العِلْمِ المَوْجُودِ، وَتَرْكِ طَلَبِ العِلْمِ المَفْقُودِ.

قال رحمه اللَّه: (**فَهَذَا**) يعني: ما ذكرتُ لك سابقاً من أوَّل العقيدة إلى هنا (**جُمْلَةُ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ مَنْ هُوَ مُنَوَّرٌ قَلْبُهُ**) يعني: من أنار عز وجل اللَّه قلبه، فمن أنار قلبه سبحانه وانتفع بهذه العقيدة، فهي تنفعه؛ لأنه محتاجٌ إليها.

قال: (**مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ تَعَالَى**) وهم المؤمنون كما سيأتي، والمؤمنون كلهم أولياء الرحمن، فأولياء اللَّه يحتاجون لهذه العقيدة إيماناً بها وترسيخاً لِمَا في نفوسهم منها، وكذا كل البشر يحتاجون اليها، وإنما قال: (**جُمْلَةُ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ مَنْ هُوَ مُنَوَّرٌ قَلْبُهُ**) يعني: لا ينفك عن شيءٍ منها من أنار اللَّه قلبه، أما من أعرض عن ذلك فإنه لا ينتفع بمثل هذه العقيدة العظيمة.

وقوله: (**مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ تَعَالَى**) كما قال عز وجل: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ من هم أولياء اللَّه؟ قال: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٦١ - ٦٢]، فكل مؤمنٍ متَّقٍ فهو وليٌّ من أولياء اللَّه عز وجل.

قال: (**وَهِيَ دَرَجَةُ الرَّاسِخِينَ فِي العِلْمِ**) يعني: مَن كانت عقيدته سليمةً وعاملاً بما اعتقده من معتقَدٍ صحيحٍ؛ فهذه هي درجة الراسخين في العِلم، فإنَّ الرسوخ في العِلم هو الرسوخ في العقيدة، وما تبعه من علومٍ شرعيَّةٍ أخرى هي مكمِّلة لها، لأنَّ الأصل هو عِلم العقيدة وهي الفقه الأكبر.

قال: (**لِأَنَّ العِلْمَ عِلْمَانِ: عِلْمٌ فِي الخَلْقِ مَوْجُودٌ**) يعني: عِلمٌ موجودٌ عند الخلق، مثل: القرآن الكريم، ومثل: النبي صلى الله عليه وسلم وبعثته، ومثل الكعبة، ونحو ذلك، يعني: ما يعتقده الناس من الأمور الحاضرة: هذه جل الناس يؤمنون بها؛ لأنهم يرونها بأبصارهم، وإنما غالب ما ينكره الناس هو ما غاب عن أبصارهم، وهو الذي وصفه المصنِّف بقوله: (**وَعِلْمٌ فِي الخَلْقِ مَفْقُودٌ**) يعني: مغيَّبٌ عنهم، ومراده

بذلك: عِلم الغيب، مثل: الحوض، والمحشر، والجَنة، والنار، لكن المؤمنين يؤمنون بذلك؛ لأنهم من الراسخين في العِلم.

قال: (فَإِنْكَارُ العِلْمِ المَوْجُودِ كُفْرٌ) أي: إذا أنكر الشخص شيئاً موجوداً يَكفر، مثل: من أنكر النبيَّ عليه الصلاة والسلام يَكفر، وكذا من أنكر القرآن يَكفر، وهكذا.

قال: (وَادِّعَاءُ العِلْمِ المَفْقُودِ كُفْرٌ) مثل: شخصٌ يقول لغيره: أنت من أهل الجَنة، وأنت من أهل النار، وليس هناك محشرٌ، وإنما أمرٌ آخر، وكذا يدَّعي بأنه ليس هناك حسابٌ، وبأنه ليس هناك حوض للنبي صلى الله عليه وسلم؛ فهذا يَكفر.

إذاً ماذا يصنع المرء؟ قال رحمه اللَّه: (وَلَا يَصِحُّ الإِيمَانُ إِلَّا بِقَبُولِ العِلْمِ المَوْجُودِ) يعني: لا يُقبل الإيمان، ولا يكون المؤمن مؤمناً إلا إذا آمن بالعِلم الموجود مما جاءت به النصوص من الحاضر والغائب، (وَتَرْكِ طَلَبِ العِلْمِ المَفْقُودِ) أي: اترك طلب الأمر المغيَّب عنك مما جاءت به النصوص من أن تغيِّره على غير حقيقته، أو أن تدَّعي أموراً مغيَّبةً عنك، كما يدعي الكاهن والعرَّاف ونحو ذلك.

فمِن أوَّل صفات المؤمنين التي ذكرها اللَّه عز وجل في كتابه: الإيمان بالغيب، فقال اللَّه: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ [البقرة: ٢-٣]، فالإيمان بالغيب درجته عاليةٌ، وثوابه عظيمٌ، وأجره كبيرٌ عند اللَّه عز وجل؛ لأن الشخص يؤمن بشيءٍ لم يره، وإنما رسخ الإيمان في قلبه فآمن بالنصوص.

لهذا يجب دائماً على المسلم أن يضع نصب عينيه قوله سبحانه: ﴿آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران: ٧]، فهذه آيةٌ عظيمةٌ ينقشها المسلم في قلبه، فكل ما أتى به من نَصٍّ يؤمن به بلا جدالٍ، وليكن قدوته في ذلك أبا بكر الصديق رضي الله عنه لمَّا أُخبر عن الإسراء والمعراج فقال: «لَئِنْ كَانَ قَالَ ذَلِكَ لَقَدْ صَدَقَ»[١]، وهكذا فيسير المرء على تسيير نفسه بالإيمان بكل نَصٍّ جاء من عند اللَّه أو من عند رسوله صلى الله عليه وسلم.

---

(١) رواه الحاكم في المستدرك، كتاب معرفة الصحابة رضي الله عنهم، (٤/ ٦٥)، رقم (٤٤٠٧)، من حديث عائشة رضي الله عنها.

وَنُؤْمِنُ بِاللَّوْحِ وَالقَلَمِ، وَجَمِيعُ مَا فِيهِ قَدْ رُقِمَ، فَلَوِ اجْتَمَعَ الخَلْقُ كُلُّهُمْ عَلَى شَيْءٍ كَتَبَهُ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِ أَنَّهُ كَائِنٌ لِيَجْعَلُوهُ غَيْرَ كَائِنٍ: لَمْ يَقْدِرُوا عَلَيْهِ.

وَلَوِ اجْتَمَعُوا كُلُّهُمْ عَلَى شَيْءٍ كَتَبَهُ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِ أَنَّهُ غَيْرُ كَائِنٍ لِيَجْعَلُوهُ كَائِناً: لَمْ يَقْدِرُوا عَلَيْهِ.

جَفَّ القَلَمُ بِمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ، وَمَا أَخْطَأَ العَبْدَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَهُ، وَمَا أَصَابَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَهُ.

قال رحمه اللَّه: (**وَنُؤْمِنُ بِاللَّوْحِ وَالقَلَمِ**) اللوح هو: ما كتبه اللَّه عز وجل في جميع ما هو كائنٌ إلى يوم القيامة، فكل ما سيَحدث كتبه اللَّه عز وجل في ذلك اللوح المحفوظ، وكتبه بالقلم، فنحن نؤمن بوجود لوحٍ محفوظٍ، ونؤمن بالقلم الذي كتب اللَّه عز وجل به ما في اللوح المحفوظ، فنؤمن باللوح ونؤمن بالقلم اللذَين لا يَعلم كنههما إلا اللَّه سبحانه.

(**وَجَمِيعُ مَا فِيهِ قَدْ رُقِمَ**) يعني: نؤمن بجميع ما كُتب فيه، فنؤمن بأن اللَّه كتب ما هو كائنٌ إلى يوم القيامة، كما قال سبحانه: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الزمر: ٦٢]، وقال: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً﴾ [الفرقان: ٢]،

وقال عليه الصلاة والسلام: «كَتَبَ اللَّهُ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ»(١).

فلمَّا كتب اللَّه ما هو كائنٌ إلى يوم القيامة تحدَّى الخلق جميعاً عن أن يغيروا ما هو مرقومٌ ومكتوبٌ فيه، وهو سبحانه القوي والعباد ضعفاء، وهو الملك والعباد عبيدٌ، فلو اجتمع الخلق كلهم على شيءٍ كتبه اللَّه تعالى فيه ليجعلوه غير كائنٍ؛ لم يَقدروا عليه، فلو كتب اللَّه عز وجل الهداية والسعادة لأحدٍ، وأرادوا إضلاله لم يَقدروا عليه، كما في الحديث: «وَاعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ؛ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ، وَلَوِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ؛ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الْأَقْلامُ، وَجَفَّتِ الصُّحُفُ»(٢).

وقال سبحانه: ﴿وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [الرعد: ١٦]، وقال: ﴿الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ﴾ [الرعد: ٩]، وقال: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ﴾ [الحشر: ٢٣]، وقال: ﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾

---

(١) رواه مسلمٌ، كتاب القدَر، باب حجاج آدم وموسى عليهما السلام، رقم (٢٦٥٣)، من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

(٢) رواه أحمد في المسند، رقم (٢٦٦٩)، من حديث عبد الله بن عباسٍ رضي الله عنهما.

[الزمر: ٦٣]، وقال: ﴿وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ﴾ [المؤمنون: ١٧]، وقال: ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقال: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٨].

لذلك ما كُتب لا يغيَّر، ولو سعى الخلق إلى تغيير شيءٍ يَعجزون عن ذلك، فالنبي صلى الله عليه وسلم سعى إلى أن يَجعل أبا طالب من أهل الهداية فما استطاع، فإلى آخر رمقٍ لأبي طالب والنبي صلى الله عليه وسلم يقول له: «يَا عَمِّ! قُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ»[1] وما نطق بها؛ لأن اللَّه كَتب له أن يموت على الكفر.

لذلك قال: (فَلَوِ اجْتَمَعَ الخَلْقُ كُلُّهُمْ عَلَى شَيْءٍ كَتَبَهُ اللَّهُ تَعالَى فِيهِ أَنَّهُ كَائِنٌ لِيَجْعَلُوهُ غَيْرَ كَائِنٍ: لَمْ يَقْدِرُوا عَلَيْهِ)؛ لضعفهم، وكذلك العكس؛ (وَلَوِ اجْتَمَعُوا كُلُّهُمْ عَلَى شَيْءٍ كَتَبَهُ اللَّهُ تَعالَى فِيهِ أَنَّهُ غَيْرُ كَائِنٍ لِيَجْعَلُوهُ كَائِناً: لَمْ يَقْدِرُوا عَلَيْهِ)؛ لضعفهم.

---

(١) رواه البخاريُّ، كتاب مناقب الأنصار، باب قصة أبي طالب، رقم (٣٨٨٤)، ومسلمٌ، كتاب الإيمان، باب الدليل على صحة إسلام من حضرة الموت، رقم (٢٤)، من حديث المسيب رضي الله عنه.

فلو اجتمع الأطباء كلهم على إنقاذ حياة شخصٍ واحدٍ كتب اللَّه أن يموت؛ لمات، ولو اجتمع الخلق على محاربة عبد كتب اللَّه له النجاة لنجى، قال سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الحج: ٣٨]، وقال: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدّاً وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدّاً فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [يس: ٩]، وقال: ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلاً وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيراً لَفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [الأنفال: ٤٣]، فمع أن الاسباب مهيأةٌ لعدم الانتصار، لكن اللَّه نصرهم.

قال: (جَفَّ القَلَمُ بِمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ) فما كتبه اللَّه لا يزاد فيه ولا يُنقص، فإذا قيل: النبي صلى الله عليه وسلم يقول: «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُبْسَطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ أَوْ يُنْسَأَ لَهُ فِي أَثَرِهِ؛ فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ»(١)؟

نقول: نعم، فهو مكتوبٌ في اللوح المحفوظ أنَّ فلاناً يَقطع رحمه ثم يَصِلها؛ فيطول عمره.

---

(١) رواه البخاريُّ، كتاب الأدب، باب من بُسط له في الرزق بصلة الرحم، رقم (٥٩٨٦)، ومسلمٌ، كتاب البِر والصلة والآداب، باب صلة الرحم وتحريم قطيعتها، رقم (٢٥٥٧)، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

فكل شيءٍ مكتوبٌ، لذلك ليس على العبد سوى التسليم والرضا والإيمان بالقضاء والقدَر، فلا يتسخط ولا يتجزع ونحو ذلك؛ وإنما يسلِّم ذلك الأمر له سبحانه، قال عز وجل: ﴿قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٤]، وقال: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣]، وقال: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً﴾ [المزمل: ٩]، فيتوكل العبد على اللَّه، ويفوِّض أموره إليه، ويدعو ربه بأسباب السعادة وأسباب الرزق ونحو ذلك.

قال: (وَمَا أَخْطَأَ العَبْدَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَهُ) أي: ما أخطأه من القَدر بأمر اللَّه لم يكن ليصيبه، فتجد اثنين في سيارةٍ واحدةٍ تتقلب، هذا يموت والآخر لا يموت، قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]، فما أراده اللَّه يكون، وما لم يُرده اللَّه لم يكن.

(وَمَا أَصَابَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَهُ) وهذا يدل على شدة إحكام الكون للَّه عز وجل، قال سبحانه: ﴿يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩]، فلشدة قوة إتقان الكون وإحكامه الذي أحسن كل شيءٍ خلقه ما قُدِّر للشخص يقع وما لم يُقدَّر لا يقع؛ لأن اللَّه سبحانه هو الواحد المتصرِّف، له له الخلْق والأمر.

وَعَلَى العَبْدِ: أَنْ يَعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى سَبَقَ عِلْمُهُ فِي كُلِّ كَائِنٍ مِنْ خَلْقِهِ، فَقَدَّرَ ذَلِكَ بِمَشِيئَتِهِ تَقْدِيراً مُحْكَماً مُبْرَماً، لَيْسَ فيه نَاقِضٌ وَلَامُعَقِّبٌ، وَلَا مُزِيلٌ وَلَا مُغَيِّرٌ وَلَا مُحَوِّلٌ، وَلَا زَائِدٌ وَلَا نَاقِصٌ مِنْ خَلْقِهِ فِي سَمَوَاتِهِ وَأَرْضِهِ، وَذَلِكَ مِنْ عَقْدِ الإِيمَانِ وَأُصُولِ المَعْرِفَةِ، وَالاِعْتِرَافِ بِتَوْحِيدِ اللَّهِ وَرُبُوبِيَّتِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً﴾، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَراً مَقْدُوراً﴾.

فَوَيْلٌ لِمَنْ صَارَ لِلَّهِ فِي القَدَرِ خَصِيماً، وَأَحْضَرَ لِلنَّظَرِ فِيهِ قَلْباً سَقِيماً، لَقَدِ التَمَسَ بِوَهْمِهِ فِي فَحْصِ الغَيْبِ سِرّاً كَتِيماً، وَعَادَ بِمَا قَالَ أَفَّاكاً أَثِيماً.

اللَّه عز وجل يَعلم الأمور قبل وقوعها، ويَعلمها حين وقوعها، ويَعلمها بعد وقوعها، قال سبحانه: ﴿وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً﴾ [الأنعام: ٨٠]، وقال: ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً﴾ [الأحزاب: ٤٠]، وقال: ﴿لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً﴾ [الطلاق: ١٢]، وحين وقوعها قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: ٧٥]، وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة: ١]، وبعد أن تقع

قال سبحانه: ﴿قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى﴾ [طه: ٥٢] سبحانه.

فمعتقد أهل السُّنة والجماعة أنَّ اللَّه سبحانه يَعلم قبل أن يكون ذلك الأمر، ويَعلم عند حدوث الأمر، والمعتزلة ذهبوا إلى أن اللَّه سبحانه لا يَعلم بالأمر - والعياذ باللَّه - إلا حين وقوعه، فلا يَعلم هل سيحدث شيء غداً أم لا؛ لذلك قالوا: إنَّ الأمر أُنف؛ يعني: مستأنف.

لذلك المصنِّف رحمه الله ذكر هذه المسألة، فقال: (وَعَلَى العَبْدِ: أَنْ يَعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى سَبَقَ عِلْمُهُ فِي كُلِّ كَائِنٍ مِنْ خَلْقِهِ) يعني: يَعلم قبل الوقوع في كل ما يكون في خلْقه، فيَعلم هل فلانٌ سيموت غداً، ويَعلم هل فلانٌ سيمرض غداً أم لا سبحانه وتعالى، فهذا هو من عِلمه الذي وسع كل شيءٍ عِلماً.

قال: (فَقَدَّرَ ذَلِكَ بِمَشِيئَتِهِ تَقْدِيراً مُحْكَماً) يعني: ليس فيه شكٌّ ولا فيه ترددٌ؛ بل تقديرٌ دقيقٌ، قال سبحانه: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً﴾ [الفرقان: ٢]، وقال: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩]، وقال: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ

وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩].

قال: (مُبْرَماً) أي: متقَناً ليس فيه تناقضٌ ولا فيه نقصٌ ولا فيه شكوكٌ؛ بل كما قال عن نفسه: ﴿قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ﴾ [الأنعام: ٧٣]، فيقع كل شيءٍ وهو محكَمٌ متقَنٌ قد عَلِمه اللَّه عز وجل قبل وقوعه.

قال: (لَيْسَ فيه نَاقِضٌ) يعني: ليس فيه ما يتناقض؛ بل ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]، فإذا أراد لشخصٍ أن يموت يموت، ولو أراد أن يحييا يحييا، ونحو ذلك، قال سبحانه: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢]، وقال: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾ [السجدة: ٧]، وقال: ﴿لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ﴾ [التغابن: ١]، وقال: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤]، وقال: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الملك: ١]، وقال: ﴿هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ﴾ [الحشر: ٢٣]، وقال: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤]، وغيرها من الآيات، فأمره سبحانه في وقوع ذلك الأمر ليس فيه تناقضٌ، فهو يَعلمه قبل وقوعه، ويَعلمه حين وقوعه.

قال: (وَلَا مُعَقِّبٌ) يعني: ليس هناك أمرٌ ثم يأتي بعده أمرٌ؛ وإنما أمره واحدٌ، لأنه لو كان هناك ما يردفه بأمرٍ آخرٍ لنقص في الأمر الأوَّل، قال سبحانه: ﴿لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ﴾ [الرعد: ٤١]، فهو سبحانه العزيز الحكيم القوي الكبير المتعال.

(وَلَا مُزِيلٌ) يعني: إذا أمر بأمرٍ لا أحد يستطيع أن يزيله؛ كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: «اللَّهُمَّ لَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ، وَلَا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ»(١)، وقال سبحانه عن نفسه: ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ﴾ [فاطر: ٢]، وقال: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾ [يونس: ١٠٧]، فما أحد يستطيع أن يَرُدَّ فضله وأمره سبحانه.

(وَلَا مُغَيِّرٌ) يعني: لو أنَّ اللَّه عز وجل كتب لأحدٍ الهداية فلا أحد يستطيع أن يضلَّه، ولو أضل اللَّه عز وجل أحداً لا أحد يستطيع أن يهديه، قال سبحانه: ﴿فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ﴾ [الروم: ٢٩]، وقال: ﴿وَمَنْ

---

(١) رواه البخاريُّ، كتاب الأذان، باب الذكر بعد الصلاة، رقم (٨٤٤)، ومسلمٌ، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب استحباب الذِّكر بعد الصلاة وبيان صفته، رقم (٥٩٣)، من حديث المغيرة بن شعبة رضي الله عنه.

يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [الرعد: ٣٣]، وقال: ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ﴾ [الشورى: ٤٦]، وقال في العذاب: ﴿فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ﴾ [الرعد: ١١]، فلا أحد يستطيع أن يَرُدَّ أمره، ولا أحد يستطيع أن يتولى رَدَّ أمره سبحانه وتعالى، فهو سبحانه الولي القهار.

قال: (وَلَا مُحَوِّلٌ) أي: لا يمكن أن يحوِّل أحدٌ من الخلق ما أراده للَّه، فهم -أي: الخلْق- لا يَملكون كشف الضر ولا تحويله، ولا يَملكون كشف ما قدَّره اللَّه ولا تحويله، قال اللَّه: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلاً﴾ [الإسراء: ٥٦].

قال: (وَلَا زَائِدٌ) يعني: إذا قضى اللَّه عز وجل أمراً لعبدٍ لا أحد يزيد عما قضاه اللَّه سبحانه، وإذا أعطى اللَّه عز وجل عطاءً لعبدٍ لا أحد يستطيع أن يزيد في ذلك العطاء، فهو سبحانه كما قال: ﴿لَهُ الْمُلْكُ﴾ [التغابن: ١]، وقال النبي صلى الله عليه وسلم: «لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ»[1]، وقال سبحانه عن نفسه: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ

(١) رواه أحمد في المسند، رقم (٤٤٩٦)، من حديث ابن عمر رضي الله عنه.

قَدِيرٌ﴾ [التغابن: ١]، وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة:٢٠]، وقال: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢].

(وَلَا نَاقِصٌ) يعني: لا أحد يستطيع أن يُنقِص مما أمر اللَّه شيئاً، فإذا أعطى فلاناً من الرزق كذا وكذا لا يُنقص منه شيءٌ؛ بل يؤتى حقه كاملاً؛ كما قال النبي عليه الصلاة والسلام في حديث ابن مسعود[1] رضي الله عنه: «ثُمَّ يُرْسَلُ الْمَلَكُ فَيَنْفُخُ فِيهِ الرُّوحَ، وَيُؤْمَرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ بِكَتْبِ رِزْقِهِ وَأَجَلِهِ وَعَمَلِهِ، وَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ»[2]، فكل واحدٍ له رزقه، قال سبحانه عن المطر: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا﴾ [الفرقان: ٥٠]، فهو مصرَّف كما قال ابن عباسٍ رضي الله عنهما: «بعدد القطرات، لكل قوم قطرات معينة اللَّه عز وجل يَجعلها لهم»[3].

---

(١) هو: أبو عبد الرحمن عبد الله بن مسعود بن غافل الهذلي، أَسلم في أوَّل بزوع فجر الإسلام، وتوفي رضي الله عنه سنة (٣٢هـ أو ٣٣هـ). أسد الغابة في معرفة الصحابة (٣/ ٣٨١).

(٢) رواه البخاريُّ، كتاب التوحيد، باب قوله تعالى: {وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ} [الصافات: ١٧١]، رقم (٧٤٥٤)، ومسلمٌ، كتاب القدر، باب كيفية خلْق الآدمي في بطن أمّه وكتابة رزْقه وأجلِهِ وعملِهِ وشقاوتهِ وسعادتهِ، رقم (٢٦٤٣).

(٣) لفظه: «ما عامٌ بأكثر مطراً من عام، ولكن الله يصرِّفه بين خلقه». تفسير الطبري (١٧/ ٤٦٩).

قال: (مِنْ خَلْقِهِ) «مِن» هنا بيانيةٌ؛ يعني: ولا ناقصاً من خلقه؛ يعني: لا أحد يستطيع أن ينقِص مما أمر اللَّه عز وجل لخلقه، (فِي سَمَوَاتِهِ وَأَرْضِهِ) يعني: لا أحد في السماوات ولا في الأرض يستطيع أن يغيِّر أو يبدِّل أو يزيل أو يحوِّل أو يزيد أو ينقص شيئاً مما في السماوات ولا في الأرض.

إذاً ما هو واجب الخلْق؟ نقول: الواجب الرضا والتسليم والإيمان، فلا يملكون شيئاً، كما قال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥]، وقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ [فاطر: ٣]، وقال: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ﴾ [سبأ: ٢٤]، وهذا من كمال ربوبية اللَّه وكمال عِلمه، ومن كمال قوته.

ثم قال رحمه اللَّه: (وَذَلِكَ) أي: قوله: (**وَعَلَى العَبْدِ: أَنْ يَعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى سَبَقَ عِلْمُهُ فِي كُلِّ كَائِنٍ مِنْ خَلْقِهِ...**) أو نقول: الإيمان بالقدَر، وبمراتبه الأربع - العِلم، المشيئة، الخلْق، الكتابة - (مِنْ عَقْدِ الإِيمَانِ) يعني: من أصول الايمان لا يتم عقد الإيمان في القلب إلا به، كما قال

سبحانه: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩]، وفي حديث عمر رضي الله عنه قال: «وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ»[1]، فهو ركنٌ من أركان الإيمان، فإذا اختل الإيمان بالقدَر اختل الإيمان.

قال: (وَأُصُولِ المَعْرِفَةِ) يعني: الإيمان بالقدَر من أُسس معرفة اللَّه عز وجل.

قال: (وَالاِعْتِرَافِ بِتَوْحِيدِ اللَّهِ) يعني: الإيمان بألوهية اللَّه عز وجل وكمال أسمائه وصفاته، والإيمان بالقدَر متعلِّقٌ بتوحيد الألوهية؛ لأنَّ اللَّه هو الواحد الذي يَعلم، قال اللَّه: ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً﴾ [الأحزاب: ٤٠]، وقال: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

(وَرُبُوبِيَّتِهِ) يعني: بصفاته وأفعاله، فمن صفاته: العِلم، فهو يَعلم ما العباد سيعملونه؛ لأنَّ المعتزلة ينكرون ذلك، فهو يقول: إن الإيمان بأن اللَّه يَعلم ما الخلق عاملون قبل أن يَعملوه هذا من توحيد الربوبية؛ لأنه من أفعال اللَّه ومن صفات اللَّه.

---

(١) رواه مسلمٌ، كتاب الإيمان، باب الإيمان ما هو وبيان خصاله، رقم (٨).

إذاً كأنه يقول: من أنكر العِلم فقد أخل بتوحيد الربوبية، فمثلاً من أنكر أنَّ اللَّه عز وجل هو الذي ينزِل المطر فقد أنكر الربوبية؛ لأنه أنكر صفةً من صفات الربوبية وهي إنزال المطر أو الرزق، ومن أنكر أن اللَّه يَخلق فقد أنكر صفةً من صفات الربوبية للَّه وهي الخلق، لذلك هنا يَذكر أن الإيمان بالقدَر متعلِّقٌ بتوحيد الربوبية؛ لأن فيه صفةً من صفات اللَّه وهي العِلم.

قال: (كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً﴾) أي: خلق كل شيءٍ فقدَّره سبحانه وتعالى تقديراً محكَماً، (وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَراً مَقْدُوراً﴾) أي: كل أمرٍ يقدِّره اللَّه فهو قدَرٌ ومقدورٌ عليه، فما حدَث بقدر اللَّه، وهذا الذي حدث بقدَر اللَّه هو مقدورٌ عليه سبحانه وتعالى، قال عز وجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة:٢٠]، وقال سبحانه: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِراً﴾ [الكهف: ٤٥]، وقال: ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة: ١٢٠]، وقال: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [فصلت: ١١]، وقال: ﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنِ انْظُرْ

إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا﴾ [الأعراف: ١٤٣].

فكل أمرٍ اللَّه عز وجل هو الذي قدَّره، وهو قادرٌ على إيجاده، فإذاً لا مناص عن الإيمان بالقدَر والرضا به، والتسليم لأفعال اللَّه عز وجل، وعدم الاستكبار أو السخط، أو عدم الرضا أو الرغبة في تحويل هذا الحال إلى حال آخر، فهذه عقيدة المسلم في الإيمان بالقدَر.

ثم توعد رحمه الله وهدد من سعى لاختراق ذلك السر في الخلق وهو القدر، فقال: (فَوَيْلٌ لِمَنْ صَارَ لِلَّهِ فِي القَدَرِ خَصِيماً) أي: من يخاصم ربه فيما قدَّره وقضاه على خلقه، مثل أن يقول: لماذا فلان آمِنٌ وأنا محرومٌ؟! لماذا فلان متزوجٌ وأنا لم أتزوج؟! فإذا خاصمتَ ربك في القدَر فاللَّه عز وجل يخاصمك، فلَم تكلَّف بذلك الأمر؛ وإنما أُمرتَ بالإيمان بالقدَر خيره وشره، وحلوه ومره.

(وَأَحْضَرَ لِلنَّظَرِ فِيهِ قَلْباً سَقِيماً) يعني: قلبه سقيمٌ؛ لتطلعه لسر اللَّه عز وجل في خلقه، فلِمَ تراوده الشكوك والأوهام في اقتحام سر اللَّه في خلقه؟! فما هذا إلا لسقم قلبه، ولو كان قلبه سليماً لعظَّم اللَّه سبحانه، ووحَّده في أفعاله وفي أسمائه وصفاته، وعظمه في ذاته جل وعلا كما قال

سبحانه: ﴿وَكَبِّرْهُ تَكْبِيراً﴾ [الإسراء: ١١١]، وقال: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ [الأعلى: ١]، وقال: ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ [الواقعة: ٧٤] أي: نزِّه ربك عن كل عيبٍ ونقصٍ يقال فيه[١]، وقال سبحانه: ﴿هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ﴾ [الحشر: ٢٣] أي: المتقدس عن النقائص والأوهام والعيوب التي يُرمى بها سبحانه وتعالى[٢].

قال: (لَقَدِ التَمَسَ) يعني: من يفعل ذلك (بِوَهْمِهِ) يعني: سعى بوهمه وشكوكه (فِي فَحْصِ الغَيْبِ) يعني: في التطلع إلى ذلك السر (سِرّاً كَتِيماً) يعني: إنه يتطلع بوهمه إلى سرٍّ مكتومٍ، لكن لن يحصل عليه لا الملائكة ولا الرسل ولا الأنبياء يَعلمون ذلك، فكيف تسلِّم لنفسك الأهواء والشكوك والأفكار والظنون في ذلك الأمر الذي قد حُجب عمن هو خيراً منك؟!

قال: (وَعَادَ بِمَا قَالَ أَفَّاكاً أَثِيماً) يعني: من يلتمس ذلك سيعود بما قال أفّاكاً كذّاباً، فلو قلت: لماذا اللَّه عز وجل أعطى فلاناً وحرَم فلاناً؟ فهذا إفكٌ وكذبٌ؛ لأنك لا تَعلم الغيب، واللَّه يقول: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ

---

(١) تفسير القرطبي (١٨/ ٢٧٧).

(٢) تفسير البغوي (٥/ ٦٦).

مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً سُخْرِيّاً وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [الزخرف: ٣٢]، وقال سبحانه: ﴿وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفاً مِنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ* وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَاباً وَسُرُراً عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ * وَزُخْرُفاً﴾ [الزخرف: ٣٣-٣٥]، لكن هذه ما تضر وليست هي المقياس؛ وانما المقياس قال: ﴿وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [الزخرف: ٣٢]، أي: لا تغتر بما أعطي الكفار من زينةٍ ومالٍ.

فاذا قال شخصٌ: لماذا الكافر يُعطى وأنا أُحرم؟! نقول: لا تَدخل في سر اللَّه تعالى، اللَّه يقول عنهم: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا﴾ [الأحقاف: ٢٠]، وقال سبحانه: ﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدّاً﴾ [مريم: ٨٤]، وقال: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ * نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٥-٥٦]، فلا يدركون ولا يَعلمون لماذا، فلا تطلق عنان قلبك ولا فكرك ولا نظرك ولا وسوستك ولا فكرك لهذا الباب العظيم وهو القدَر باختلاق الوساوس والأوهام والتجزع والتسخط.

لذلك قال: (وَعَادَ بِمَا قَالَ أَفَّاكاً أَثِيماً) يعني: يكون موصوفاً بالكذب ويلحقه الإثم المبين بسبب ذلك الأمر.

إذاً ما هو الواجب؟ نقول: قال اللَّه: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ [النور: ٥١]، فيقول الشخص: ﴿آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران: ٧]، فيؤمن ويسلِّم ويرضى ويصبر ويسترجع على ما فاته من الخير في القدَر، وما لحقه من الشر فيه.

ويكون المصنِّف رحمه الله بهذا قد ختم الحديث عن مسألة القدَر، وهي مسألةٌ عظيمةٌ، ولأهميتها جُعلت ركناً من أركان الإيمان، لا يكون الشخص مؤمناً إلا بالإيمان بالقدَر.

وَالعَرْشُ وَالكُرْسِيُّ حَقٌّ، كَمَا بَيَّنَ اللَّهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ، وَهُوَ جلَّ جَلَالُهُ مُسْتَغْنٍ عَنِ العَرْشِ وَمَا دُونَهُ، مُحِيطٌ بِكُلِّ شَيْءٍ وَفَوْقَهُ، وَقَدْ أَعْجَزَ عَنِ الإِحَاطَةِ خَلْقَهُ.

قال رحمه اللَّه: **(وَالعَرْشُ)** العرش في اللغة هو: سرير الملك[1]، وعرش الرحمن لا يَعلم كنهه وحقيقته سوى اللَّه عز وجل.

وهذا العرش العظيم وصفه اللَّه سبحانه وتعالى في كتابه بثلاثة أوصافٍ:

الوصف الأوَّل: بأنَّه عظيم؛ قال جلَّ وعلا: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [التوبة: ١٢٩]، فهو ذو عظمةٍ واتِّساعٍ وكِبَرٍ.

والوصف الثاني: بأنَّه كريمٌ، قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ* فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾ [المؤمنون: ١١٥- ١١٦].

والوصف الثالث: بأنَّه مجيدٌ، كما قال تعالى: ﴿ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ﴾ [البروج: ١٥].

---

(١) الصحاح (٣/ ١٠٠٩).

وعرشه سبحانه على الماء، كما قال سبحانه: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾ [هود: ٧]، ويَحمل عرش اللَّه عز وجل يوم القيامة ثمانية من الملائكة، ووصْف هؤلاء الملائكة الذين يحملون العرش: قال النبي صلى الله عليه وسلم في السُّنن[1]: «أُذِنَ لِي أَنْ أُحَدِّثَ عَنْ مَلَكٍ مِنْ مَلَائِكَةِ اللَّهِ مِنْ حَمَلَةِ الْعَرْشِ، إِنَّ مَا بَيْنَ شَحْمَةِ أُذُنِهِ إِلَى عَاتِقِهِ مَسِيرَةُ سَبْعِ مِئَةِ عَامٍ»، وهو حديثٌ صحيحٌ، فإذا كان هذا ملكٌ واحدٌ من حملة العرش فما ظنُّك بالعرش؟!

والعرش له قوائم، كما في حديث الشفاعة؛ قال النَّبيُّ عليه الصَّلاة والسَّلام: «فَإِذَا أَنا بمُوسَى آخِذٌ بِقَائِمَةٍ مِنْ قَوَائِمِ العَرْشِ»[2]، ومن توسُّل الداعي في تفريج الكرب: «لا إله إلا اللَّه العظيم الحليم، لا إله إلا اللَّه رب العرش العظيم، لا إله إلا اللَّه رب السماوات ورب الارض ورب

---

(١) رواه أبو داوود، كتاب السُّنة، بابٌ في الجهميّة، رقم (٤٧٢٧)، من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه.

(٢) رواه البخاريُّ، كتاب التوحيد، باب {وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ}، رقم (٧٤٢٧)، من حديث أبي سعيدٍ رضي الله عنه.

العرش الكريم»، فمن ألفاظ تفريج كربات المكروب: التوسل إلى اللَّه عز وجل بأن عرشه عظيمٌ وكريمٌ.

وخلْقه أكبر من خلْق السماوات والأرض، وأكبر من خلْق الكرسي، وهو أعلى الجَنة، والفردوس الأعلى، والنبي عليه الصلاة والسلام يقول: «فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ فَاسْأَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الْجَنَّةِ وَأَعْلَى الْجَنَّةِ»[١] فهو أعلى الجَنة مثل القبة، وسقف الرحمن.

واللَّه عز وجل يَنزل الى السماء الدنيا حين يَبقى الثلث الأخير من الليل[٢]، قال الشيخ ابن إبراهيم[٣]: «والأَولى السكوت عن هذا، فلا

---

(١) رواه البخاريُّ، كتاب الجهاد والسِّيَر، باب درجات المجاهدين في سبيل الله، رقم (٢٧٩٠)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه، ولفظه: «يَنزِلُ رَبُّنَا إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا كُلَّ لَيْلَةٍ حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الآخِرُ، فَيَقُولُ: مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ؟ مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ؟ مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ؟» رواه البخاريُّ، كتاب التهجد، باب الدعاء في الصلاة من آخر الليل، رقم (١١٤٥)، ومسلمٌ، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الترغيب في الدعاء والذِّكر في آخر الليل، والإجابة فيه، رقم (٧٥٨).

(٣) هو: محمد بن إبراهيم بن عبد اللطيف بن عبد الرحمن آل الشيخ، وُلد سنة (١٣١١هـ)، وتوفي رحمه الله سنة (١٣٨٩هـ). الدرر السنية في الأجوبة النجدية (١٦/ ٤٧٤).

يقال: هل يخلو العرش منه أو لا؟»[1]، فنثبت أنَّ اللَّه عز وجل يَنزل كما أتت به النصوص، ولا نقول: يخلو منه العرش أو لا يخلو منه العرش.

قال: (وَالعَرْشُ وَالكُرْسِيُّ حَقٌّ) يعني: العرش حقٌّ نؤمن به؛ لأن النصوص أتت به من الكتاب والسُّنة، واللَّه عز وجل لمَّا خلق نواة الارض استوى على عرشه، قال سبحانه: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥]، وقال: ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤]، فخلَق السموات والأرض، ثم استوى على العرش استواءً يليق بجلاله وعظمته، لا نحرِّف ولا نأوِّل، ولا نعطِّل ولا نكِّيف ولا نمثِّل.

قال: (وَالكُرْسِيُّ) الكرسي أعظم آيةٍ في كتاب اللَّه، وسميت به آية الكرسي، وإذا قرأها العبد قبل أن ينام لم يزلْ عليه من اللَّه حافظ حتى يصبح كما في البخاري ومسلم[2]. وسميت آية الكرسي؛ لورود الكرسي فيها في قوله: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

---

(١) فتاوى ورسائل سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم بن عبد اللطيف آل الشيخ (١/ ٢١٢).

(٢) رواه البخاريُّ، كتاب الوكالة، باب إذا وكَّل رجلا، فترك الوكيل شيئا فأجازه الموكل فهو جائزٌ، وإن أقرضه إلى أجلٍ مسمّىً جاز، رقم (٢٣١١)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه،

ولم يرِد في وصف الكرسي حديثاً صحيحاً فيما أعلم، سوى قول ابن عباس رضي الله عنهما بأنَّ الكرسي موضع قدمي الرحمن[١].

والعرش أكبر من الكرسيّ، فورد في بعض الآثار: «كخردلةٍ في فلاةٍ»[٢] يعني: الكرسي بالنسبة للعرش، فالكرسي صغير بالنسبة للعرش، والعرش أعظم وأكبر منه، لذلك قال: (**وَالكُرْسِيُّ حَقٌّ**) فنؤمن بالكرسي، فقد قال اللَّه عز وجل: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

ثم وأعظم مخلوقٍ هو العرش، واللَّه عز وجل وهو مستوي على عرشه مستغنٍ عن العرش كما قال عز وجل: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٧]، وكل ما سوى اللَّه عالَم، وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [لقمان: ٢٦]، بل إن العرش محتاجٌ إلى اللَّه، فكل من في

وفيه: «إِذَا أَوَيْتَ إِلَى فِرَاشِكَ فَاقْرَأْ آيَةَ الْكُرْسِيِّ مِنْ أَوَّلِهَا حَتَّى تَخْتِمَ الْآيَةَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ، وَقَالَ لِي: لَنْ يَزَالَ عَلَيْكَ مِنْ اللَّهِ حَافِظٌ وَلَا يَقْرَبَكَ شَيْطَانٌ حَتَّى تُصْبِحَ».

(١) رواه الطبراني في الكبير، رقم (١٢/ ٣٩/ ١٢٤٠٤).

(٢) الصواب: «مَا الْكُرْسِيُّ فِي الْعَرْشِ؛ إِلَّا كَحَلْقَةٍ مِنْ حَدِيدٍ أُلْقِيَتْ بَيْنَ ظَهْرَيْ فَلَاةٍ مِنَ الْأَرْضِ» رواه الأصبهاني في العظمة، ذكر عرش الرب تبارك وتعالى وكرسيه، وعظم خلقهما، وعلو الرب تبارك وتعالى فوق عرشه، من حديث أبي ذرٍّ رضي الله عنه، (٢/ ٥٨٧).

السموات ومن في الأرض يسبِّح للَّه، قال سبحانه: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤]، وقال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾ [النور: ٤١].

فإذا قيل: اللَّه عز وجل فوق العرش، فكيف هو غير محتاجٍ للعرش؟

نقول: مثلاً مخلوقٌ مع مخلوقٍ وهو فوقه وغير محتاج إليه، فمثلاً السموات فوق الأرض وأكبر من الأرض ومع ذلك السموات ليست محتاجةً للأرض، وهي - أي: السماوات - أكبر بكثير من الأرض، فإذا كان هذا المخلوق الكبير الأعلى غير محتاجٍ للمخلوق الأصغر منه وهو أسفل منه؛ فمن باب أَولى لا شك أنَّ اللَّه عز وجل وهو الخالق غير محتاجٍ للعرش وهو المخلوق.

لذلك قال: (وَهُوَ جلَّ جَلَالُهُ مُسْتَغْنٍ عَنِ العَرْشِ وَمَا دُونَهُ)

يعني: مستغنٍ عن العرش وما دونه من المخلوقات، فهو مستغنٍ عن الأرض، ومستغنٍ عن الشمس، ومستغنٍ عن الكواكب، ومستغنٍ عن العباد كلهم، قال سبحانه: ﴿إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ﴾ [الزمر: ٧]،

فليس محتاجاً لنا سبحانه، وفي الحديث القدسي: «يَا عِبَادِي! لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ مِنْكُمْ لَمْ يَنْقُصْ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئاً»(١) فالخلْق هم المحتاجون إليه، ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩].

قال: (مُحِيطٌ بِكُلِّ شَيْءٍ وَفَوْقَهُ) يعني: اللَّه عز وجل محيطٌ بكل شيءٍ حتى بالعرش، فيريد بأن يبيِّن بأن العرش مخلوقٌ من مخلوقاته، وهو سبحانه غير محتاجٍ له، محيطٌ بكل شيءٍ؛ كما قال سبحانه: ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطاً﴾ [النساء: ١٢٦]، وقال: ﴿وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ﴾ [البروج: ٢٠]، وقال: ﴿وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ﴾ [المؤمنون: ١٧]، وقال: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد: ٣].

ومع إحاطته بهم ليس ممتزجاً بهم ولا مخالطاً لهم؛ وهو فوقهم سبحانه، قال عز وجل: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ [الأعلى: ١]، وقال: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر: ١٠]،

---

(١) رواه مسلمٌ، كتاب البِر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، رقم (٢٥٧٧)، من حديث أبي ذرٍّ رضي الله عنه.

وقال: ﴿يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ [آل عمران: ٥٥]، والنبي عليه الصلاة والسلام قال: «يَنزِلُ رَبُّنَا إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا كُلَّ لَيْلَةٍ حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الآخِرُ»(١)، فدل على أنَّه في العلو سبحانه وتعالى، وقال: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ﴾ [الحديد: ٣]، فسَّر النبي صلى الله عليه وسلم الظاهر بالذي ليس فوقه شيء(٢)، فاللَّه عز وجل فوق العرش وهو فوق جميع مخلوقاته محيطٌ بهم، مطَّلع عليهمٌ، لا تخفى عليهم من اللَّه خافيةٌ.

قال: **(وَقَدْ أَعْجَزَ عَنِ الإِحَاطَةِ خَلْقَهُ)** تقدير الكلام: أعجز خلقه عن الإحاطة به، فيعجز الخلق كلهم من أوَّلهم إلى آخرهم ولو اجتمعوا أن يحيطوا باللَّه، وهذا إعجازٌ لا يمكن أن يأتي به البشر، وهذا كما قال اللَّه عن نفسه: ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقال: ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [سبأ: ٢٣]، فهو كبيرٌ وعظيمٌ وعليٌّ في العلو سبحانه، وقال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، وقال: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ﴾ [الإخلاص:٤].

---

(١) سبق تخريجه (ص) عند قوله (والله عز وجل يَنزل الى السماء الدنيا).

(٢) رواه مسلمٌ، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب ما يقول عند النوم وأخذ المضجع، رقم (٢٧١٣)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

فهو سبحانه الكبير العظيم العالي لا يمكن لأحدٍ أن يحيط به، قال سبحانه: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾ [الأنعام: ١٠٣]، وقال: ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣]، فالخلق ضعفاء واللَّه هو القوي، وقال أيضاً: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٨]، فهو سبحانه متينٌ لا يحيط به الخلْق قوةً وجبروتاً وعظمة وعلوّاً وذاتاً وكبرياءً سبحانه وتعالى.

وَنَقُولُ: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً، وَكَلَّمَ مُوسَى تَكْلِيماً؛ إِيمَاناً وَتَصْدِيقاً وَتَسْلِيماً.

لا زال رحمه الله يذكر بعض صفاته سبحانه، ويَرُد ضمناً على من أنكر تلك الصفات، فمن صفاته سبحانه: أنه يحِب أوليائه، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٤]، وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [المائدة: ٤٢]، وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢]، وقال: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾ [التوبة: ١٠٨]، فهو سبحانه يحِب من اتصف بتلك الصفات.

وعندنا منزلةٌ أعلى من المحبة وهي منزلة الخلة، قال اللَّه عز وجل واصفاً خليله: ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً﴾ [النساء: ١٢٥]، والنبي عليه الصلاة والسلام اتخذه اللَّه سبحانه خليلاً له، كما قال عليه الصلاة والسلام: «فَإِنَّ اللَّهِ تَعَالَى قَدِ اتَّخَذَنِي خَلِيلاً، كَمَا اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً»(١).

(١) رواه مسلمٌ، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب النهي عن بناء المساجد على القبور واتخاذ الصور فيها، والنهي عن اتخاذ القبور مساجد، رقم (٥٣٢)، من حديث جندبٍ رضي الله عنه.

ومما يدل على أن الخلة درجة أعلى من المحبة: أن النبي عليه الصلاة والسلام أثبت لنفسه المحبة للبشر، ففي حديث عمرو بن العاص[(١)] رضي الله عنه: لمَّا سأل النبي صلى الله عليه وسلم: «أَيُّ النَّاسِ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: عَائِشَةُ، فَقُلْتُ: مِنَ الرِّجَالِ؟ فَقَالَ: أَبُوهَا»[(٢)]، فالنبي عليه الصلاة والسلام أحب عائشة، ونفى الخلة لأحدٍ من البشر، فقلبه بكامله للَّه، فقال: «وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذاً مِنْ أُمَّتِي خَلِيلاً لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلاً، وَلَكِنْ خُلَّةُ اللَّهُ»[(٣)].

والمصنِّف رحمه الله قال: (وَنَقُولُ: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً) ساق رحمه الله هذه العبارة؛ للرد على الجهمية الذين يقولون: إن

---

(١) هو: أبو عبد الله عمرو بن العاص بن وائل بن هاشم القرشي السهمي، أسلم سنة (٨هـ)، وتوفي رضي الله عنه سنة (٤٢هـ). الاستيعاب في معرفة الأصحاب (٣/ ١١٨٤).

(٢) رواه البخاريُّ، كتاب أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: «لَوْ كُنْتُ مُتَّخِذاً خَلِيلاً»، رقم (٣٦٦٢)، ومسلمٌ، كتاب فضائل الصحابة رضي الله عنهم، باب من فضائل أبي بكر الصديق رضي الله عنه، رقم (٢٣٨٤).

(٣) رواه البخاريُّ، كتاب الصلاة، باب الخوخة والممر في المسجد، رقم (٤٦٧)، ولفظه: «وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذاً مِنَ النَّاسِ خَلِيلاً لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلاً، وَلَكِنْ خُلَّةُ الإِسْلَامِ أَفْضَلُ».

اللَّه لا يحِب أوليائه ولم يتخذ ابراهيم خليلاً، فأهل السُّنة والجماعة يثبتون أن اللَّه يُحِب ويُحَب؛ يحِب من اتصف بصفاتٍ، مثل الآيات السابقة؛ ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [المائدة: ٤٢]، ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢]، وهكذا.

قال: (وَكَلَّمَ مُوسَى تَكْلِيماً) كما قال اللَّه: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيماً﴾ [النساء: ١٦٤]، ففيه إثبات صفة الكلام للَّه عز وجل على ما يليق بجلاله وعظمته، فهو سبحانه يتكلم بما شاء إذا شاء، كيف شاء، كما يليق بجلاله وعظمته، فهو كلَّم إبراهيم، وكلَّم موسى، وكلَّم نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وكلم أيضاً آدم، فكل هؤلاء كلمهم كفاحاً من غير واسطةٍ، فآدم قال سبحانه: ﴿يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٣٥]، وكلَّم أيضاً إبراهيم في آياتٍ كثيرةٍ[1]، وكلَّم أيضاً نبينا محمد صلى الله عليه وسلم في المعراج، وهكذا.

---

(١) مثل: قوله سبحانه: {يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ} [هود: ٧٦].

قال: (إِيمَاناً) يعني: نؤمن بذلك إيماناً راسخاً لا مرية فيه بأن اللَّه اتخذ ابراهيم خليلاً، وأنه سبحانه كلَّم موسى تكليماً، وبذلك نطق القرآن؛ فقال سبحانه عن موسى: ﴿وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ﴾ [الأعراف: ١٤٣].

(وَتَصْدِيقاً) الإيمان أعم من التصديق؛ فالإيمان لغة: التصديق[١]، أما شرعاً فهو: التصديق بالقلب والعمل باللسان والجوارح، هنا قال: (وَتَصْدِيقاً) يعني: إظهار ذلك باللسان، وضد ذلك: الكذب؛ أي: أن يظهر الشخص النفاق في مثل تلك المسألة؛ فيقول: إن اللَّه كلَّم موسى، واتخذ ابراهيم خليلاً، لكنه يَكذب في حقيقته، لكن المسلم يصدِّق بقلبه، ويُظهِر هذا التصديق بلسانه.

فقوله: (وَتَصْدِيقاً) هذا من عطف الخاص على العام؛ لأن الإيمان يشمل الجميع، فيشمل القلب واللسان والجوارح.

قال: (وَتَسْلِيماً) أي: من عقيدتهم التسليم لذلك، والإيمان به، والإذعان وعدم الشك بذلك الأمر، فلمَّا قال اللَّه: ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً﴾ [النساء: ١٢٥]، نسلِّم ونؤمن بأن اللَّه اتخذ ابراهيم خليلاً، ولمَّا قال: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيماً﴾ [النساء: ١٦٤]؛ نسلِّم بذلك ونذعن

(١) الصحاح (٥/ ٢٠٧١).

ونقول: الذي تكلم هو اللَّه، ولا نقول كما تقول الأشاعرة والمعتزلة والجهمية بأن الذي تكلَّم هو الشجرة.

فاللَّه سبحانه هو الذي نادى موسى وناجاه، وخاطبه وأمره سبحانه بما شاء، كما ذكر ذلك في عدة آياتٍ في كتابه فقال: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ [طه: ٤٦]، ﴿اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى * فَقُولَا لَهُ قَوْلاً لَيِّناً لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ [طه: ٤٣-٤٤]، وغير ذلك من الآيات.

فتبيَّن مما سبق أن أهل السُّنة والجماعة يثبِتون للَّه ما أثبته سبحانه لنفسه، وما أثبته له رسوله صلى الله عليه وسلم من غير تحريفٍ ولا تعطيلٍ، ومن غير تكييفٍ ولا تمثيلٍ، ومن ذلك: إثبات أنَّ اللَّه اتخذ ابراهيم خليلاً، وكلَّم موسى تكليماً.

وَنُؤْمِنُ بِالمَلَائِكَةِ، وَالنَّبِيِّينَ، وَالكُتُبِ المُنْزَلَةِ عَلَى المُرْسَلِينَ، وَنَشْهَدُ أَنَّهُمْ كَانُوا عَلَى الحَقِّ المُبِينِ.

قال رحمه اللَّه: (وَنُؤْمِنُ بِالمَلَائِكَةِ) الملائكة خُلقوا من نورٍ، وهم خلْقٌ عظيمٌ، خلقهم اللَّه عز وجل لمهامٍ عظيمةٍ جليلةٍ، وهم يسبِّحون اللَّه ليلاً ونهاراً، وعددهم كثيرٌ، قال سبحانه: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر: ٣١]، وفي حديث المعراج أنَّه يدخل منهم كل يوم في البيت المعمور سبعون ألف ملَكٍ لا يعودون إليه مرة أخرى[١].

ومَن ذكر اللَّه عز وجل منهم في القران خمسة: هاروت وماروت؛ قال سبحانه: ﴿وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ﴾ [البقرة: ١٠٢]، وجبريل وميكائيل؛ قال سبحانه: ﴿مَنْ كَانَ عَدُوّاً لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٩٨]،

---

(١) رواه البخاريُّ، كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة، رقم (٣٢٠٧)، ومسلمٌ، كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله صلى الله عليه وسلم إلى السماوات، وفرض الصلوات، رقم (١٦٤)، من حديث مالك بن صعصعة رضي الله عنه، وفيه: «...فَقُلْتُ: يَا جِبْرِيلُ مَا هَذَا؟ قَالَ: هَذَا الْبَيْتُ الْمَعْمُورُ يَدْخُلُهُ كُلَّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ، إِذَا خَرَجُوا مِنْهُ لَمْ يَعُودُوا فِيهِ آخِرُ مَا عَلَيْهِمْ...».

وملك الموت؛ قال سبحانه: ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ﴾ [السجدة: ١١][1].

وجاء في السُّنة منهم: إسرافيل، ومنهم منكر ونكير، ومنهم من يسوق القطر، ومنهم ملك الجبال، ومنهم موكَّل بالنطفة، إلى غير ذلك مما أُعطوا من الأعمال.

وأعظمهم وأشرفهم جبريل عليه السلام، وهو السفير بين اللَّه عز وجل وبين رسله، ولا يتناكحون ولا يتناسبون؛ بل هم عباد مكرَمون، لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون.

ووصفهم اللَّه بأنهم سفرة وكرام، وكذا وصفهم بالبِر، كما قال عز وجل: ﴿بِأَيْدِي سَفَرَةٍ *كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾ [عبس: ١٥-١٦]، وقال: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَاماً كَاتِبِينَ﴾ [الانفطار: ١٠-١١].

ومنهم موكَّلٌ بالرياح، ومنهم موكَّلٌ بنزع الروح، ومنهم من يقاتل مع المؤمنين، ومنهم من يدافع عنهم، وأفضل الملائكة هم من قاتلوا في

(١) يُحذف ملك الموت ويذكر بلاً عنه مالك؛ خازن النار، قال تعالى: {وَنَادَوْا يَامَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ} [الزخرف: ٧٧]، وسيذكر الشيخ بآخر الكتاب أن ملك الموت هو وصف عمله لا اسمه. عند قوله: (أما ملَك الموت فهو وصفٌ).

غزوة بدرٍ[١] مع المسلمين، كما قال جبريل عليه السلام: «مَنْ تَعُدُّونَ خَيْرَ المَلَائِكَةِ فِيكُمْ؟ قَالَ: مَنْ قَاتَلَ فِي بَدْرٍ»[٢]، وكذلك أفضل الصحابة من قاتل في بدرٍ.

ونؤمن بهم على الإجمال بأنهم ملائكة، ونؤمن بتفصيل من جاءت به النصوص بتفصيله، مثل: جبريل، وملك الجبال، وملك الموت، وهكذا.

فيجب على المسلم أن يحبَّهم؛ لعدة أسباب:

---

(١) وهي: الغزوة المعروفة التي وقعت في السابع عشر من رمضان عام (٢هـ)، بين المسلمين بقيادة رسول الله صلى الله عليه وسلم وقريش بقيادة عمرو بن هشام، وسببها: أن المسلمين حاولوا اعتراض قافلة لقريش يقودها أبو سفيان، لكن أبا سفيان غيَّر وجهتها واستطاع الفرار بها، ثم استنفر قريشاً يطلب منهم العون، فاستجابت قريش وخرجت بجيش قوامه ألف مقاتل، وكان عدد المسلمين ثلاث مئة وبضعة عشر مقاتلاً، فالتقا الفريقان في بدرٍ وتقاتلا، وكان النصر بفضل الله للمؤمنين. السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٦٠٦).

وبدر: موضع جنوب غرب الدينة المنورة، يبعد عنها ١٥٠كم، وفيه وقعت غزوة بدر.

(٢) رواه البخاريُّ، كتاب المغازي، باب شهود الملائكة بدراً، رقم (٣٩٩٢)، من حديث رفاعة بن رافع رضي الله عنه، ولفظه: «جَاءَ جِبْرِيلُ إِلَى النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم، فَقَالَ: مَا تَعُدُّونَ أَهْلَ بَدْرٍ فِيكُمْ؟ قَالَ: مِنْ أَفْضَلِ المُسْلِمِينَ - أَوْ كَلِمَةً نَحْوَهَا -، قَالَ: وَكَذَلِكَ مَنْ شَهِدَ بَدْراً مِنَ المَلَائِكَةِ».

السبب الأوَّل: لأنهم يَدعون للمؤمنين؛ قال اللَّه: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ [غافر: ٧].

السبب الثاني: لأنهم من عباد اللَّه الكرماء.

السبب الثالث: لأنهم ينصرون المؤمنين، فهم قاتلوا مع المؤمنين.

السبب الرابع: لأنهم يحفظونهم من المكاره بأمر اللَّه، قال سبحانه: ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ [الرعد: ١١].

السبب الخامس: لأنهم يمتثلون أوامر اللَّه سبحانه، ومنهم من هو مقرَّبٌ من الرحمن، قال سبحانه: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ [غافر: ٧].

ومن ثمرات حبهم: أن محبة الصالحين تُرجى، لأنَّ اللَّه سبحانه يحبُّهم، فهم يحبُّون من أحبه اللَّه، ويبغضون من أبغضه اللَّه؛ في صحيح

مسلم[1]: «إِنَّ اللَّهَ إِذَا أَحَبَّ عَبْداً دَعَا جِبْرِيلَ فَقَالَ: إِنِّي أُحِبُّ فُلَاناً فَأَحِبَّهُ قَالَ: فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ، ثُمَّ يُنَادِي فِي السَّمَاءِ فَيَقُولُ: إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فُلَاناً فَأَحِبُّوهُ فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ قَالَ: ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي الْأَرْضِ، وَإِذَا أَبْغَضَ عَبْداً دَعَا جِبْرِيلَ فَيَقُولُ: إِنِّي أُبْغِضُ فُلَاناً فَأَبْغِضْهُ قَالَ: فَيُبْغِضُهُ جِبْرِيلُ، ثُمَّ يُنَادِي فِي أَهْلِ السَّمَاءِ إِنَّ اللَّهَ يُبْغِضُ فُلَاناً فَأَبْغِضُوهُ قَالَ: فَيُبْغِضُونَهُ ثُمَّ تُوضَعُ لَهُ الْبَغْضَاءُ فِي الْأَرْضِ»، فهم يحبون المؤمنين، ويبغضون من أبغضه اللَّه سبحانه وتعالى.

فالمؤمن يؤمن بهم، قال سبحانه: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، وقال: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ﴾ [البقرة: ١٧٧]، ولا يكون العبد مؤمناً إلا بالإيمان بهم، وفي حديث عمر رضي الله عنه الإيمان بالملائكة

---

(١) كتاب البِر والصلة والآداب، باب إذا أحبّ الله عبداً حبَّبه لعباده، رقم (٢٦٣٧)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

هو الركن الثاني من أركان الايمان؛ قال: «فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِيمَانِ، قَالَ: أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ، وَمَلَائِكَتِهِ...» الحديث[١].

ثم قال: (وَالنَّبِيِّينَ) كذلك من أركان الإيمان التي لا يصح إيمان المرء إلا بها: الإيمان بالرسل، كما في الحديث: «فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِيمَانِ، قَالَ: أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ».

فيجب على العبد أن يؤمن بالرسل إجمالاً في الإجمال وتفصيلاً في التفصيل، فنؤمن إجمالاً بالذين ذُكروا في القرآن والذين لم يُذكروا، ونؤمن تفصيلاً بمن سماهم اللَّه في القرآن وهم خمسة وعشرون، قال سبحانه: ﴿وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلاً لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾ [النساء: ١٦٤]، فهناك رسلٌ أخبرنا اللَّه عنهم، ورسلٌ لم يخبرنا اللَّه عز وجل عنهم.

وهم – أي: الرسل – خير البشر، فهم في منزلةٍ فوق منزلة الصديقين، وخير هؤلاء الرسل: أولوا العزم، وأفضل أولوا العزم هو: نبينا محمد صلى الله عليه وسلم؛ فهو خير الأنبياء وخاتمهم، فنؤمن بهم، وبما جاؤوا به من التشريع.

---

(١) رواه مسلمٌ، كتاب الإيمان، باب الإيمان ما هو وبيان خصاله، رقم (٨).

ودعوتهم واحدةٌ؛ قال سبحانه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، فدعوتهم واحدةٌ لا تختلف، وإنما تختلف في فروع الشرائع، قال سبحانه: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً﴾ [المائدة: ٤٨].

وهم أشد الناس بلاءً، فتعرضوا من المحن والبلايا والابتلاءات ما اللَّه به عليمٌ؛ منهم من قُتل؛ كما قال سبحانه: ﴿وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ [آل عمران: ١١٢]، ومنهم من سُجن كيوسف عليه السلام، ومنهم من أوذي كنبينا محمدٍ صلى الله عليه وسلم، قال سبحانه: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠].

فتعرضوا للأذى والسخرية والاستهزاء والسِّحر، واتُّهموا بالسِّحر والكهانة والكذب وبالإفك المبين ونحو ذلك، قال اللَّه: ﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ [الذاريات: ٥٢]، ﴿أَأُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ﴾ [القمر: ٢٥]، وغير ذلك من الافتراءات، قال سبحانه: ﴿يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [يس: ٣٠]، وقال

سبحانه: ﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الأنعام: ١٠].

ومن رحمة اللَّه بعثته للأنبياء لخلقه؛ إذ لا يَعرف الناس الحق إلا من طريق الرسل والأنبياء، لهذا من الأصول التي يجب على الانسان معرفتها هي: معرفة النبي عليه الصلاة والسلام؛ فهو الواسطة بين اللَّه وبين خلقه في تبليغ أمر اللَّه سبحانه، لذلك واجبٌ على المسلم إيمانه بالأنبياء وتوقيره لهم، وإجلالهم ومحبتهم، واقتفاء سيرهم ونهجهم والسلوك السبيل الذي نهجوه لا سيما في أعظم أمرٍ بُعثوا به وهو توحيد اللَّه سبحانه.

ثم قال: (وَالكُتُبِ المُنْزَلَةِ عَلَى المُرْسَلِينَ) هنا قال: **(المُرْسَلِينَ)** لأن بعض أهل العِلم[1] يرى أن الرسول هو من أُنزل عليه الكتاب، أما النبيُّ فهو الذي لم يُنزل عليه كتابٌ؛ وإنما يدعو بكتاب من سبقه.

والكتب منها ما ذكرها اللَّه عز وجل لنا، ومنها ما لم يذكرها لنا، فمن الكتب السابقة: التوراة والإنجيل، والزبور وصحف إبراهيم وموسى، وأُنزل أعظم كتابٍ – وهو القرآن - على نبينا محمد عليه الصلاة والسلام

(١) كشيخ الإسلام رحمه الله. النبوات (٢/ ٧١٤).

لهذه الأمَّة، كما قال سبحانه: ﴿وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨]، فهذا القرآن مهيمنٌ على الكتب السابقة وناسخٌ لها، وهو نورٌ وهدىً، ومباركٌ وكريمٌ، ومبينٌ ومحكَمٌ، كما وصفه اللَّه عز وجل.

قال: (وَنَشْهَدُ أَنَّهُمْ كَانُوا عَلَى الحَقِّ المُبِينِ) يعني: نَشهد أن اللَّه أرسلهم بالحق والدعوة إليه، والتحذير من الشر أو الوقوع فيه، قال سبحانه: ﴿فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الزخرف: ٤٣]، وقال: ﴿إِنَّكَ لَعَلَى هُدًى مُسْتَقِيمٍ﴾ [الحج: ٦٧]، وقال: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف: ١٠٨]، وقال: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ [الفاتحة: ٦-٧]، وقال: ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقاً﴾ [النساء: ٦٩].

فنَشهد بأنهم على الحق، وما دعوا إليه هو الحق، وما حذَّروا منه هو الباطل، فيجب على الشخص أن يَحذر من الشرك وما دونه من الذنوب

والمعاصي، وواجب عليه أن يتلو كتاب اللَّه سبحانه، فهو الذي أنزله على رسوله، فهذا من الإيمان به، ومن تبجيل كتاب اللَّه ومن تعظيمه.

والنبي عليه الصلاة والسلام شكا إلى ربه هجران الناس له؛ قال اللَّه: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُوراً﴾ [الفرقان: ٣٠]، فمن عدم هجرانه: تلاوته، وكذا التداوي والتشافي به، فإذا أصاب المرء مرضٌ أو نحو ذلك، فعليه أن يفزع إلى كتاب اللَّه ويرقي نفسه به؛ فإن هذا من الإيمان به وتوقيره والاستشفاء به.

وكذا يجِب العمل بما جاء به، فكل وصفٍ حميدٍ في كتاب اللَّه نتبعه، وكل وصفٍ ذميمٍ في كتاب اللَّه نَحذره، واللَّه سبحانه يبارِك، وكلامه مبارَكٌ، ومن قرب من كلامه سبحانه نالته البرَكة، كما قال عز وجل: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ﴾ [ص:٢٩]، ومن دنا من البركة نالته بإذن اللَّه سبحانه.

فيجب على الشخص أن يكثر من تلاوة كتاب اللَّه، وأن يَعمل به، وأن يَجعل أخلاقه بأخلاق القرآن.

وَنُسَمِّي أَهْلَ قِبْلَتِنَا مُسْلِمِينَ مُؤْمِنِينَ، مَا دَامُوا بِمَا جَاءَ بِهِ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم مُعْتَرِفِينَ، وَلَهُ بِكُلِّ مَا قَالَ وَأَخْبَرَ مُصَدِّقِينَ.

قال رحمه اللَّه: (وَنُسَمِّي أَهْلَ قِبْلَتِنَا مُسْلِمِينَ مُؤْمِنِينَ، مَا دَامُوا بِمَا جَاءَ بِهِ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم مُعْتَرِفِينَ) يعني: من أَظهر لنا الإسلام ولم يُظهِر لنا نواقض الإسلام؛ فلم يَظهر منه شرك، ويفعل ما أمر اللَّه عز وجل به؛ فنَحكم عليه بالإسلام، حتى ولو كان في باطن قلبه الكُفر؛ ونَكِل سريرته إلى اللَّه عز وجل.

وماذا نسميه: مؤمنٌ أو مسلمٌ؟ نقول: هذان الاسمان إذا اجتمعا افترقا وإذا افترقا اجتمعا؛ يعني: يصح أن نقول: مسلم، ويصح أن نقول: مؤمن؛ لذلك قوله: (مُسْلِمِينَ مُؤْمِنِينَ) يعني: صح أن نسميهم مسلمين أو مؤمنين، فلا نقول: هذا مسلم وهذا مؤمن، وإنما نفرِّق هذا الوصف فنقول: من صلَّى صلاتنا فهو مسلم، أو نقول: من صلَّى صلاتنا فهو مؤمن.

فمن أظهر الاسلام ولم يظهر ضده؛ فنتعامل معه بالإسلام؛ قال عليه الصلاة والسلام في صحيح البخاري[1]: «مَنْ شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ،

---

(١) كتاب الصلاة، باب فضل استقبال القبلة، رقم (٣٩٣)، من حديث أنسٍ رضي الله عنه.

وَاسْتَقْبَلَ قِبْلَتَنَا، وَصَلَّى صَلاَتَنَا، وَأَكَلَ ذَبِيحَتَنَا، فَهُوَ الْمُسْلِمُ، لَهُ مَا لِلْمُسْلِمِ، وَعَلَيْهِ مَا عَلَى الْمُسْلِمِ»، لكن من أظهر ضد ذلك كأن يصلِّي ويطوف على القبر؛ نقول: ليس هذا بمسلمٍ، أو يصلِّي ويؤذِّن لكنه يذبح للقبر؛ نقول: ليس بمسلمٍ.

لذلك قال المصنِّف: (**مَا دَامُوا بِمَا جَاءَ بِهِ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم مُعْتَرِفِينَ**) بألسنتهم، (**وَلَهُ بِكُلِّ مَا قَالَ وَأَخْبَرَ مُصَدِّقِينَ**) يعني: الأصل القلب، لكن هذا أمره إلى اللَّه، فإذا اعترفوا لنا باللسان وصدقوا بالجوارح؛ فهذا يكفي منهم.

وقول المصنِّف: (**وَلَهُ بِكُلِّ مَا قَالَ وَأَخْبَرَ مُصَدِّقِينَ**) نقول: هذا لسنا ملزمين به؛ وإنما يكفينا الشرط الأوَّل الذي ذكره فقال: (**مَا دَامُوا بِمَا جَاءَ بِهِ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم مُعْتَرِفِينَ**) فإذا اعترف بما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم بلسانه وصدقت ذلك جوارحه؛ فيكفيه.

فإذا قيل: لماذا وضع المصنِّف رحمه الله الشرط الثاني؟

نقول: ليبيِّن أن الرجل لا يكون مسلماً حق الإسلام إلا إذا كان صادقاً بقلبه، معترفاً بلسانه، عاملاً بجوارحه.

وَلَا نَخُوضُ فِي اللَّهِ.

وَلَا نُمَارِي فِي الدِّينِ.

قال رحمه اللَّه: (وَلَا نَخُوضُ فِي اللَّهِ) يعني: لا نتكلم في صفات اللَّه ولا في أفعاله، بما لم تأت به النصوص، فلا نَصف ربنا عز وجل بصفات لم تأت بها النصوص، وكذا لا نعطل شيئاً من صفات اللَّه مما جاءت به النصوص، وكذا لا نأوِّل ولا نمثِّل شيئاً من صفاته بما جاء به الكِتاب والسُّنة.

لذلك قال: (وَلَا نَخُوضُ فِي اللَّهِ) من الخوض وهو الجدال، فلا يقولنَّ شخص: اللَّه له جسمٌ، أو له ساعدٌ، أو له أذنٌ، وكذا لا يقل: اللَّه ما يَنزل إلى السماء الدنيا؛ لأنه ثابتٌ نزوله، أو: اللَّه لا يسمع؛ لأنه ثابت السمع، وهكذا.

قال: (وَلَا نُمَارِي فِي الدِّينِ) يعني: لا نجادل ونلقي شبهاتٍ في دين اللَّه، فقد تَمرض قلوبنا، وقد نشبِّه على غيرنا.

فإذاً ما هو الواجب؟ الواجب الرضا والتسليم والاتباع، كما قال سبحانه: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران: ٧]، فلا يخاض في دين اللَّه في شيءٍ، لا بطعنٍ فيه ولا بسخريةٍ، ولا

باستهزاءٍ ولا بجمع شبهاتٍ فيه، ولا بتأويل صفاتٍ فيه، وهذا هو معتقد أهل السُّنة والجماعة.

وَلَا نُجَادِلُ فِي القُرْآنِ، وَنَعْلَمُ أَنَّهُ كَلَامُ رَبِّ العَالَمِينَ، نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ، فَعَلَّمَهُ سَيِّدَ المُرْسَلِينَ مُحَمَّداً صلى الله عليه وسلم.

وَكَلَامُ اللَّهِ تَعَالَى لَا يُسَاوِيهِ شَيْءٌ مِنْ كَلَامِ المَخْلُوقِينَ، وَلَا نَقُولُ بِخَلْقِهِ.

سبق الكلام أن القرآن هو كلام اللَّه عز وجل عند قول المصنِّف رحمه اللَّه: (**وَإِنَّ القُرْآنَ كَلَامُ اللَّهِ تَعَالَى، مِنْهُ بَدَأَ بِلَا كَيْفِيَّةٍ قَوْلاً**)، وأعاد المصنِّف رحمه الله شيئاً من ذلك هنا؛ لأنه في هذا الموطن يتكلَّم عن كيفية التعامل مع الجماعة، فسبق أنه قال: (**وَنُسَمِّي أَهْلَ قِبْلَتِنَا مُسْلِمِينَ مُؤْمِنِينَ**) ثم يذكر هنا إذا وُجد من يجادل مع الجماعة التي نحن فيها في القرآن، ما هو موقفنا؟ وسيأتي[١] حُكم التكفير بالذنْب في كيفية التعامل مع الآخرين.

قال: (**وَلَا نُجَادِلُ فِي القُرْآنِ**) يعني: ولا نخوض فيه في أمرين:

الأمر الأوَّل: في كونه مخلوقاً أو غير مخلوقٍ، وإنما نؤمن ونسلِّم ونصدِّق ونقرُّ بأنه كلام اللَّه عز وجل منزَّلٌ وأنَّه غير مخلوق، وأنَّ اللَّه عز وجل تكلم به حقيقةً بصوتٍ وحرفٍ مسموعين، فهو سبحانه تكلم

---

(١) (ص) عند قوله (**وَلَا نُكَفِّرُ أَحَداً**).

بصوتٍ وحرفٍ، فقال جل وعلا: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١-٤]، وكذا قال سبحانه: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ * فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ * إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ [الكوثر: ١-٣].

ونؤمن بأنَّ كلامه سبحانه ليس ككلام المخلوقين، وإنما لا يماثله شيءٌ؛ كما قال عز وجل: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، فنحن لا نجادل في القرآن العظيم، ولا نجادل في أنَّ القران هو كلام اللَّه؛ وإنما نشهد بأنه كلام اللَّه عز وجل.

والأمر الثاني: لا نجادل في القرآن من ناحية أن لا نقع في الخلاف في القراءات فيها، فلا نبغض من قرأ القراءة الثابتة ولا نبدِّعه ولا نفسِّقه؛ بل نقول: إنَّ عمله صواب، كما في حديث ابن مسعود رضي الله عنه: «سَمِعْتُ رَجُلاً قَرَأَ، وَسَمِعْتُ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم يَقْرَأُ خِلَافَهَا، فَجِئْتُ بِهِ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم فَأَخْبَرْتُهُ، فَعَرَفْتُ فِي وَجْهِهِ الْكَرَاهِيَةَ وَقَالَ: كِلَاكُمَا مُحْسِنٌ، وَلَا تَخْتَلِفُوا، فَإِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمُ اخْتَلَفُوا فَهَلَكُوا»(١).

---

(١) رواه البخاريُّ، كتاب أحاديث الأنبياء، باب حديث الغار، رقم (٣٤٧٦).

ثم قال: (وَنَعْلَمُ أَنَّهُ كَلَامُ رَبِّ العَالَمِينَ) أي: نَعتقد بقلوبنا بأن القران هو كلام اللَّه، كما قال اللَّه: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٦]، وقال سبحانه: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ﴾ [الفتح: ١٥].

ومن قال بأن القران مخلوقٌ ليس من كلام اللَّه؛ هذا بناءً على معتقدهم الفاسد بأن اللَّه سبحانه وتعالى لا يتكلَّم، فلو قالوا بأنَّ القران هو كلام اللَّه لناقضوا ما اعتقدوه بأنه لا يتكلم، فهم يقولون: اللَّه عز وجل لا يتكلم، وحتى القرآن ما تكلَّم به، بل هو مخلوقٌ، فهو مكتوب هكذا، وقرأه جبريل وأتى به للنبي عيه الصلاة والسلام.

فإذا قيل: هل كلام اللَّه جميعه هو القرآن؟

نقول: لا؛ إنما القران من كلام اللَّه؛ لأن اللَّه عز وجل يقول عن نفسه: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩]، وقال: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢].

فتبين أنَّ سبب إفراد أهل السُّنة والجماعة بإثبات أن القران هو كلام اللَّه عن إثبات صفة الكلام للَّه؛ لأن هذه مرتبطةٌ بتلك.

قال: (نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ) كيف؟ سمع جبريل عليه السلام من اللَّه عز وجل هذا القرآن، ثم نزل به على النبي عليه الصلاة والسلام.

وقوله: (الرُّوحُ الأَمِينُ) فيها إيماءٌ بأن جبريل عليه السلام عبدٌ مأمورٌ بما أمره اللَّه عز وجل به، فهو روحٌ من الأرواح، فاللَّه يتكلم ويأمره سبحانه بأن يَذهب إلى النبي عليه الصلاة والسلام بهذا القرآن.

وقوله: (الأَمِينُ) هذا وصفٌ عظيمٌ وتشريفٌ لجبريل عليه السلام، لذلك قال اللَّه عز وجل في وصفه: ﴿مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ [التكوير: ٢١]، فهو يطيع اللَّه، وأيضاً أمينٌ فيما بلغه اللَّه، وهو خير الملائكة.

قال: (فَعَلَّمَهُ سَيِّدَ الْمُرْسَلِينَ مُحَمَّداً صلى الله عليه وسلم) كما جاء أنَّ جبريل عليه السلام كان يُدارِس النبيَّ صلى الله عليه وسلم القرآن في كلِّ عامٍ مرَّة(١)، وفي آخر رمضان من حياته صلى الله عليه وسلم دارسه

---

(١) كما في حديث ابن عباسٍ رضي الله عنهما، ولفظه: «كَانَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم أَجْوَدَ النَّاسِ بِالْخَيْرِ، وَكَانَ أَجْوَدَ مَا يَكُونُ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ؛ إِنَّ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ يَلْقَاهُ فِي كُلِّ سَنَةٍ فِي رَمَضَانَ حَتَّى يَنْسَلِخَ، فَيَعْرِضُ عَلَيْهِ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم الْقُرْآنَ، فَإِذَا لَقِيَهُ جِبْرِيلُ؛ كَانَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم أَجْوَدَ بِالْخَيْرِ مِنَ الرِّيحِ الْمُرْسَلَةِ» رواه البخاريُّ، كتاب بدْء الوحي، كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم؟، رقم

جبريل عليه السلام مرَّتين اثنتين[1]، لذلك اللَّه يقول: ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى * ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى﴾ [النجم: ٥-٦]، وقال سبحانه: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى * إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى﴾ [الأعلى: ٦-٧]، وقال: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾ [القيامة: ١٨]، فإذا علَّم جبريل يَحفظ النبي عليه الصلاة والسلام.

---

(٦)، ومسلمٌ، كتاب الفضائل، باب كان النبيُّ صلى الله عليه وسلم أجود الناس بالخير من الريح المرسلة، رقم (٢٣٠٨).

(١) كما في حديث عائشة عن فاطمة رضي الله عنهما، ولفظه: «فَإِنَّهُ أَخْبَرَنِي أَنَّ جِبْرِيلَ كَانَ يُعَارِضُهُ بِالقُرْآنِ كُلَّ سَنَةٍ مَرَّةً، وَإِنَّهُ قَدْ عَارَضَنِي بِهِ العَامَ مَرَّتَيْنِ، وَلَا أَرَى الأَجَلَ إِلَّا قَدِ اقْتَرَبَ، فَاتَّقِي اللَّهَ وَاصْبِرِي، فَإِنِّي نِعْمَ السَّلَفُ أَنَا لَكِ» رواه البخاريُّ، كتاب الاستئذان، باب من ناجى بيْن يدي الناس، ومن لم يخبر بسر صاحبه، فإذا مات أخبر به، رقم (٦٢٨٥).

وَكَلَامُ اللَّهِ تَعَالَى لَا يُسَاوِيهِ شَيْءٌ مِنْ كَلَامِ المَخْلُوقِينَ، وَلَا نَقُولُ بِخَلْقِهِ.

وَكَلَامُ اللَّهِ تَعَالَى لَا يُسَاوِيهِ شَيْءٌ مِنْ كَلَامِ المَخْلُوقِينَ، وَلَا نَقُولُ بِخَلْقِهِ.

وَلَا نُخَالِفُ جَمَاعَةَ المُسْلِمِينَ.

قال رحمه اللَّه: (وَكَلَامُ اللَّهِ تَعَالَى لَا يُسَاوِيهِ شَيْءٌ مِنْ كَلَامِ المَخْلُوقِينَ) يعني: لا يماثل كلام المخلوقين ولا يساويهم ولا يضاهيهم، فإذا قيل: ما الدليل على أنَّ كلام اللَّه ليس ككلام المخلوقين؟ نقول: قوله عز وجل: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، وقوله: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيّاً﴾ [مريم: ٦٥]، وقوله: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ﴾ [الإخلاص:٤].

ثم قال: (وَلَا نَقُولُ بِخَلْقِهِ) فلمَّا عَلِمنا أنه منزَّلٌ لا يمكن أن نقول بخلْقه، والذي قال بخلقه هم المعتزلة والجهمية، فعطَّلوا صفات اللَّه عز وجل.

ثم قال: (وَلَا نُخَالِفُ جَمَاعَةَ المُسْلِمِينَ) هذا الكلام يدل على إجماع أهل السُّنة والجماعة على أنَّ القران كلام اللَّه، فمن خالف ذلك وقال بأنه مخلوقٌ؛ فقد خالف جماعة المسلمين.

فقوله: (**وَلَا نُخَالِفُ جَمَاعَةَ المُسْلِمِينَ**) يعني: لا نخالف جماعة أهل السُّنة والجماعة في هذا المعتقَد العظيم الذي هو أصلٌ من أصولهم، وفيه تعظيم اللَّه عز وجل بإثبات صفاتٍ له أثبتها لنفسه عز وجل.

وَلَا نُكَفِّرُ أَحَداً مِنْ أَهْلِ القِبْلَةِ بِذَنْبٍ مَا لَمْ يَسْتَحِلَّهُ.

وَلَا نَقُولُ: لَا يَضُرُّ مَعَ الإِيمَانِ ذَنْبٌ لِمَنْ عَمِلَهُ.

يذكر المصنِّف رحمه الله هنا أصلين اثنين عظيمين من أصول أهل السُّنة والجماعة:

الأصل الأوَّل: مسألة التكفير؛ متى يَكفَّر من عمل ذنباً؟

نقول: الناس في ذلك على ثلاثة طوائف:

الطائفة الأُولى: قالوا: إن كل من عمل كبيرةً فإنه يَكفر ويَخرج من الدين، وبهذا قال الخوارج[1]، ووافقهم على ذلك المعتزلة، أما في الآخرة فالمعتزلة قالوا: هو في منزلةٍ بين المنزلتين؛ لا كافرٌ ولا مسلمٌ.

والطائفة الثانية: قالوا: لا يضر مع الإيمان ذنبٌ؛ يعني: ما دمتَ أنك مؤمنٌ بقلبك ومصدقٌ به، فكل ذنبٍ تَعمله لا يضرك، فجعلوا إيمان

---

(١) الخوارج هم: أوَّل فرقة خرجت في الإسلام، خرجت على علي بن أبي طالب رضي اللَّه عنه، وكفَّروه وبعض الصحابة، فقاتلهم رضي اللَّه عنه، من معتقداتهم: تكفير صاحب الكبيرة، وقد جاءت أحاديث بمروقهم من الإسلام. المِلَل والنِّحَل (١/ ١١٤)، البداية والنهاية (٧/ ٢٧٧).

إبليس وأبي بكر سواء، وهذا مذهب المرجئة[1]، وعليه: إذا قلتَ لشخص: قم صلِّ، فيقول: الإيمان في القلب؛ فهذا مذهب المرجئة، وكذا لو قلتَ لشخصٍ: لماذا تحلق لحيتك؟! هذا حرامٌ، فيقول: الإيمان في القلب؛ فهذا خطأٌ؛ فهو مذهب المرجئة.

والطائفة الثالثة: وسطٌ بين الطائفتين، وهم أهل السُّنَّة والجماعة، فقالوا: لا نكفِّر بالكبائر، ونقول: إن الإيمان يتجزأ، فيضر مع الإيمان ذنبٌ، قال عليه الصلاة والسلام: «لَا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ»[2]، قال ابن القيم رحمه اللَّه: «فيبقى على ذلك الوصف حتى

---

(١) المرجئة هم: فرقة يقولون: بإخراج العمل عن مسمى الإيمان، وأشهر أقوالهم أنَّ الإيمان هو التصديق فقط دون العمل، ومنهم مَن يقول: إنَّه القول باللسان وحده، ومنهم مَن يقول: هو المعرفة بالقلب فقط، ومنهم مَن يقول: إنه يكون بالقلب واللسان فقط، وهم مرجئة الفقهاء، ومن معتقداتهم: أنَّه لا تضرُّ مع الإيمان معصية، كما لا تنفع مع الكفر طاعة؛ لكون الإيمان عندهم لا يزيد ولا ينقص. المِلَل والنِّحَل (١/ ١٣٩-١٤٦)، الإيمان لشيخ الإسلام (ص ٣٠٣، ٣٠٨)، مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٧/ ١٤١، ٢٠٤)، فرق معاصرة (٣/ ١٠٨٥-١٠٩٠).

(٢) رواه البخاريُّ، كتاب المظالم، باب النهبى بغير إذن صاحبه، رقم (٢٤٧٥)، ومسلمٌ، كتاب الإيمان، باب بيان نقصان الإيمان بالمعاصي ونفيه عن المتلبس بالمعصية على إرادة نفي كماله، رقم (٥٧)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

يتوب»[١]، وقيل: في حال الزنا يُرفع عنه الإيمان، وإذا ترك ذلك الذنب عاد إليه الإيمان، ونقول: هو مؤمن، كما قال شيخ الإسلام رحمه الله في الواسطية[٢]: «هو مؤمنٌ بإيمانه، فاسقٌ بكبيرته»؛ مؤمنٌ لِما معه من الإيمان، لكن نفسِّقه بتلك الكبيرة التي ارتكبها.

وهذا الكلام عن الكبائر، أما الأمور المكفّرة فأهل السُّنة يكفِّرون على ضوابط الشرع، فيكفِّرون بالوصف أو الفعل، ولا يكفِّرون المعيَّن، وإلى ذلك ذهب أئمة السلف؛ بل السلف عامَّة، ومنهم: ابن خزيمة[٣]،

(١) الوابل الصيب (ص٣٠).

(٢) ضمن متون طالب العلم المستوى الثالث، بتحقيقنا (ص١٦٠).

(٣) لم أقف.

وابن خزيمة هو: أبو بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة بن صالح بن بكر السلمي الشافعي، ولد سنة (٢٢٣هـ)، وتوفي رحمه الله سنة (٣١١هـ). طبقات الشافعية الكبرى (٣/ ١٠٩)، سير أعلام النبلاء (١٤/ ٣٦٥).

وشيخ الإسلام[١]، وابن القيم[٢]، والشيخ محمد بن عبد الوهاب[٣] رحمه اللَّه[٤]، والشيخ محمد بن إبراهيم[٥] رحمه اللَّه، وغيرهم من أعلام الإسلام، فنقول: من ترك الصلاة فهو كافر، ولا نقول له: أنت كافر؛ لأنك تركتَ الصلاة، ونقول لمن استهزأ بالدين: من استهزأ بالدين فقد كفر، ولا نقول: أنت كفرتَ؛ لأنك استهزأتَ بالدين.

فإذا قيل: متى نكفِّره بعينه؟ نقول: هذا أمره إلى الوالي أو نائبه كالقاضي، فيأتي في المحكمة ويقرِّره القاضي؛ أنت قلتَ كذا وكذا؟ ويبيِّن له الصواب، فإن أصر على ذلك يُستتاب ثلاثاً، فإن تاب وإلا قُتل.

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٣/ ٢٢٩).

(٢) لم أقف.

(٣) هو: محمد بن عبد الوهاب بن سليمان التميمي النجدي، وُلد سنة (١١١٥هـ)، إمام أهل الدعوة، مجدِّد القرن الثاني عشر، حفظ القرآن قبل بلوغه العشر، ذو فطنة وذكاء، كان حاد الفهم، سريع الإدراك والحفظ، كان سريع الكتابة، ربما كتب الكراسة في المجلس الواحد، توفي رحمه الله سنة (١٢٠٦هـ). الدرر السنية في الأجوبة النجدية (١/ ٣٧٤)، تسهيل السابلة (٣/ ١٦٤٣).

(٤) الدرر السنية في الأجوبة النجدية (١٠/ ٦٩).

(٥) فتاوى ورسائل سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم بن عبد اللطيف آل الشيخ (١/ ٧٤). (تراجع).

وهذا مسلكٌ عظيمٌ من مسالك أهل السُّنة والجماعة، فبه تصفى النفوس من الأحقاد والأغلال ونحو ذلك، ويسيرون على منهجٍ عظيمٍ مستقيمٍ؛ لأن التكفير باب فتنةٍ عظيمةٍ إذا لم يوزَن بميزان الشرع يَضِل الشخص؛ لهذا ابن أبي العز الحنفي[1] وهو متوفى سَنة (٧٩٢هـ) يقول: «وباب التكفير باب فتنةٍ ومحنةٍ»[2]، لذلك ينزِّه الشخص نفسه عن تلك العظائم، ويسير على نهج أهل السُّنة والجماعة.

لذلك قال المصنِّف رحمه اللَّه: **(وَلَا نُكَفِّرُ أَحَداً مِنْ أَهْلِ القِبْلَةِ بِذَنْبٍ مَا لَمْ يَسْتَحِلُّهُ)** لفظه هنا رحمه الله فيه إجمالٌ، قوله: **(مِنْ أَهْلِ القِبْلَةِ)** مثل ما سبق هم الذين ذكرهم النبي عليه الصلاة والسلام بقوله: «مَنْ شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَاسْتَقْبَلَ قِبْلَتَنَا، وَصَلَّى صَلَاتَنَا، وَأَكَلَ ذَبِيحَتَنَا، فَهُوَ المُسْلِمُ، لَهُ مَا لِلْمُسْلِمِ، وَعَلَيْهِ مَا عَلَى المُسْلِمِ»[3]؛ يعني: من أظهر لنا

---

(١) هو: صدر الدين علي بن علي بن محمد بن أبي العز بن صالح الأَذرَعي الحنفي، وُلِد سنة (٧٣١هـ)، وتوفي رحمه الله سنة (٧٩٢ هـ). الدرر الكامنة (٤/ ١٠٣)، سلم الوصول إلى طبقات الفحول (٢/ ٣٧٥)

(٢) شرح الطحاوية (ص٢٩٦).

(٣) سبق تخريجه (ص) عند قوله: (فمن أظهر الاسلام ولم يظهر ضده؛ فنتعامل معه).

الإسلام نعامله بأحكام الإسلام، أما نفاقه وكفره الباطنيّ يحاسبه ربه عليه، فما دام لم يُظهِر لنا كفراً نعامله معاملة المسلمين.

قوله: (**بِذَنْبٍ**) لو استبدلها رحمه الله بلفظ: «بكل ذنْبٍ» أفضل؛ فبعض الذنوب كُفرٌ؛ فنكفِّره عليها، فمن استهزأ بالدين مثلاً هذا ذنْبٌ، فقوله: (**بِذَنْبٍ**) نقول: هذا لفظة مجملة، وصوابها: بكل ذنبٍ.

(**مَا لَمْ يَسْتَحِلُّهُ**) كذلك هذه لفظةٌ مجمَلةٌ؛ فقد يَكفر الشخص بالذنْب ولو لم يستحله كالاستهزاء بالدين، وكترك الصلاة والذهاب للسحرة، ونحو ذلك، فهذه كفر، حتى لو ما استحلها الشخص، فالاستحلال كفرٌ آخر، فهناك مكفِّرات، وهناك استحلال، وهناك مكفِّرات باستحلال؛ مثل: لو استحل السرقة يَكفر، ومن استحل عقوق الوالدين يكفر، إذاً الاستحلال كفر آخر؛ لذلك لو جعل رحمه الله العبارة: «ولا نكفّر أحداً من أهل القبلة بكل ذنب ويكفر لو استحله» لكان أَولى.

فقوله: (**وَلَا نُكَفِّرُ أَحَداً مِنْ أَهْلِ القِبْلَةِ بِذَنْبٍ مَا لَمْ يَسْتَحِلُّهُ**) هذا الأصل الأوَّل وفيه ردٌّ على الخوارج، ثم يبدأ رحمه الله **الأصل الثاني**

وهو[١] الرد على المرجئة بالنسبة للكبائر أو الصغائر؛ لذا قال: (وَلَا نَقُولُ: لَا يَضُرُّ مَعَ الإِيمَانِ ذَنْبٌ لِمَنْ عَمِلَهُ) يعني: لا نقول أن من عمل ذنباً لا يضر إيمانه، كما يقوله المرجئة، والإرجاء باب مفسدةٍ عظيمةٍ يمنع الشخص من العمل الصالح؛ فلا يصلِّي ويقول: يكفيني الإيمان في القلب.

وأهل الارجاء اختلفوا فيما بينهم؛ فبعضهم قال: يكفي المعرفة في القلب، وبعضهم قال: يكفي التصديق، وبعضهم قال: يكفي مع التصديق أو المعرفة النطق باللسان.

فعلى قولهم نقول: هذا نفس فعل إبليس؛ لأن إبليس مقرٌّ ومصدِّقٌ، وفي قرارة نفسه وعنده معرفةٌ بوحدانية اللَّه، قال: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: ٨٢]، فعنده معرفةٌ بوحدانية اللَّه، لكن ما نفعته المعرفة، فلا بد من الإقرار والعمل.

فكل من عمل ذنباً يضر هذا الذنب بإيمانه، قال سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ﴾ هذا شركٌ ﴿وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾ هذه معاصي ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَاماً﴾

(١) من إضافتي.

[الفرقان: ٦٨]، فيضر الذنب مع الإيمان، وكذا قال سبحانه: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِنَ اللَّهِ﴾ [المائدة: ٣٨]، فضر ذلك الفعل في إيمانهم، وكذلك قوله: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَاداً أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ﴾ [المائدة: ٣٣]، فهؤلاء مؤمنون ومع ذلك ضر ذلك الذنب في إيمانهم.

وقال سبحانه ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً﴾ [النساء: ٩٣]، مع قوله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ [الحجرات: ١٠]، فلم يَكفر لكن أعدَّ له عذاباً عظيماً، فدل على أنه يضر مع الايمان ذنب.

فعلى المسلم في هذا الباب العظيم الذي هو باب الخوارج وباب الإرجاء أن يسير على منهج أهل السُّنة والجماعة؛ لأن أوَّل فتنة وقعت في هذه الأمَّة هي فتنة الخوارج، فاستحلوا دم عليٍّ رضي الله عنه فقتلوه، وحصل القتل للحسين(١) بسبب هذا الإفراط الذي وقع، فالمسلم من

---

(١) هو: أبو عبد الله الحسين بن علي بن أبي طالب بن عبد المطلب الهاشمي القرشي، وُلد سنة (٤هـ)، وتوفي رضي الله عنه سنة (٦١هـ). الإصابة في تمييز الصحابة (٢/ ٦٧).

أهل السُّنة والجماعة يسير في منهجٍ وسطٍ؛ فمن عمل ذنباً لا يكفِّره؛ وإنما يدعو له بالهداية ويقول: هو مؤمنٌ بإيمانه فاسقٌ بكبيرته، أو يقول: مؤمنٌ لكنه فاسقٌ، أو يقول: مسلمٌ فاسقٌ، أما أن يقول: هو كافر؛ فلا.

وَنَرْجُو لِلْمُحْسِنِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، وَلَا نَأْمَنُ عَلَيْهِمْ، وَلَا نَشْهَدُ لَهُمْ بِالْجَنَّةِ.

وَنَسْتَغْفِرُ لِمُسِيئِهِمْ، وَنَخَافُ عَلَيْهِمْ، وَلَا نُقَنِّطُهُمْ.

هنا يذكر رحمه الله مسألة وهي: الشهادة لمعيَّن بجَنةٍ أو نارٍ، فنقول: الشهادة لمعيَّن بجَنة أو نار تنقسم إلى أقسام، والقاعدة: «لا نشهد لمعيَّنٍ بجَنةٍ أو نارٍ إلا ما جاءت النصوص شاهدة له بذلك».

والذين يُشهد لهم بالجَنة ينقسمون إلى قِسمين:

القِسم الأوَّل: الشهادة العامة لهم، مثل: جميع الصحابة، فنقول: جميع الصحابة في الجَنة، قال سبحانه: ﴿وَكُلًّا﴾ يعني: كل من أنفق من قبل الفتح أو قاتل ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى﴾ [النساء: ٩٥] يعني: جميع

الصحابة وعدهم اللَّه بالحسنى؛ يعني: الجَنة، قال ابن حزم رحمه اللَّه[1]: «أجمع العلماء على أن جميع الصحابة في الجَنَّة قطعاً»[2].

وهناك من الصحابة من جاء لهم تفضيلٌ آخر بأنهم من أهل الجَنة مثل: أهل بدر، فلا يدخل النار أحدٌ شهِد بدراً، ومثل: أهل بيعة الرضوان[3]؛ في الحديث: «لَا يَدْخُلُ النَّارَ أَحَدٌ مِمَّنْ بَايَعَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ»[4]، واللَّه عز وجل قال: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً﴾ [الفتح: ١٨].

(١) هو: أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الفارسي الأصل، ثم الأندلسي القرطبي، وُلد سنة (٣٨٤هـ)، وتوفي رحمه الله سنة (٤٥٦هـ). بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس (٤١٥)، سير أعلام النبلاء (١٨/ ١٨٤).

(٢) اللفظ الذي وقفتُ عليه: «الصحابة كلّهم من أهل الجَنَّة قطعاً». الإصابة في تمييز الصحابة (١/ ١٦٣).

(٣) وهي: التي بايع فيها الصحابة رضي الله عنهم النبيَّ صلى الله عليه وسلم على قتال قريشٍ، وألا يفرُّوا، بعدما أشيع أنَّ قريشاً قتلت عثمان بن عفان رضي الله عنه حين أرسله النبي عليه الصلاة والسلام إليهم لمفاوضتهم، لمَّا منعتهم قريش من دخول مكة، وكانوا قد قدموا للعمرة لا للقتال. السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ٣١٥).

(٤) رواه أحمد في المسند، رقم (١٥٠٠٦)، من حديث جابرٍ رضي الله عنه مرفوعاً.

والقِسم الثاني: خصوص الصحابة؛ أي: من جاءت نصوص خاصة فيهم بأنهم من أهل الجَنة، مثل: العشرة المبشرين بالجَنة، كما في الحديث: «أَبُو بَكْرٍ فِي الجَنَّةِ، وَعُمَرُ فِي الجَنَّةِ، وَعَلِيٌّ فِي الجَنَّةِ، وَعُثْمَانُ فِي الجَنَّةِ، وَطَلْحَةُ[(١)] فِي الجَنَّةِ، وَالزُّبَيْرُ[(٢)] فِي الجَنَّةِ، وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ[(٣)] فِي الجَنَّةِ، وَسَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ[(٤)] فِي الجَنَّةِ، وَسَعِيدُ بْنُ زَيْدٍ

---

(١) هو: أبو محمد طلحة بن عبيد الله بن عثمان القرشي التيمي، شهد أحداً وما بعدها من المشاهد، توفي رضي الله عنه سنة (٣٦هـ) في موقعة الجمل. الاستيعاب في معرفة الأصحاب (٢/ ٧٦٤).

(٢) هو: أبو عبد الله الزبير بن العوام بن خويلد بن أسد القرشي الأسدي، أسلم وهو ابن خمس عشرة سنة، لم يتخلف عن غزوة غزاها رسول الله صلى الله عليه وسلم، توفي رضي الله عنه سنة (٣٦هـ) في موقعة الجمل. الاستيعاب في معرفة الأصحاب (٢/ ٥١٠).

(٣) هو: أبو محمد عبد الرحمن بن عوف بن عبد عوف القرشي الزهري، ولد بعد الفيل بعشر سنين، وأسلم قبل أن يدخل الرسول صلى الله عليه وسلم دار الأرقم، وتوفي رضي الله عنه سنة (٣١هـ) بالمدينة. أسد الغابة في معرفة الصحابة (٣/ ٣٧٦).

(٤) هو: سعد بن أبي وقاص، - واسم أبي وقاص: مالك - بن أهيب بن عبد مناف القرشي الزهري، كان سابع سبعة في الإسلام، أسلم بعد ستة، وشهد بدراً، والحديبية، وسائر المشاهد، وهو أحد الستة الذين جعل عمر فيهم الشورى، توفي رضي الله عنه سنة (٥٤هـ) وقيل: (٥٥هـ) وقيل: (٥٨هـ). الاستيعاب في معرفة الأصحاب (٢/ ٦٠٦).

بْنِ عَمْرِو بْنِ نُفَيْلٍ[1] فِي الجَنَّةِ، وَأَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الجَرَّاحِ[2] فِي الجَنَّةِ»[3]

ومثل: ثابت بن قيس بن شماس[4] رضي الله عنه؛ حيث قال صلى الله عليه وسلم: «اذْهَبْ إِلَيْهِ، فَقُلْ لَهُ: إِنَّكَ لَسْتَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، وَلَكِنْ مِنْ

(١) هو: أبو الأعور سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل القرشي العدوي، ابن عم عمر بن الخطاب رضي الله عنه، من المهاجرين الأولين، وكان إسلامه قديما قبل عمر، توفي رضي الله عنه سنة (٥٠هـ). الاستيعاب في معرفة الأصحاب (٢/ ٦١٤).

(٢) هو: أبو عبيدة عامر بن عبد الله ابن الجراح القرشي الفهري، شهد بدراً، وأحداً، وسائر المشاهد مَعَ رَسُول اللَّهِ صلى الله عليه وسلم، وهاجر إلى الحبشة الهجرة الثانية، وتوفي رضي الله عنه في طاعون عمواس سنة (١٨هـ). أسد الغابة في معرفة الصحابة (٥/ ٢٠٥).

(٣) رواه أحمد في المسند، رقم (١٦٢٩)، من حديث سعيد بن زيدٍ رضي الله عنه.

(٤) هو: أبو محمد ثابت بن قيس بن شماس بن ظهير الأغر الخزرجي، شهد أحداً وما بعدها من المشاهد، استشهد رضي الله عنه يوم اليمامة في خلافة أبي بكرٍ رضي الله عنه. الاستيعاب في معرفة الأصحاب (١/ ٢٠٠).

أَهْلِ الجَنَّةِ»[١]، ومثل: عكاشة بن محصن[٢] رضي الله عنه[٣]، ومثل: بلال بن رباح[٤] رضي الله عنه[١]، ومثل: زوجات النبي صلى الله عليه وسلم.

والذين يُشهد لهم بالنَّار ينقسمون إلى قسمين:

---

(١) رواه البخاريُّ، كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام، رقم (٣٦١٣)، ومسلمٌ، كتاب الإيمان، باب مخافة المؤمن أن يحبط عمله، رقم (١١٩)، من حديث أنس بن مالكٍ رضي الله عنه.

(٢) هو: أبو محصن عكاشة بن محصن بن حرثان بن قيس الأسدي، سائر المشاهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتوفي في خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه سنة (١١هـ). الاستيعاب في معرفة الأصحاب (٣/ ١٠٨٠)، سير أعلام النبلاء (١/ ٣٠٧).

(٣) كما في حديث ابن عباسٍ رضي الله عنهما، وفيه: «...فَقَامَ عُكَّاشَةُ فَقَالَ: ادْعُ اللهَ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ، قَالَ: أَنْتَ مِنْهُمْ...» الحديث رواه البخاريُّ، كتاب الرقاق، باب: يدخل الجَنة سبعون ألْفاً بغير حسابٍ، رقم (٦٥٤١)، ومسلمٌ، كتاب الإيمان، باب الدليل على دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حسابٍ ولا عذابٍ، رقم (٢١٨).

(٤) هو: أبو عبد الله بلال بن رباح، مولى أبي بكر الصديق رضي الله عنه، شهد بدراً وأحداً وسائر المشاهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، توفي رضي الله عنه سنة (٢٠هـ) وهو ابن ثلاث وستين سنة. الاستيعاب في معرفة الأصحاب (١/ ١٧٨).

القسم الأوَّل: من هو على سبيل العموم في النار، مثل: نقول: من كفر باللَّه فهو في النار.

والقِسم الثاني: تخصيصٌ لهذا العموم، فجاءت نصوص بأن منهم من هو في النار، مثل: أتباع فرعون، قال اللَّه: ﴿أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٦]، وهناك من هم بأعيانهم في النار، مثل: إبليس، فرعون، هامان، قارون، أبو لهب، أبو طالب، وهكذا.

ومن عمل صالحاً ما نشهد له بالجَنة، لكن نرجو له خيراً، ومن عمل سيئاً ما نقول أنه من أهل النار؛ وإنما نقول: نخاف عليه.

لذلك من عمل صالحاً ومات على هذا العمل الصالح: فما نشهد له بالجَنة؛ وإنما نرجو له قال الشيخ محمد بن ابراهيم رحمه الله - في شرح العقيدة الواسطية - : «نرجو له قريبا من الجزم بأنه من أهل الجَنة»[(٢)]،

---

(١) كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وفيه: «...سَمِعتُ دَفَّ نَعلَيكَ بَينَ يَدَيَّ في الجَنّةِ...» رواه البخاريُّ، كتاب التهجد، باب فضل الطهور بالليل والنهار، وفضل الصلاة بعد الوضوء بالليل والنهار، رقم (١١٤٩)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) شرح العقيدة الواسطية (ص٢٠٧).

والإمام الذهبي(١) رحمه الله لمَّا ترجم لعمر بن عبدالعزيز(٢) قال: «وقلبي مطمئنٌّ بأنه من أهل الجَنة»(٣) يعني: يرجو، وكذلك الإمام أحمد بن حنبل قيل عنه كذلك(٤).

وكذا من مات على الكفر ما نقول: هو بعينه في النار، قال الشيخ محمد بن إبراهيم رحمه الله في الواسطية(٥): «فإنه لا يُعلم على ماذا كانت خاتمته، فقد يكون كافراً أو قبلها بلحظاتٍ أسلم» كما قد حدث للغلام اليهودي؛ ففي صحيح البخاريِّ (٦): «لمَّا مرِضَ الغُلَامُ اليهوديّ؛ زارهُ النبيُّ صلى الله عليه وسلم، وَدَعَاهُ إِلى الإِسِلَامِ، فَنَظر الغُلامُ إِلَى أَبِيهِ، فَقَالَ

---

(١) هو: أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز التركماني الذهبي، الشافعي، وُلد سنة (٦٧٣هـ)، وتُوفي رحمه الله سنة (٧٤٨). طبقات الشافعية الكبرى (٩/ ١٠٠).

(٢) هو: أبو حفص عمر بن عبد العزيز بن مروان ابن الحكم بن أبي العاص الأموي، وُلد سنة (٦٣هـ)، وتوفي رحمه الله سنة (١٠١هـ). سير أعلام النبلاء (٥/ ١١٤).

(٣) سير أعلام النبلاء (٥/ ١٤٤).

(٤) لم أقف.

(٥) (ص ٢٠٦).

(٦) كتاب الجنائز، باب إذا أسلم الصبي فمات، هل يصلَّى عليه؟ وهل يُعرض على الصبي الإسلام؟، رقم (١٣٥٦)، من حديث أنسٍ رضي الله عنه.

لَه: أَطِعْ أَبَا الْقَاسِم. فَأسلَم» ثم مات الغلام، والنبي عليه الصلاة والسلام عند أبي طالب عرض عليه الشهادة في آخر حياته، فما أسلم، ومنهم من يعمل صالحاً ثم - والعياذ باللَّه - يتخبطه الشيطان، وفي الصحيحين[1]: «إِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّة حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الكِتَابُ؛ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّار، فَيَدْخُلُهَا».

والمصنِّف رحمه الله قال: (وَنَرْجُو لِلمُحْسِنِينَ مِنَ المُؤْمِنِينَ) أن يعفو اللَّه عنهم ويدخلهم الجَنة برحمته، ما هو الدليل؟ في صحيح مسلمٍ: «لمَّا مات أحد الصحابة في سَهم أتت أمه إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقالت: هنيئاً له الجَنة، قال لها: وما يدريك، ثم قال: نرجو له الجنة»[2].

---

(١) رواه البخاريُّ، كتاب التوحيد، باب قوله تعالى: {وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ} [الصافات: ١٧١]، رقم (٧٤٥٤)، ومسلمٌ، كتاب القدر، باب كيفية خلْق الآدمي في بطن أمّه وكتابة رزْقه وأجلهِ وعملهِ وشقاوتهِ وسعادتهِ، رقم (٢٦٤٣)، من حديث عبد الله بن مسعودٍ رضي الله عنه.

(٢) لم أقف على هذا اللفظ. وإنما وقف على حديث أنس رضي الله عنه قال: «اسْتُشْهِدَ مِنَّا غُلَامٌ يَوْمَ أُحُدٍ، فَجَعَلَتْ أُمُّهُ تَمْسَحُ التُّرَابَ عَنْ وَجْهِهِ، وَتَقُولُ: أَبْشِرْ، هَنِيئاً بِالْجَنَّةِ. فَقَالَ النَّبِيُّ

(وَنَرْجُو لِلمُحْسِنِينَ) يعني: الطائعين من أهل الطاعة والصلاح (مِنَ الْمُؤْمِنِينَ) هنا قيَّد؛ لأن الشخص قد يَعمل صالحاً لكنه ليس من أهل الإسلام، فإذا قيل: هل الكافر يعمل أعمالاً صالحةً؟ نقول: نعم، لكنها مردودةٌ عليه، فعمارة المساجد كان المشركون يبنونها، فقال اللَّه: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ﴾ [التوبة: ١٧]، وقال اللَّه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾ [الأنفال: ٣٦][(١)]، وكما في حديث عائشة[(٢)] رضي الله عنها قالت: «قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! ابْنُ جُدْعَانَ كَانَ

صلى الله عليه وسلم: وَمَا يُدْرِيكِ؟ لَعَلَّهُ كَانَ يَتَكَلَّمُ فِيمَا لَا يَعْنِيهِ، وَيَمْنَعُ مَا لَا يَضُرُّهُ» رواه الطحاويُّ في شرح مشكل الآثار، (٦/ ٢١٠)، رقم (٢٤٢٣).

(١) لعلها تحذف؛ لأنه لم يذكر فيها عمل اليهود للصالحات.

(٢) هي: أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر الصديق- واسمه: عبد الله بن عثمان بن عامر بن عَمرو بن كعبٍ -، زوج النبيِّ صلى الله عليه وسلم، وُلدت بعد المبعث بأربع أو خمس سنين، تزوَّجها رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة قبل الهجرة بسنتين، توفيت رضي الله عنها سنة (٥٨هـ). الاستيعاب في معرفة الأصحاب (٤/ ١٨٨١)، الإصابة في تمييز الصحابة (٨/ ٢٣١).

فِي الْجَاهِلِيَّةِ يَصِلُ الرَّحِمَ وَيُطْعِمُ الْمِسْكِينَ، فَهَلْ ذَاكَ نَافِعُهُ؟ قَالَ: لَا يَنْفَعُهُ، إِنَّهُ لَمْ يَقُلْ يَوْماً: رَبِّ اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ»[(١)].

فالكفار قد يَعملون أعمالاً صالحةً، لكن لكفرهم تُرد عليهم، لهذا أخبر النبي صلى الله عليه وسلم أنهم يُجزون بها في الدنيا فقط، أما في الآخرة قال اللَّه: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُوراً﴾ [الفرقان: ٢٣]، يعني: إن الكافر إذا عمل صالحاً في الدنيا - من إنقاذ الغرقى، أو علاج المرضى، أو كشف كرب المكروبين، ونحو ذلك - قد يجازى على عمله في الدنيا، أما في الآخرة فليس له شيءٌ.

قال: (وَلَا نَأْمَنُ عَلَيْهِمْ) يعني: في الحياة بأنهم قد تنقلب أحوالهم من صلاحٍ إلى عدم هو كذلك، ولا نأمن عليهم بأنهم قد يكونوا ماتوا على الصلاح لكن في باطن أمورهم أمورٌ سيئةٌ فقد يعذَّبون، والدليل: في

(١) رواه مسلمٌ، كتاب الإيمان، باب الدليل على أنَّ من مات على الكفر لا ينفعه عمل، رقم (٢١٤).

خيبر[١] لمَّا أتى سهم عائر إلى مولى النبي صلى الله عليه وسلم كركرة[٢]، فقالوا: هنيئاً له الشهادة، قال: «كَلَّا وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ! إِنَّ الشَّمْلَةَ لَتَلْتَهِبُ عَلَيْهِ نَاراً، أَخَذَهَا مِنَ الْغَنَائِمِ يَوْمَ خَيْبَرَ لَمْ تُصِبْهَا الْمَقَاسِمُ»[٣].

لذلك قال المصنِّف رحمه اللَّه: **(وَلَا نَأْمَنُ عَلَيْهِمْ)** فالشخص قد يكون ظاهره الصلاح لكن قد يعذَّب بأمورٍ لا نعلمها.

قال: **(وَلَا نَشْهَدُ لَهُمْ بِالجَنَّةِ)** فلا نَشهد لأحد بالجَنة إلا من جاءت به النصوص بأنه من أهل الجَنة، وأما غيرهم فلا نشهد لهم بالجَنة أبداً لكن نرجو لهم الخير.

ثم انتقل رحمه الله بعد ذلك إلى العصاة فقال: **(وَنَسْتَغْفِرُ لِمُسِيئِهِمْ)** يعني: نستغفر للمسيء من المؤمنين، **(وَنَخَافُ عَلَيْهِمْ)** أي: نخاف أنَّ

---

(١) هي: الموضع المشهور، الذي غزاه النبي صلى الله عليه وسلم، على ثمانية برد من المدينة من جهة الشام، تطلق على الولاية، وكان بها سبعة حصون لليهود، وحولها مزارع ونخل. مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع (١/ ٤٩٤).

(٢) لم أقف على ترجمة له حسب المنهج.

(٣) رواه البخاريُّ، كتاب المغازي، باب غزوة خيبر، رقم (٤٢٣٤)، ومسلمٌ، كتاب الإيمان، باب غلظ تحريم الغلول وأنه لا يَدخل الجَنة إلا المؤمنون، رقم (١١٥)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه،

اللَّه يعذِّبهم في الدنيا أو يَنزل عليهم عقوبة مثلاً، فنخاف عليهم، (وَلَا نُقَنِّطُهُمْ) أي: لا نقنطهم في الحياة، فلا نقول: لن يَغفر اللَّه لك.

لذلك في الحديث الصحيح لمَّا قال رجلٌ: «وَاللَّهِ! لَا يَغْفِرُ اللَّهُ لِفُلَانٍ، قَالَ اللَّهَ تَعَالَى: مَنْ ذَا الَّذِي يَتَأَلَّى عَلَيَّ أَنْ لَا أَغْفِرَ لِفُلَانٍ، فَإِنِّي قَدْ غَفَرْتُ لِفُلَانٍ، وَأَحْبَطْتُ عَمَلَكَ»[1]، فلا نقنِّط المسيء ونقول: لن يغفر لك اللَّه، ولن يدخلك الجَنة؛ وإنما نقول مثل ما قال المصنِّف: (وَنَسْتَغْفِرُ لِمُسِيئِهِمْ) يعني: ندعو له أن اللَّه يغفر ذنوبه، وندعو له أيضا بالهداية والصلاح وتقويم العوج ونحو ذلك.

(١) رواه مسلمٌ، كتاب البِر والصلة والآداب، باب النهي عن تقنيط الإنسان من رحمة الله تعالى، رقم (٢٦٢١)، من حديث جندبٍ رضي الله عنه.

وَالأَمْنُ وَالإِيَاسُ يَنْقُلَانِ عَنِ المِلَّةِ، وَسَبِيلُ الحَقِّ بَيْنَهُمَا لِأَهْلِ القِبْلَةِ.

وَلَا نُخْرِجُ العَبْدَ مِنَ الإِيمَانِ إِلَّا بِجُحُودِ مَا أَدْخَلَهُ فِيهِ.

قال رحمه اللَّه: (وَالأَمْنُ وَالإِيَاسُ) الأمن هو: نزع الخوف من اللَّه عز وجل، والإياس عكسه وهو: القنوط من رحمة اللَّه، وأركان العبادة ثلاثة: رجاء وخوف ويقودهما المحبة، فالرجاء والخوف قال سبحانه: ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً﴾ هذا الخوف ﴿وَطَمَعاً﴾ [السجدة: ١٦] هذا الرجاء، فلا بد أن يُجمع بينهما، فهما كجناحي طائر والمحبة كرأس الطائر فلا يسير الطائر إلا بهذه الأمور، كذلك المسلم يسير إلى اللَّه عز وجل بتلك الأمور الثلاثة، فإذا اختل الأمن زاد الرجاء، وإذا ضعف الرجاء زاد الأمن والخوف، وإذا زاد الأمن قل الخوف، وإذا قل الخوف زاد الأمن، والإخلال بشيءٍ من ذلك حرامٌ.

قال: (وَالأَمْنُ وَالإِيَاسُ يَنْقُلَانِ عَنِ المِلَّةِ) أي: ملة الإسلام؛ يعني: إذا فُقدا بالكلِّية، أما إذا حصل فيهما نقصٌ فلا يَنقل عن ملة الإسلام، ففي الأمن اللَّه يقول: ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ

الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٩]، والقنوط قال سبحانه: ﴿إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧]، فلا يأس من روح اللَّه، ولا أمن من مكر اللَّه؛ وإنما يسير العبد بينهما، ولا يقدِّم أحدهما على الآخر.

وبعض أهل العِلم[(١)] يقول: يقدَّم الرجاء في حال المرض وحال الوفاة على الخوف، لكن قال الشيخ ابن باز[(٢)] رحمه اللَّه: «لا أَعلم لهذا دليلاً»[(٣)]، وحديث: «لَا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إِلَّا وَهُوَ يُحْسِنُ الظَّنَّ بِاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ»[(٤)] نقول: هذا مثل قوله عز وجل: ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٢]؛ يعني: ابقوا على الإسلام حتى الوفاة، وكذلك معنى هذا الحديث: ابقوا على حسن الظن حتى الوفاة، وليس معناه: لا تظنوا باللَّه الظن الحسن ثم بعد ذلك ظنوا به الظن الحَسن.

---

(١) كالنووي رحمه الله. رياض الصالحين (ص١٦٨).

(٢) هو: هو عبد العزيز بن عبد الله بن عبد الرحمن آل باز، ولد بمدينة الرياض في ذي الحجة سنة (١٣٣٠هـ)، وتوفي رحمه الله سنة (١٤٢٠هـ). مجلة البحوث الإسلامية (٨٨/ ٣٣٢).

(٣) لم أقف عليه؛ وإنما وقفتُ على ذكره رحمه الله للقول بدون أن يعقِّب عليه. فتاوى نور على الدرب (٤/ ٣٣).

(٤) رواه مسلمٌ، كتاب الجَنة وصفة نعيمها وأهلها، باب الأمر بحسن الظن بالله تعالى عند الموت، رقم (٢٨٧٧)، من حديث جابر رضي الله عنه.

وحسن الظن باللَّه عز وجل من أعظم معتقدات أهل السُّنة والجماعة، وهو يدور في فلك التوكل على اللَّه عز وجل، فاذا اختل شيءٌ من ذلك اختل التوكل عليه سبحانه، لذلك اللَّه عز وجل ذم من أساء الظن به؛ كما قال سبحانه: ﴿يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٤]، وابن القيم رحمه الله قال: «وأكثر الخلق بل كلهم إلا من شاء اللَّه لا يحسن الظن باللَّه، فتجده يرى أن ما أنعم اللَّه عز وجل عليه من نعمة يستحق أكثر منها، وما نزل به من مرض أنه لا يستحق ذلك؛ لأنه محسن.. – وهكذا، قال: – ولو فتشتَ من فتشتَ لرأيتَه كذلك»[١].

والمخرج من هذا – يعني: سوء الظن –: الدعاء؛ لأن حسن الظن باللَّه عقيدةٌ في القلب، فمثلاً: يقول الشخص: اللَّهم ارزقني حسن الظن بك وقوة التوكل عليك.

وحسن الظن أنَّ اللَّه يرزقك، وحسن الظن أنَّ اللَّه يدخلك الجَنة، وحسن الظن أنَّ اللَّه يَرفع درجاتك، وحسن الظن أنَّ اللَّه عز وجل يَهبك

(١) زاد المعاد في هدي خير العباد (٣/ ٢١١).

عِلماً، وحسن الظن أنَّ اللَّه يَمنحك عملاً صالحاً، وهكذا، فتحسن الظن باللَّه سبحانه.

ويدخل في ذلك: الفأل، لذلك النبي عليه الصلاة والسلام يقول: «وَيُعْجِبُنِي الفَأْلُ، قِيلَ: وَمَا الفَأْلُ؟ قَالَ: الكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ»[1]، والفأل يدل على قوة التوكل، والتوكل يدل على حُسن الظن باللَّه، وهذا هو المطلوب، فلا يقول الشخص: أتمنى إني أدرس العِلم الشرعي، لكن أخشى أني ما أكون داعيةً؛ نقول: ليس هذا من حُسن الظن باللَّه، فمن حُسن الظن باللَّه أن تقول: أنا أتعلم العِلم الشرعي وأكون داعيةً، وأنفع المسلمين.

واللَّه عز وجل قال: ﴿لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٣]، فمن القنوط من رحمة اللَّه: القنوط في مغفرة الذنوب، أو القنوط فيما يمنحه اللَّه عز وجل لعباده، مثل: لو أن شخصا طلب باب رزقٍ - من وظيفة او مال او زوجة او نحو ذلك - ثم لم يُفتح له؛ فلا يقنط ويقول: إن اللَّه لم يكتب لي سعادة في ذلك؛ فهذا ما يجوز، وإنما يتفاءل ويحسن ظنه باللَّه

(١) رواه البخاريُّ، كتاب الطب، باب لا عدوى، رقم (٥٧٧٦)، ومسلمٌ، كتاب السلام، رقم (٢٢٢٤)، من حديث أنسٍ رضي الله عنه.

ويقول: إن اللَّه ما أغلق عليَّ هذا الباب إلا رحمة بي، ليفتح لي باباً أوسع، ويقول: إن الحياة ما انتهت بقي الدار الآخرة ويعتقد ذلك اعتقاداً جازماً.

وحسن الظن من أعظم العبادات القلبية التي يتعبد بها الشخص لربه؛ ففيها تعظيمٌ للَّه، وفيها استحضارٌ لصفاته مثل: القدرة والغنى، والهبة والحمد، والكرم، وغير ذلك من الصفات العظيمة التي يتصف اللَّه بها عز وجل، فهو سبحانه القادر على أن يعطيك ما شاء سبحانه إذا التجأتَ اليه، لذلك أهل السُّنة والجماعة ليس عندهم سوء ظنٍّ باللَّه الذي عبَّر عنه المصنِّف.

وكذلك أهل السُّنة والجماعة ليس عندهم أمنٌ من مكر اللَّه، فإذا وقع العبد في المعصية يخاف اللَّه عز وجل، ويخاف أنَّ هذه المعصية قد تتضاعف، وكما قال ابن الجوزي رحمه اللَّه[1]: «وكم من معصية وقعت في مقتلٍ فأهلكت الشخص»[2]، فلا يقدِم الشخص على معصيةٍ فإنها قد

---

(١) هو: أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد القرشي التيمي البكري البغدادي، المعروف بابن الجوزي، ولد سنة (٥٠٨هـ)، وتوفي رحمه الله سنة (٥٩٧هـ). التكملة لوفيات النقلة (١/ ٣٩٤)، سير أعلام النبلاء (٢١/ ٣٦٥).

(٢) لم أقف.

تهلكه، وإذا وقع في معصيةٍ يتوب مباشرةً ويستغفر اللَّه كثيراً منها، لذلك اللَّه أثنى على ابراهيم بقوله: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ﴾ [هود: ٧٥]؛ أي: رجّاعٌ إلى اللَّه في كل شيءٍ[1]، لذلك اللَّه قال: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾ [النجم: ٣٧] في كلّ ما أُمِر به، وهكذا.

فلا يأمن المسلم من عقوبة ذلك الذنْب ولو تأخرت، ولا يأمن المسلم من مضاعفة ذلك الذنْب، ولا يأمن المسلم كذلك من شؤم الخطيئة، فمن شؤم الخطيئة: أنَّ بني آدم يعيشون في شؤم معصية أبيهم آدم، فبسبب أكل الشجرة أُهبطنا من الجَنة، فلا يستخفّ الشخص بأي معصيةٍ ولو تباعد زمنها، ولا يحتقر المسلم أيَّ ذنبٍ وقع فيه؛ فاللَّه سبحانه وتعالى له بالمرصاد وهو مطَّلعٌ عليه.

لذلك قال رحمه اللَّه: **(وَالأَمْنُ)** يعني من عاقبة الذنوب **(وَالإِيَاسُ)** من سوء الظن اللَّه وعدم تعظيم صفاته **(يَنْقُلَانِ عَنِ المِلَّةِ)** إن عُدِما، أمَّا إذا كان الشخص أحياناً عنده أمنٌ يسيرٌ من معصيةٍ؛ نقول: ما ينقل عن ملة الإسلام، كذلك لو كان عنده إياسٌ لكن قليل؛ نقول: ما ينقل عن ملة الاسلام، لذلك اللَّه عز وجل نادى عباده العصاة بـ «يا عبادي» فما

---

(١) تفسير الطبري (١٢/ ٤٩٣).

أخرجهم عن ملة الإسلام؛ قال سبحانه: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣]، فلمَّا وصفهم بالقنوط ما أمرهم بالدخول في الإسلام؛ وإنما أمرهم بالإقلاع عما هم فيه، ووعدهم بتكفير الذنوب.

ثم بعد ذلك قال رحمه اللَّه: (وَسَبِيلُ الحَقِّ بَيْنَهُمَا لِأَهْلِ القِبْلَةِ) يعني: أهل السُّنة والجماعة يسيرون على سبيل الحق وهو بين الأمن والقنوط، فهذا سبيلهم يسيرون في طريقٍ وسط، فإن وقعتْ منهم خطيئةً ما أمنوا مكر اللَّه، وإن دعوا ربهم رجوا الإجابة؛ لذلك قال الشيخ محمد بن إبراهيم رحمه الله في آداب المشي إلى الصلاة(١): «والدعاء عبادةٌ، وانتظار إجابة الدعاء عبادةٌ أخرى» وهذه العبادة هي عبادة الرجاء، فترجو أن اللَّه يستجيب الدعوة، فأنت تتقلَّب من عبادةٍ إلى عبادةٍ؛ من عبادة الدعاء إلى عبادة الرجاء، وهكذا.

ثم بعد ذلك ذكر رحمه الله مسألةً أخرى، فقال: (وَلَا نُخْرِجُ العَبْدَ مِنَ الإِيمَانِ إِلَّا بِجُحُودِ مَا أَدْخَلَهُ فِيهِ) يعني: لا يَخرج العبد من الإسلام إلا إذا جحد الشهادتين فقط، فلو استهزأ بالدين: على قول المصنِّف ما يَكفر،

---

(١) (ص ٧٦).

ونحو ذلك، وهذه الجملة مجمَلةٌ من المصنِّف رحمه اللَّه؛ فإن المسلم قد يَخرج من الدين بمكفِّرٍ غير هذا المكفر؛ يعني: نقول: إن جحود الشهادتين نوعٌ من أنواع الكفر، وليس الكفر كلّه محصوراً فيه، فهناك مكفِّراتٌ أخرى مثل: السِّحر، الاستهزاء بالدين، الكُفر باليوم الآخر، الكُفر بالإيمان بالقدَر، الكُفر بالملائكة والرسل، وهكذا.

فنقول: قول المصنِّف: **(وَلَا نُخْرِجُ العَبْدَ مِنَ الإِيمَانِ إِلَّا بِجُحُودِ مَا أَدْخَلَهُ فِيهِ)** العبارة الأصح منها: «ونُخرج العبد من الإيمان بجحود ما أدخله فيه» يعني: ما نحصرها؛ وإنما تكون نوعاً من أنواع الكفر، فقد يَكفر العبد بغير الشهادتين كما مثَّلنا.

فتبين مما سبق أنَّ من معتقد أهل السُّنة والجماعة الجَمع بين الأمن والإياس، والجَمع بين الخوف والرجاء، فلا يقدَّم أحدهما على الآخر، وأن الشخص يجِب عليه أن يَحذر الكفر والخروج من الملة وهو لا يَشعر، ومن ذلك: جحود شيءٍ من شعائر الدين.

وَالإِيمَانُ: هُوَ الإِقْرَارُ بِاللِّسَانِ، وَالتَّصْدِيقُ بِالجَنَانِ.

وَإِنَّ جَمِيعَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى فِي القُرْآنِ، وَجَمِيعَ مَا صَحَّ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم مِنَ الشَّرْعِ وَالبَيَانِ، كُلُّهُ حَقٌّ.

وَالإِيمَانُ وَاحِدٌ، وَأَهْلُهُ فِي أَصْلِهِ سَوَاءٌ، وَالتَّفَاضُلُ بَيْنَهُمْ بِالتَّقْوَى، وَمُخَالَفَةِ الهَوَى.

قال رحمه اللَّه: (وَالإِيمَانُ: هُوَ الإِقْرَارُ بِاللِّسَانِ) يعني: تعريف الإيمان: إقرار باللسان؛ أي: يتكلم وينطق الشخص به، فلا بد من النطق به؛ اللَّه يقول: ﴿إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [الزخرف: ٨٦]، وهذا من باب الشهادة، وقال سبحانه: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ﴾ [البقرة: ١٣٦]، وقال: ﴿قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ٨٤]، فلا بد من النطق بالشهادة، والنبي عليه الصلاة والسلام قال لقريشٍ: «يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ! قُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ تُفْلِحُوا»[١]، فلا بد من الإقرار باللسان.

---

[١] رواه أحمد في المسند، رقم (١٦٠٢٣)، من حديث ربيعة بن عباد الديليِّ رضي الله عنه.

قال: (وَالتَّصْدِيقُ بِالجَنَانِ) يعني: التصديق بالقلب، فلا بد من الشخص أن يَعتقد بقلبه ويؤمن بأن اللَّه واحدٌ، ويفرده بربوبيته وبأسمائه وصفاته كما يليق بجلاله وعظمته.

واقتصر المصنِّف رحمه الله على هذا التعريف، وهو الإقرار باللسان والتصديق بالقلب، وهذا التعريف فيه نقصٌ؛ لأنه بقي العمل بالأركان، واقتصار المصنِّف على هذا التعريف قولٌ باطلٌ، وهو قول المرجئة الذين انقسموا إلى أربعة طوائف:

الطائفة الأُولى: الكرَّامية[1]؛ يقولون: الإيمان قول.

الطائفة الثانية: الأشاعرة؛ يقولون: الإيمان تصديق.

الطائفة الثالثة: مرجئة الفقهاء؛ يقولون مثل ما عرفه المصنِّف: قول وتصديق.

(١) الكرامية هم: أصحاب محمد بن كرَّام، يزعمون أن الإيمان هو الإقرار والتصديق باللسان دون القلب، وأنكروا أن يكون معرفة القلب أو شيء غير التصديق باللسان إيماناً، وزعموا أن المنافقين الذين كانوا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا مؤمنين على الحقيقة، وزعموا أن الكفر بالله هو الجحود والإنكار له باللسان. مقالات الإسلاميين (ص١٤١).

الطائفة الرابعة: الجهمية يقولون: يكفي المعرفة؛ يعني: يكفي أنك تعرف أنَّ الرب واحدٌ، أما أن تؤمن أو ما تؤمن فهذا لا يضر.

وهذه الطوائف الأربع كلهم مرجئةٌ، فالصواب في تعريف الإيمان أن يضاف إليه: وعملٌ بالأركان، ويضاف إليه أيضاً: يزيد بالطاعة وينقص بالعصيان - كما سيأتي[١] -، وهذا تعريف أهل السُّنة والجماعة.

ثم قال رحمه اللَّه: **(وَإِنَّ جَمِيعَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى فِي القُرْآنِ)** يعني: جميع آيات القرآن، **(وَجَمِيعَ مَا صَحَّ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم)** يعني: جميع ما جاء من أحاديث ثابتة عن النبي صلى الله عليه وسلم سواء كانت متواترةً أو آحاداً، **(مِنَ الشَّرْعِ)** يعني: الوحي، **(وَالبَيَانِ)** هذا عطف خاصٍّ على عامٍّ، فالشرع من صفاته: البيان، وكذا من صفاته: البلاغ، ومن صفاته: التعليم، ومن صفاته: أنَّه محكَم؛ قال اللَّه: ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ﴾ [هود: ١]، وهكذا.

---

(١) (ص) عند قوله (وإنما الصواب أن نقول: وأهله في أصله غير سواء).

قال: (كُلُّهُ حَقٌّ) أي: كل ما ورد عن اللَّه سبحانه في القرآن، وما صح عن النبي صلى الله عليه وسلم، من أمور الدين حقٌّ، فنؤمن بها ونتبعها.

ثم بعد ذلك عاد إلى مسألة الإيمان، فقال: (وَالإِيمَانُ وَاحِدٌ) يعني: الإيمان الذي أمر اللَّه عز وجل به واحدٌ، كما قال سبحانه: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ﴾ [الأنعام:١٥٣]، وقال: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام: ١٦١]، وقال سبحانه: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦].

ثم قال: (وَأَهْلُهُ فِي أَصْلِهِ سَوَاءٌ) على قول المصنِّف رحمه الله أن جميع المؤمنين من الصحابة إلى أفسق الناس إيمانهم واحدٌ؛ وهذا غير صحيحٍ، فنقول: هذه العبارة غير سليمةٍ، وهي من معتقد المرجئة.

وإنما الصواب أن نقول: وأهله في أصله غير سواء، فهم يتفاوتون؛ اللَّه عز وجل يقول: ﴿وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَاناً﴾ [المدثر: ٣١]، وقال سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى﴾ [محمد: ١٧]، وقال: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً﴾ [الأنفال: ٢]، والنبي صلى الله عليه وسلم

يقول في حديث أبي سعيد في مسلم[١]: «مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَراً فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ»، وقال: «إِنَّ الْإِيمَانَ لَيَخْلَقُ فِي جَوْفِ أَحَدِكُمْ كَمَا يَخْلَقُ الثَّوْبُ الْخَلِقُ»[٢]، فالإيمان يزيد وينقص.

إذاً قوله: (**وَأَهْلُهُ فِي أَصْلِهِ سَوَاءٌ**) غير صحيح؛ فإيمان أبي بكر رضي الله عنه ليس كإيمان الفساق، وإيمان الصحابة رضي الله عنهم ليس كإيمان من بعدهم، وهكذا؛ بل الصحيح أنهم يتفاوتون، وكما في صحيح البخاري[٣] قال: «فَيَقُولُ: اذْهَبُوا فَمَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ مِنْ إِيمَانٍ فَأَخْرِجُوهُ».

---

(١) كتاب الإيمان، باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان، وأن الإيمان يزيد وينقص، وأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجبان، رقم (٤٩).

(٢) رواه الحاكم في المستدرك، كتاب الإيمان، رقم (٥)، من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

(٣)كتاب التوحيد، باب كلام الرب عز وجل يوم القيامة مع الأنبياء وغيرهم، رقم (٧٥١٠)، من حديث أنسٍ رضي الله عنه.

ثم ذكر أموراً يتفاضلون فيها، وكلها أمورٌ قلبيةٌ، فقال: (وَالتَّفَاضُلُ بَيْنَهُمْ بِالْخَشْيَةِ وَالتُّقَى[١]) نقول: هذا صحيحٌ؛ فمن يخش اللَّه يزيد إيمانه، ومن لا يخشاه ينقص إيمانه، والتقى كذلك.

ثم قال: (وَمُخَالَفَةِ الهَوَى) هذه جملةٌ مجمَلة يَدخل فيها أعمال القلوب، ويَدخل فيها اعمال الجوارح، قال: (وَمُلَازِمَةِ الْأَوْلَى)[٢] يعني: يتسابقون إلى الخيرات.

واللَّه عز وجل قسَّم هذه الأمَّة إلى ثلاثة أقسامٍ، فقال: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [فاطر: ٣٢]، فليس إيمانهم واحدٌ، وتفاضلهم في المراتب هو بسبب تفاضلهم في الإيمان.

وقوله: (**وَالتَّفَاضُلُ بَيْنَهُمْ**) نستطيع أن نرُد على المصنِّف ونقول: إن مخالفة الهوى يَدخل فيه الجوارح، فيلزم منه أن يكون في تعريف الإيمان الجوارح، وإذا كان يقصد مخالفة الهوى بالأعمال القلبية وملازمة

---

(١) المثبت بالمطبوع (بِالتَّقْوَى).

(٢) ليست بالمطبوع، لعلها من نسخة أخرى.

الأولى بالأعمال القلبية؛ نقول: بتعريفك هذا هو مذهب الإرجاء ولا يصح.

فتبين مما سبق أنَّ الإيمان يتفاوت الناس فيه تفاوتاً كبيراً كما بين السماء والأرض، وأنه يزيد وينقص؛ يزيد بالطاعة وينقص بالعصيان، وأنَّ من أفسد أبواب العبادات: الأخذ بمذهب الإرجاء؛ فهو يعطِّل الأعمال الصالحة، واللَّه عز وجل رتَّب الجَنة بالعمل الصالح، قال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [البقرة: ٢٧٧]، وقال: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ* وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧ – ٨]، ومن لوازم قولهم: إبطال الصلاة والصيام، وإبطال الجهاد الحج، وإبطال الأذان والجمعة، وهكذا؛ لأنهم يقولون: يكفي القلب، ومنهم من يقول: يكفي التصديق، ومنهم من يقول: يكفي الإقرار، ومنهم من يقول: يكفي التصديق مع الإقرار؛ وكلها باطلةٌ، فيجب على المسلم أن يَسعى كثيراً للعمل الصالح؛ ليرتقي إيمانه إلى الأعلى.

وَالمُؤْمِنُونَ كُلُّهُمْ أَوْلِيَاءُ الرَّحْمَنِ، وَأَكْرَمُهُمْ: أَطْوَعُهُمْ وَأَتْبَعُهُمْ لِلْقُرْآنِ.

وَإِنَّ الإِيمَانَ هُوَ: الإِيمَانُ بِاللَّهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَاليَوْمِ الآخِرِ، وَبِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ، وَحُلْوِهِ وَمُرِّهِ، مِنَ اللَّهِ تَعَالَى.

وَنَحْنُ مُؤْمِنُونَ بِذَلِكَ كُلِّهِ، لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ، وَنُصَدِّقُهُمْ كُلَّهُمْ عَلَى مَا جَاؤُوا بِهِ.

قال رحمه اللَّه: (**وَالمُؤْمِنُونَ كُلُّهُمْ أَوْلِيَاءُ الرَّحْمَن**) جاء القرآن ببيان من هم الأولياء بقوله عز وجل: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ من هم أولياء اللَّه؟ قال: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٦١ - ٦٢]، فكل مؤمنٍ متَّقٍ يوصَف بأنه وليٌّ من أولياء اللَّه، ولكن لا يُعتقد فيه جلب نفعٍ ولا دفع ضرٍّ، وحقه ألَّا يؤذى، وحقه أيضاً ألَّا يُرفع فوق منزلته، وحقه ألَّا يُهضم شيءٌ من حقوقه أو أن يُخفض أقل من درجته.

وهذا فيه ردٌّ على عبَّاد الأضرحة والأولياء، فاذا قال أحدهم: هذا وليٌّ من الأولياء؛ نقول: كل من أطاع اللَّه واتَّقاه فهو وليٌّ، فليس الأولياء واحداً أو اثنين ونحو ذلك، ونقول له: أنت لو أطعتَ اللَّه واتَّبعت القران

نرجو أن تكون من أولياء اللَّه، فلا تخنع برأسك إلى الأموات والرفات؛ وإنما ارفع رأسك لرب العالمين في السماء، بتوحيده وإفراده بالعبادة.

وقوله: (**وَالمُؤْمِنُونَ كُلُّهُمْ أَوْلِيَاءُ الرَّحْمَن**) كما قال سبحانه: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧]، وقال: ﴿إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٦]، وقال: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ﴾ [محمد: ١١].

فإذا قيل: ما معنى أنَّ اللَّه يتولى المؤمن؟ نقول: ينصره ويدافع عنه، ويتولى أمره ويحفظه من الشرور والآفات، ويَجلب إليه الخير ويدفع عنه الشر، قال سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الحج: ٣٨]، قال ابن كثير رحمه اللَّه: «وهذه المدافعة على قرب العبد من اللَّه، فإذا كان طائعاً للَّه زادت تلك المدافعة، وإذا قلَّت عبادته قل الدفاع عنه»[(١)]، فاللَّه سبحانه يتولى الصالح بكذب الناس عليه مثلاً أو الافتراء عليه مثلاً، ويدحر عدوه؛ لأن اللَّه عز وجل قد وعد بنصرة من أطاعه؛ قال عز وجل

---

(١) ذَكر المحقق أنها في نسخةٍ أخرى. تفسير ابن كثير (٦/ ٤٣٣).

في الحديث القدسي: : «مَنْ عَادَى لِي وَلِيّاً فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالحَرْبِ»[1]، و من أذن اللَّه عز وجل بحربه أهلكه؛ إما بفضيحته في ذلك الأمر، وإما بخزيه وذلته، وإما بعقوبة عليه تَنزل، أو غير ذلك من الأمور الذي يتولاه اللَّه عز وجل بما شاء.

ولهذا يجِب على المسلم أن يطيع اللَّه عز وجل ليحفظه ويدحر عنه شرور الأعداء والحساد والحاقدين ونحو ذلك، ويكون متعلِّقاً به جل وعلا، فإذا كان العبد من أولياء اللَّه كان محفوظاً منصوراً بإذنه تعالى.

وكل مسلمٍ إذا كان طائعاً للَّه متَّقياً له؛ نحبه وننصره، فله من نصرة اللَّه بقدر تلك الطاعة، وإذا كان المسلم فيه معصية؛ نقول: له نصرةٌ، لكنها نصرةٌ ضعيفةٌ؛ لكثرة ذنوبه، وهكذا.

ثم قال: (وَأَكْرَمُهُمْ: أَطْوَعُهُمْ) فمن أطاع اللَّه سبحانه فهو الأكرم؛ كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]، وفي

(١) رواه البخاريُّ، كتاب الرقاق، باب التواضع، رقم (٦٥٠٢)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

صحيح مسلمٍ[١]: «مَنْ بَطَّأَ بِهِ عَمَلُهُ، لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ»، وأبو لهب قرشيٌّ ما نفعه نسبه، وبلال حبشيٌّ أسود رفعه إيمانه.

قال: (وَأَتْبَعُهُمْ لِلْقُرْآنِ) فكل من اتبع القران رفعه اللَّه عز وجل؛ كما قال سبحانه: ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً﴾ [البقرة: ٢٦]، وقال النبي عليه الصلاة والسلام: «إِنَّ اللَّهَ يَرْفَعُ بِهَذَا الْقُرْآنِ أَقْوَاماً»[٢]، فمن كان متّبعاً للقرآن رفعه اللَّه، ومن أكثر من تلاوة القران نفعه اللَّه، قال ابن كثير رحمه اللَّه: «وفي عهد الدولة العثمانية – يعني: عهد عثمان رضي الله عنه – اتسعت الفتوحات وكثرت الغنائم؛ وذلك ببركة كثرة تلاوة عثمان رضي الله عنه القرآن ونشره في الآفاق»[٣].

(١) كتاب الذِّكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر، رقم (٢٦٩٩)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) رواه الدارميُّ، كتاب فضائل القرآن، باب: إن الله يرفع بهذا القرآن أقواماً ويضع آخرين، رقم (٣٤٠٨)، من حديث عمر رضي الله عنه.

(٣) تفسير ابن كثير (٦/ ٧٨).

لذلك قال: (**وَأَتْبَعُهُمْ لِلْقُرْآنِ**) فكلما كان الشخص مكثِراً من تلاوة القران متدبّراً له، متَّبعاً لأوامره مجتنباً لنواهيه؛ كان بإذن اللَّه من أولياء الرحمن.

ثم قال: (**وَإِنَّ الإِيمَانَ**) يقصد هنا رحمه الله أركان الإيمان؛ لأنَّ تعريف الإيمان سبق عند قوله: (**وَالإِيمَانُ: هُوَ الإِقْرَارُ بِاللِّسَانِ، وَالتَّصْدِيقُ بِالجَنَانِ**).

وهنا قال: (**وَإِنَّ الإِيمَانَ**) أي: أركان الإيمان (**هُوَ: الإِيمَانُ بِاللَّهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَاليَوْمِ الآخِرِ، وَبِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ، وَحُلْوِهِ وَمُرِّهِ، مِنَ اللَّهِ تَعَالَى**) هذه الستة هي أصول الدين، وكل الأركان ترجع إلى الإيمان باللَّه، فيتفرع من الإيمان باللَّه: الإيمان بالكتب والملائكة، والرسل واليوم الآخر، وبالقدَر خيره وشره.

وإذا تأملتَ أصول الدين هذه الستة تجِدها غَيبيةً سابقةً؛ يعني: مثلاً تؤمن بالملائكة وما رأيتَهم، وتؤمن بالكتب أنها نزلت وما رأيتَها، وتؤمن بالقرآن لكن ما رأيتَ نزوله، والوحي وهو ينزل على النبي صلى الله عليه وسلم ما يراه الصحابة لكن يَرون أثر نزول الوحي عليه، واليوم الآخر كذلك غَيبيٌّ؛ ولهذا أثنى اللَّه عز وجل على المؤمنين بالغيب، وجعل

ذلك أوَّل صفةٍ من صفات المتقين في أوَّل كتابه القرآن، فقال سبحانه: ﴿الم * ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ [البقرة: ١-٣]، لذلك أصبحت أصول الدِّين من أمور الغيب؛ لأن الغيب أمره عظيمٌ وثوابه كبيرٌ عند اللَّه بالإيمان به، لذلك عظمت منزلته وعلت درجته.

ولهذا يتخذ العبد عنده قاعدة وهي: كل أمرٍ جاءت به النصوص يقول: ﴿آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران: ٧]، حتى ولو لم يره، فإن هذا من الإيمان بالغيب، ومن ذلك: الإيمان بصفات اللَّه عز وجل، مثل: قربه من عابديه وسائليه، ومثل: النزول إلى السماء الدنيا في الثلث الأخير من الليل.

لذلك قال رحمه اللَّه: **(وَنَحْنُ مُؤْمِنُونَ بِذَلِكَ كُلِّهِ)** يعني: بتلك الأركان الستة، **(لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ)** يعني: في تصديق ما جاؤوا به من أمور الغيب، وعندنا آيتان في كتاب اللَّه؛ الأُولى: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، والثانية: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ [البقرة: ٢٥٣]، الجَمع بينهما: قوله: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾ [البقرة: ٢٨٥] يعني: في الإيمان بهم، فكلنا مؤمنون بهم،

وقوله: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ [البقرة: ٢٥٣] أي: في درجاتهم.

قال: (وَنُصَدِّقُهُمْ كُلَّهُمْ عَلَى مَا جَاؤُوا بِهِ) من أمور الغيب أو أمور الشهادة، فإن هذا من الإيمان، ومن ذلك: الإيمان بصفات اللَّه؛ لأن المصنِّف رحمه الله أَلَّف ذلك في العقيدة، فنؤمن بأسماء اللَّه وبصفاته، ونفرِده سبحانه بالوحدانية، ونعظِّم جناب ربوبيته جل وعلا.

وَأَهْلُ الكَبَائِرِ؛ فِي النَّارِ لَا يُخَلَّدُونَ إِذَا مَاتُوا وَهُمْ مُوَحِّدُونَ، وَإِنْ لَمْ يَكُونُوا تَائِبِينَ، بَعْدَ أَنْ لَقُوا اللَّهَ عَزَّوَجَلَّ عَارِفِينَ.

الذنوب تنقسم إلى أقسامٍ:

القِسم الأوَّل: أن تكون شركاً؛ فالشرك لا يغفره اللَّه عز وجل، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨]، وقال: ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ﴾ [المائدة: ٧٢]، وقال سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيراً* خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً﴾ [الأحزاب: ٦٤-٦٥].

والقِسم الثاني: أن تكون من كبائر الذنوب، فهذا إذا تاب الشخص منها وهو صادقٌ في توبته؛ قال ابن القيم رحمه اللَّه: «إن التوبة تكفر عنه سيئاته قطعاً»[١]؛ يعني: من تاب حقّاً يُغفر عنه ما قد سلف، قال سبحانه: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨]، فمن تاب تُقبل توبته، والكبائر لا تكفِّرها المكفِّرات مثل: الجمعة إلى الجمعة، والعمرة إلى العمرة، ومثل الإكثار من الطاعات، فلا يَغفر الكبائر إلا التوبة.

---

(١) الداء والدواء (١/ ٤٣).

والقِسم الثالث: أن تكون من صغائر الذنوب، وهذه كما قال سبحانه: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ [النساء:٣١]، فبالحسنات تُغفر بإذن اللَّه.

والقِسم الرابع: أن تكون من لَمَم الذنوب، وهذه النبي عليه الصلاة والسلام يقول: «فِتْنَةُ الرَّجُلِ فِي أَهْلِهِ وَمَالِهِ وَوَلَدِهِ وَجَارِهِ، تُكَفِّرُهَا الصَّلَاةُ وَالصَّوْمُ وَالصَّدَقَةُ»[١].

ثم نتكلم الآن عن أمور الآخرة، فالشرك في الآخرة ما يُغفر، والكبيرة في الآخرة تحت المشيئة؛ إن شاء اللَّه عز وجل عذَّب العبد على قدر ذنبه ثم يَدخل إلى الجَنة - وهذا في الملحدين -، وإن شاء غفر اللَّه عز وجل له ذنبه ولم يدخله النار، قال في الفتح المجيد[٢]: «ومآل كل موحّد في الجَنة»[٣]؛ يعني: إذا كان الموحِّد موحِّداً حقيقة التوحيد فحتى

---

(١) رواه البخاريُّ، كتاب مواقيت الصلاة، باب: الصلاة كفارةٌ، رقم (٥٢٥)، من حديث حذيفة رضي الله عنه.

(٢) فتح المجيد شرح كتاب التوحيد، لعبد الرحمن بن حسن بن محمد بن عبد الوهاب بن سليمان التميمي رحمه الله. الدرر السنية في الأجوبة النجدية (١٦/ ٤٠٩).

(٣) (ص ٤٤).

لو عمل ما عمل من الذنوب سواء دخل النار أو لم يدخل النار فإنَّ مآله إلى الجَنة، مثل: لو أنَّ شخصاً موحِّد لكنه يَسرق؛ نقول: هو يوم القيامة تحت المشيئة؛ إن شاء اللَّه غفر ذنبه وأدخله الجَنة، وإن شاء اللَّه أدخله النار على قدر ذنبه، ثم يخرجه ويدخله الجَنة.

والصغائر في الآخرة تدخل ضمن قوله عز وجل: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ [هود:١١٤]، واللمم يدخل أيضاً ضمن قوله عز وجل: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ [هود:١١٤]، ولمَّا نزل قول اللَّه عز وجل: ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ﴾ [النساء: ١٢٣] قال أبو بكر: وأينا لم يعمل سوءا؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «أَلَسْتَ تَمْرَضُ؟ أَلَسْتَ تَنْصَبُ؟ أَلَسْتَ تَحْزَنُ؟ قَالَ: بَلَى، قال: فَتِلْكَ كَفَّارَتُهَا»(١).

(١) رواه أحمد في المسند، رقم (٧١)، من حديث أبي بكرٍ رضي الله عنه، ولفظه: «لَمَّا نَزَلَتْ: {لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ} قَالَ أَبُو بَكْرٍ: يَا رَسُولَ اللهِ! إِنَّا لَنُجَازَى بِكُلِّ سُوءٍ نَعْمَلُهُ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: يَرْحَمُكَ اللهُ يَا أَبَا بَكْرٍ، أَلَسْتَ تَنْصَبُ؟ أَلَسْتَ تَحْزَنُ؟ أَلَسْتَ تُصِيبُكَ اللَّأْوَاءُ؟ فَهَذَا مَا تُجْزَوْنَ بِهِ».

وتعريف الكبيرة هي: ما ترتب عليها حّدٌّ في الدنيا أو وعيدٌ في الآخرة[١]؛ حدٌّ في الدنيا؛ مثل: الزنا أو السرقة، ووعيد في الآخرة؛ مثل آكل الربا ما فيه حدٌّ في الدنيا؛ وإنما الوعيد عليه في الاخرة؛ كما في الحديث: «لَعَنَ اللَّهُ آكِلَ الرِّبَا، وَمُوكِلَهُ، وَشَاهِدَهُ، وَكَاتِبَهُ»[٢]، وكذا عقوق الوالدين ما فيه حدٌّ في الدنيا لكن عقوبته في الآخرة، وكذا قطيعة الرحم، وهكذا.

والصغيرة هي: ما لم يترتب عليها حدٌّ في الدنيا أو وعيدٌ في الاخرة، لكن الصغيرة إذا استمر الشخص على فعلها تكون كبيرة.

وأهل السُّنة والجماعة يعتقدون أن صاحب الكبيرة لا يخلَّد في النار وإنما هو تحت المشيئة، بخلاف الخوارج والمعتزلة فإنهم يخلِّدونه في النار، والفَرق بين الخوارج والمعتزلة: أن الخوارج يكفِّرونه في الدنيا، وأما المعتزلة فلا يكفِّرونه؛ وإنما يقولون: هو في منزلة بين منزلتين؛ بين الإيمان والكفر، ما هي هذه المنزلة؟ يقولون: ما نَعلم، فهو ليس بمؤمنٍ وليس بكافرٍ؛ وهذا لا شك ردٌّ للنصوص وتذبذبٌ في المعتقد.

---

(١) التحبير شرح التحرير (٤/ ١٨٧٩).

(٢) رواه أحمد في المسند، رقم (٣٧٢٥)، من حديث ابن مسعودٍ رضي الله عنه.

لهذا قال المصنِّف رحمه اللَّه: (وَأَهْلُ الْكَبَائِرِ مِنْ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم[١] لَا يُخَلَّدُونَ) قوله: (مِنْ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم) نقول: لو أن المصنِّف لم يَذكرها كان أَولى؛ لأن أهل الكبائر حتى من غير أمَّة محمدٍ عليه الصلاة والسلام لا يخلَّدون، أما الذي يخلَّد هو المشرك، لذلك في بعض النسخ[٢] هذه العبارة غير موجودةٍ، فالعبارة تكون: (وَأَهْلُ الكَبَائِرِ؛ فِي النَّارِ لَا يُخَلَّدُونَ) سواء كانوا من هذه الأمَّة أو من غير هذه الأمَّة، فهم لا يخلَّدون (إِذَا مَاتُوا وَهُمْ مُوَحِّدُونَ) فلا بد من شرط التوحيد، فالذي يموت على غير التوحيد لا ينفعه الشرك؛ وإنما يكون مخلَّداً في النار، فلا تنفعه حسناته وإن عمل ما عمل.

قال: (وَإِنْ لَمْ يَكُونُوا تَائِبِينَ) فإذا تاب صاحب الكبيرة يُغفر له، أما إذا لم يتب وأتى يوم القيامة: نقول: هو تحت المشيئة؛ يعني: لو أن شخصاً يَشرب الخمر وهو موحِّد، ومات وهو يشرب الخمر، ولم يتب؛ نقول: هو تحت المشيئة، وكذا لو أنَّ شخصاً قتل مئة نفس، وما تاب؛ نقول: تحت المشيئة حتى ولو لم يتب.

(١) ليست في المطبوع، لعلها في نسخة أخرى.

(٢) كما في المطبوع.

لذلك قال: (وَإِنْ لَمْ يَكُونُوا تَائِبِينَ) فإذا تابوا في الدنيا يُغفر لهم ما قد سلف؛ كما قال سبحانه: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً﴾ الكبائر وغير الكبائر ﴿إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣]، فمن أقبل إلى اللَّه عز وجل تقبَّله اللَّه عز وجل وتقبَّل توبته.

قال: (بَعْدَ أَنْ لَقُوا اللَّهَ عَزَّوَجَلَّ عَارِفِينَ) يعني: إذا لقوا اللَّه وهم موحِّدون فإن صاحب الكبيرة يكون تحت المشيئة؛ إن شاء اللَّه عز وجل بعفوه ومغفرته ولطفه عفا عنه، وإن شاء سبحانه بعدله وحكمته عذَّبه على قدْر ذنْبه وهو غير ظالمٍ له.

فتبيَّن مما سبق أنَّ صاحب الكبيرة عند أهل السُّنة والجماعة لا يخلَّد في النار حتى ولو لم يتب، وهذا أمرٌ عظيمٌ، وفيه حسن ظنٍّ باللَّه عز وجل، وهذا يدلك أيضاً على عِظم التوحيد؛ حيث أن التوحيد هو الذي لا يخلَّد صاحبه في النار.

فلهذا يجِب على الشخص أن يتمسك بهذا التوحيد ويتعلمه، ويدعو إليه ويعلِّم الناس توحيد ربهم حتى ولو في متونٍ يسيرةٍ سهلةٍ، مثل: ثلاثة الأصول، القواعد الأربعة، كتاب التوحيد - وكلها للشيخ محمد بن عبد

الوهاب رحمه الله -؛ لأنَّ كل عبد مأمور بالتوحيد وتعليمه، حتى ولو كان الشخص يَعلم ذلك، لكن لتنظيف قلبه من درن المعاصي وشبهات الشرك ونحو ذلك.

وَهُمْ فِي مَشِيئَتِهِ وَحُكْمِهِ:

إِنْ شَاءَ غَفَرَ لَهُمْ وَعَفَا عَنْهُمْ بِفَضْلِهِ، كَمَا ذَكَرَ عز وجلَّ فِي كِتَابِهِ: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾.

وَإِنْ شَاءَ عَذَّبَهُمْ فِي النَّارِ بِعَدْلِهِ، ثُمَّ يُخْرِجُهُمْ مِنْهَا بِرَحْمَتِهِ وَشَفَاعَةِ الشَّافِعِينَ مِنْ أَهْلِ طَاعَتِهِ، ثُمَّ يَبْعَثُهُمْ إِلَى جَنَّتِهِ.

ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى مَوْلَى أَهْلِ مَعْرِفَتِهِ، وَلَمْ يَجْعَلْهُمْ فِي الدَّارَيْنِ كَأَهْلِ نُكْرَتِهِ، الَّذِينَ خَابُوا مِنْ هِدَايَتِهِ، وَلَمْ يَنَالُوا مِنْ وَلَايَتِهِ.

اللَّهُمَّ - يَا وَلِيَّ الإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ - مَسِّكْنَا بِالإِسْلَامِ حَتَّى نَلْقَاكَ بِهِ.

قال رحمه اللَّه: (**وَهُمْ**) أي: أهل الكبائر بين أمرين؛ إن شاء اللَّه عز وجل عذبهم، وإن شاء غفر لهم بفضله ورحمته، مثل: لو أنَّ شخصاً يقطع الطريق ويسرق ويعق والديه، وهو موحِّد؛ نقول: هو يوم القيامة تحت المشيئة، كما قال المصنِّف: (**وَهُمْ فِي مَشِيئَتِهِ وَحُكْمِهِ**).

القِسم الأوَّل: قال: (**إِنْ شَاءَ غَفَرَ لَهُمْ وَعَفَا عَنْهُمْ بِفَضْلِهِ، كَمَا ذَكَرَ عز وجلَّ فِي كِتَابِهِ: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾**).

القِسم الثاني: قال: (**وَإِنْ شَاءَ عَذَّبَهُمْ فِي النَّارِ بِعَدْلِهِ**) يعني: يعذِّب أهل الكبائر وهو غير ظالمٍ لهم، كما قال سبحانه: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ

كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [النحل: ١١٨]، وقال سبحانه: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ﴾ [الزخرف: ٧٦]، وقال سبحانه: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦]، وقال سبحانه: ﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِلْعِبَادِ﴾ [غافر: ٣١]، فيعذِّبهم على قدْر ذنْبهم لا يزاد عليه في شيءٍ من ذلك، ويدخلون النار بسبب ذنوبهم.

قوله: (**فِي النَّارِ**) هناك عقوباتٌ غير النار وهي قبل النار، مثل: العقوبة في القبر؛ فهذه قد تحط من الخطايا، وكذلك هناك عقوباتٌ في الدنيا يصاب بها الشخص، وهناك مكفِّراتٌ.

قال: (**ثُمَّ يُخْرِجُهُمْ مِنْهَا بِرَحْمَتِهِ وَشَفَاعَةِ الشَّافِعِينَ مِنْ أَهْلِ طَاعَتِهِ**) يعني: إما أن يخرجوا من النار برحمة اللَّه سبحانه، حتى ولو لم يكملوا عذابهم، أو إذا أكملوا عذابهم وهنا ذكر المصنِّف رحمه الله أمرين اثنين:

الأمر الأوَّل: أنهم يخرجون من النار بعد أن عُذبوا.

والأمر الثاني: لا يكمَل عذابهم، ويخرجون من النار بشفاعة الشافعين، فالموحِّد من أهل الجَنة يكرمه اللَّه عز وجل بأن يَشفع لأحدٍ من أهل النار ألَّا يَدخلها إذا كان المشفوع له أيضاً موحِّداً.

ثم قال: (**ثُمَّ يَبْعَثُهُمْ إِلَى جَنَّتِهِ**) أي: إذا أُخرجوا من النار يَبعثهم إلى

الجَنة؛ أي: يُدخلهم الجَنة.

قال: (ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى مَوْلَى أَهْلِ مَعْرِفَتِهِ) يعني: تولاهم في الدارين؛ في الدنيا حمى دمائهم، فلا يجوز أن يُقتلوا – يعني: أهل الكبائر الموحِّدين –، ولا يجوز كذلك أن يوصَفوا بوصف الكفر؛ لأنهم ما زالوا مسلمين، وفي الآخرة لا يجعلهم سبحانه مثل المشركين المخلَّدين في النار.

لذلك قال المصنِّف: (وَلَمْ يَجْعَلْهُمْ فِي الدَّارَيْنِ كَأَهْلِ نُكْرَتِهِ) يعني: لم يجعل الموحِّدين مثل أهل النكران؛ يعني: لم يجعل الموحِّد مثل المشرك، فالموحِّد صاحب الكبيرة يدخل النار ثم يَخرج منها إن دخلها؛ يعني: حتى ولو صاحب الكبيرة الموحِّد عمل معصيةً في الدنيا فليس حاله كحال المشرك وإن كان مخطئاً، لكن لا نكفِّره في الدنيا؛ بل نبقي له وصف الإسلام، لكنه مؤمنٌ عاصي.

فإذا قيل: لماذا قال النكرة؟ نقول: لأنه ذكر المعرفة، فقابل المعرفة بالنكرة، والمعرفة يعني: الموحِّد، وغير الموحِّد المنكِر وهو المشرك.

قال: (الَّذِينَ خَابُوا) أي: أهل الشرك (مِنْ هِدَايَتِهِ) يعني: ما نالوها فحصل لهم الخيبة والذل والهوان، (وَلَمْ يَنَالُوا مِنْ وَلَايَتِهِ) كما قال

سبحانه: ﴿وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ﴾ [محمد: ١١]، فصاحب الكبيرة اللَّه يتولاه بلا شك بسبب توحيده، لكن الولاية له ناقصةٌ بسبب ما يرتكبه من الذنوب، أما الكافر فليس له ولايةٌ.

ثم قال: **(اللَّهُمَّ - يَا وَلِيَّ الإِسْلَامِ)** فلا شك اللَّه عز وجل هو الذي تولَّى هذا الدين، قال سبحانه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]، فمن حفظ القران هو من حفظ الدين، لذلك قال النبي عليه الصلاة والسلام: «لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي عَلَى الحَقِّ مَنْصُورَةٌ لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَالَفَهُمْ، وَلَا مَنْ خَذَلَهُمْ»(١) وهذا من حفظ الدين.

قال: **(وَأَهْلِهِ -)** يعني: أهل الإسلام، كما قال سبحانه : ﴿إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٦]، وقال يوسف: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ [يوسف: ١٠١]، فهذا التولي لأهل الإسلام، وقال سبحانه: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ [المائدة: ٥٥].

---

(١) رواه أحمد في المسند، رقم (١٦٩٣٢)، من حديث معاوية رضي الله عنه.

فتبيَّن أن اللَّه هو ولي الإسلام، وأن اللَّه هو ولي أهل الإسلام، وإذا كان عز وجل هو ولي الإسلام فمن طعن في الإسلام ناله الخسران، ومن طعن بالإسلام أو استهزأ بالإسلام خرج منه وتدهده[(١)] عليه، لذلك قال النبي عليه الصلاة والسلام: «وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ»[(٢)]؛ لأنه قويٌّ بقوة اللَّه.

قال: (مَسِّكْنَا بِالإِسْلَامِ) هذه دعوةٌ عظيمةٌ دعا بها يوسف عليه السلام؛ ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١]، ودعا يوسف كذلك في مثل هذه الدعوة: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [يوسف: ٣٣]، قال شيخ الإسلام: «فدعا ربه بالثبات»[(٣)].

والعيش في سبيل اللَّه أعظم من الجهاد في سبيل اللَّه؛ يعني: العيش في مجاهدة النفس عن الشهوات، ومجاهدة النفس في طلب العِلم

---

(١) أي: تدحرج وذهب. لسان العرب (١٣/ ٤٨٩).

(٢) رواه البخاريُّ، كتاب الإيمان، باب الدين يُسر، رقم (٣٩)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) مجموع فتاوى شيخ الإسلام (١٥/ ١٣٠).

والطاعات، أعظم من الذي يجاهد على الثغور ويُقتل في سبيل اللَّه؛ لأن حياته أطول ويتقلب الشخص في فتنٍ ومحنٍ وابتلاءاتٍ مَن ثبت عليها رفعه اللَّه، واللَّه عز وجل قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

قال: (حَتَّى نَلْقَاكَ بِهِ) قال سبحانه لنبيه عليه الصلاة والسلام: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٩]؛ يعني: الموت[1]، أي: استمر على الطاعة، واللَّه قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩]، وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [النساء: ١٣٦].

فيستمر الشخص ويدعو ربه بالثبات على هذا الدين حتى الممات، والفتن إذا خرجت تَسقط الرجال، وانظر إذا خرجت فتنةً كم من رجلٍ يسقط؛ لذلك يدعو الشخص ربه كثيراً بالثبات على هذا الدين، ولهذا كان من أكثر أيمان النبي صلى الله عليه وسلم كان يقول: «لا ومقلِّبِ

---

(١) تفسير الطبري (١٤/ ١٥٤).

القلوب»، وكان يدعو كثيراً بالثبات على هذا الدين كما في حديث عائشة يقول: «يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ! ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ»[1].

فيدعو الشخص لا سيما في عصر الفتن وتقلب الأحوال بالثبات على هذا الدين، والبعد عن الفتن، فيدعو الشخص فيقول: اللَّهم ثبِّتني على هذا الدين، اللَّهم اصرف عني الفتن ما ظهر منها وما بطن؛ لأنه تغيَّرت قلوب رجالٍ رأوا النبي عليه الصلاة والسلام وصلُّوا معه، فلمَّا مات تقلب حالهم، وهم أهل الردة؛ لأن الإيمان ما وَقر في قلوبهم.

فالثبات على الدين صعبٌ جدّاً، لكن مما ييسِّره كثرة الدعاء، ثم طلب العِلم والصحبة الصالحة، والإكثار من التعبد للَّه سبحانه من قيام الليل وكثرة الذِّكر، وكثرة الاستغفار وقراءة القرآن، وهكذا، ومما ييسِّره أيضاً: أن يَصرف الشخص بصره وسمعه عن أمور الفتن والشبهات.

وأغلى ما يَملك كل مخلوق لا شك هو الدِّين؛ فاحذر أن يُنزع منك دِينك، أو أن تكون قد أُصبتَ في دِينك، أو قد تَلطخ دِينك، أو قد حصل فيه قوادح ونواقص، فالذي تَنعم به في الدنيا والآخرة هو الدِّين، واللَّه عز وجل أمر رسوله بقوله: ﴿فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى

---

(١) رواه أحمد في المسند، رقم (٢٤٦٠٤).

صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الزخرف: ٤٣]، نسأل اللَّه لنا ولكم الثبات حتى الممات، وأن يَصرف عنا وعنكم الفتن ما ظهر منها وما بطن.

وَنَرَى الصَّلَاةَ خَلْفَ كُلِّ بَرٍّ وَفَاجِرٍ مِنْ أَهْلِ القِبْلَةِ، وَعَلَى مَنْ مَاتَ مِنْهُمْ.

وَلَا نُنْزِلُ أَحَداً مِنْهُمْ جَنَّةً وَلَا نَاراً.

وَلَا نَشْهَدُ عَلَيْهِمْ بِكُفْرٍ وَلَا بِشِرْكٍ وَلَا بِنِفَاقٍ، مَا لَمْ يَظْهَرْ مِنْهُمْ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ، وَنَذَرُ سَرَائِرَهُمْ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى.

الأصل أن الإمامة تكون للرجل العدل؛ يعني: أن يكون الإمام ذا استقامة ودِين، فاذا اختلَّت فيه الاستقامة فمذهب أهل السُّنة والجماعة مذهبٌ وسطٌ، فالخوارج كما سبق[١] أن صاحب الكبيرة يَكفر، وبناءً عليه لا يصلُّون خلفهم، والمرجئة عندهم صاحب الكبيرة يقولون: لا يضر هذا مع الإيمان.

أما أهل السُّنة وسط؛ فلا نقول: إنه يَكفر بتلك الكبيرة التي فعلها وأصبح فاجراً بسببها، ولا نقول: إنه لا يضر مع إيمانه ذنب؛ بل نقول: إنه يضر مع إيمانه فعل ذلك الذنب، لكن نصلِّي خلفه، فما دام أن الرجل لم يظهر منه ناقضٌ من نواقض الاسلام فإن أهل السُّنة متفقون على صحة الصلاة خلفه سواء كان ذا معصيةٍ، أو كان صاحب بدعةٍ، بل ولو

---

(١) (ص) عند قوله (أن الخوارج يكفِّرونه).

كان داعيةً إلى بدعته، أما إذا ظهر عليه شيءٌ من الكفر أو الشرك فلا تجوز الصلاة خلفه.

ويجب على من بيده وضع الأئمة أن يكون الإمام ذا استقامةٍ وصلاحٍ ودِينٍ وصاحب هدايةٍ ومروءةٍ، فاذا اختل شيءٌ من ذلك فكان الإمام الراتب صاحب معصيةٍ أو بدعةٍ؛ نصلِّي خلفه، بل وننكر على الذي لا يصلِّي خلفه، والنبي عليه الصلاة والسلام لمَّا سئل عن أئمة الجور: هل يصلَّى معهم؟ قال: «صَلُّوا، فَإِنْ أَصَابُوا فَلَكُمْ، وَإِنْ أَخْطَئُوا فَلَكُمْ وَعَلَيْهِمْ»[1].

لذلك قال رحمه اللَّه: (وَنَرَى الصَّلَاةَ خَلْفَ كُلِّ بَرٍّ) يعني: كل رجلٍ مستقيمٍ؛ وهذه لا إشكال فيها، (وَفَاجِرٍ) يعني: الصلاة خلف الفاجر صحيحةٌ كالصلاة خلف الرجل البَر التقي، ولا يُنظر هل توضأ للصلاة أم لم يتوضأ للصلاة، فما دام أنه لم يُظهِر شركاً ولا كفراً نصلِّي خلفه، وهذا من معتقدات أهل السُّنة العظيمة.

(١) رواه البخاريُّ، كتاب الأذان، باب: إذا لم يتم الإمام وأتم من خلفه، رقم (٦٩٤)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ومن ثمراتها: عدم بحث المسلم وخوضه في شيءٍ من مقتضيات ربوبية اللَّه عز وجل، وهو الدخول في صدور الآخرين والبحث عنهم؛ لأن اللَّه عز وجل هو المختص بذلك؛ كما قال عز وجل: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [آل عمران: ١٥٤]، وقال: ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [هود: ٥]، فمن بحث في النيات والأفعال ونحو ذلك فقد نازع الرب في صفاتٍ هي من اختصاصه وهو عِلم ذات الصدور.

ومن ثمرات ذلك أيضاً: أن يكون المجتمع لا يبحث عن الظن ولا غير ذلك من الشكوك، وقد يقع الشخص في شيءٍ من المعصية إن فعل ذلك، واللَّه عز وجل يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ [الحجرات: ١٢]، وقال: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً﴾ [الإسراء: ٣٦].

ومن ثمرات ذلك أيضاً: أن يكون المجتمع متآلفاً، فيصلُّون خلف إمامٍ واحدٍ، ولو ظهر منه قصورٌ، ويدهم واحدةٌ حتى يخافهم الأعداء، ويهابهم من يتربص بهم من غير هذه الملة أو من أهل النفاق ونحو ذلك.

والإسلام أتى بجلب المصالح ودرء المفاسد، فما دام الإمام هذا من أهل القبلة نصلِّي خلفه مع وجوب نصحه – يعني: الإمام الفاسق – المستمر بلزوم السُّنة والكتاب والبعد عن المعاصي.

وابن عمر[1] رضي الله عنه كان يصلِّي خلف الحجاج بن يوسف[2]، وهو كما هو معلومٌ قد بلغ من الظُّلم الشيء الكثير، لذلك لمَّا ترجم له الذهبي رحمه الله قال: «الحجاج بن يوسف أهلكه اللَّه»[3]، ومع ذلك الصحابة كانوا يصلُّون خلفه؛ لهذا المعتقد العظيم، ولئلا تتفرق شوكة المسلمين وتضعف، وكذلك ابن مسعود رضي الله عنه كان يصلِّي خلف الوليد بن عقبة بن أبي معيط[4] وهو يَشرب الخمر، فلمَّا

(١) هو: عبد الله بن عمر بن الخطاب بن نفيل القرشيّ العدويّ، وُلد سنة (٣من البعثة)، وتوفي رضي الله عنه سنة (٧٣هـ). الإصابة في تمييز الصحابة (٦/ ٢٩٠).

(٢) هو: الحجاج بن يوسف بن الحكم الثقفي، وُلد سنة (٤٠هـ)، وتوفي سنة (٩٥هـ). سير أعلام النبلاء (٤/ ٣٤٣)، الوافي بالوفيات (١١/ ٢٣٦).

(٣) سير أعلام النبلاء (٤/ ٣٤٣).

(٤) هو: أبو وهب الوليد بن عقبة بن أبي معيط – واسم أبي معيط: أبان بن أبي عمرو – الأموي، أسلم يوم فتح مكة، توفي رضي الله عنه بالرقة. الاستيعاب في معرفة الأصحاب (٤/ ١٥٥٢).

صلى الفجر أربع ركعات قال: أزيدكم، قال: لا، قال له: ما زلنا معك منذ صليتَ بنا، لأن الصحابة رضي الله عنهم على هذا المعتقد الكبير وهو الصلاة خلف البَر والفاجر.

لذلك قال المصنِّف: (**وَنَرَى الصَّلَاةَ خَلْفَ كُلِّ بَرٍّ وَفَاجِرٍ**) فإذا قال شخصٌ: نصلِّي خلفه وهو يشرب الخمر؟! نقول: نعم؛ النبي صلى الله عليه وسلم قال: «صلُّوا، فَإِنْ أَصَابُوا فَلَكُمْ، وَإِنْ أَخْطَئُوا فَلَكُمْ وَعَلَيْهِمْ»[١]، ولفعل الصحابة رضي الله عنهم، وهو الذي أجمع عليه السلف رحمهم اللَّه[٢].

قال: (مِنْ أَهْلِ القِبْلَةِ) يعني: لا نصلِّي على من كان مشركاً، ولا نصلِّي مع يهوديٍّ ولا نصرانيٍّ ونحو ذلك، فنصلِّي مع من كان مظهراً لنا الإسلام، وكما سيأتي نذَر سريرته إلى اللَّه عز وجل.

(وَعَلَى مَنْ مَاتَ مِنْهُمْ) يعني: نصلِّي صلاة الجنازة على فجار المسلمين؛ لأن النبي عليه الصلاة والسلام لم يَدعِ الصلاة على أحدٍ من

---

(١) سبق تخريجه بالصفحة السابقة.

(٢) لم أقف عليه.

اهل المعاصي أو الكبائر؛ سوى على الغالّ فقال: «صَلُّوا عَلَى صَاحِبِكُمْ»[١]، وكذا القاتل نفسه[٢]؛ من باب التعزير.

فإذاً نصلِّي على من كان من أهل القبلة، أما من كان من غير أهل القبلة ما نصلِّي عليه؛ كمثل من أظهر لنا الكفر من أهل النفاق ما نصلِّي عليه؛ لأن اللَّه عز وجل قال في عبد اللَّه بن أبيٍّ[٣] ومن نحا نحوه: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَداً وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [التوبة: ٨٤].

قال: (وَلَا نُنْزِلُ أَحَداً مِنْهُمْ جَنَّةً وَلَا نَاراً) يعني: من مات من أهل القبلة من الأبرار أو الفجار لا نشهد لأحد منهم بجَنة أو نار، إلا بما جاءت النصوص بأنه من أهل الجَنة أومن أهل النار كما سبق.

---

(١) رواه أحمد في المسند، رقم (١٧٠٣١)، من حديث زيد بن خالد الجهني رضي الله عنه.

(٢) كما في حديث جابر بن سمرة رضي الله عنه، ولفظه: «أُتِيَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم بِرَجُلٍ قَتَلَ نَفْسَهُ بِمَشَاقِصَ، فَلَمْ يُصَلِّ عَلَيْهِ» رواه مسلمٌ، كتاب الجنائز، باب ترك الصلاة على القاتل نفسه، رقم (٩٧٨).

(٣) هو: أبو الحباب عبد الله بن أبي من مالك بن الحارث ابن عبيد الخزرجي، المشهور بابن سلول، أظهر الإسلام بعد وقعة بدر؛ تقية، وهو رأس المنافقين في الإسلام، توفي سنة (٩هـ). الأعلام للزركلي (٤/ ٦٥).

فإذا مات رجلٌ من أهل الصلاح أو الأبرار؛ لا نقول: هذا منزله الجَنة، وكذلك إذا مات رجلٌ خمَّار ونحو ذلك؛ لا نقول: هذا منزله النار، ولذلك في صحيح البخاريّ[1] لمَّا أُتي الى النبي صلى الله عليه وسلم بشارب خمرٍ فقال رجلٌ: «اللَّهُمَّ الْعَنْهُ مَا أَكْثَرَ مَا يُؤْتَى بِهِ، فَقَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم: لَا تَلْعَنُوهُ؛ فَوَاللَّهِ! مَا عَلِمْتُ إِنَّهُ يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ».

قال: (وَلَا نَشْهَدُ عَلَيْهِمْ) يعني: أهل القبلة (بِكُفْرٍ وَلَا بِشِرْكٍ وَلَا بِنِفَاقٍ، مَا لَمْ يَظْهَرْ مِنْهُمْ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ) يعني: لا نَشهد على أحد من أهل القبلة بشرك، فلا نقول: هذا مشركٌ، ولا نقول: هذا كافرٌ، ولا نقول: هذا رجلٌ منافقٌ، ما لم يظهر منه شيءٌ من ذلك، فإذا أظهر الشرك نقول: هذا الرجل أظهر الشرك، أو تكلم بكلمة الكفر، أو فَعل فِعل النفاق، وهكذا.

والفَرق بين الكافر والمشرك بالنسبة للآخرة: لا فَرق بينهما، فكلاهما مخلَّدٌ في النار؛ قال سبحانه عن المشركين: ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ﴾ [المائدة: ٧٢]، وقال عن الكفار: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيراً* خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً﴾

---

(١)كتاب الحدود، باب ما يكره من لعن شارب الخمر وإنه ليس بخارج من الملة، رقم (٦٧٨٠)، من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

[الأحزاب: ٦٤-٦٥]، أما في الدنيا فالفَرق من ناحية العمل فقط، فالشرك أن يدعو مع اللَّه غيره، والكفر أعم، فكل شركٍ كفرٌ ولا عكس، فمثلاً: تارك الصلاة نقول: إنه كافرٌ، وما نقول إنه مشركٌ.

(وَنَذَرُ سَرَائِرَهُمْ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى) يعني: نقول: هذا أظهر الكفر لكن لا نعلم بسريرته، فقد يكون مكرهاً على ذلك، أو غير ذلك لهذا خذ قاعدة: «لا يكفر الشخص بعينه إلا إذا توفَّرت فيه شروط التكفير، وانتفت عنه الموانع»، وهذه قاعدةٌ عظيمةٌ، فلا نقول لمن قال كلمة الكفر: أنت كافرٌ؛ وإنما نقول: قلتَ كلمة الكفر، ومن فعل شركاً لا نقول: أنت مشركٌ؛ وإنما نقول: فعلتَ الشرك.

ومتى نحكم على الشخص بكفرٍ أو شركٍ؟ نقول: الذي يقرِّره هو الوالي أو نائبه كالقاضي، فيقول له: أنت قلتَ هذه الكلمة، فهل أنت مكرهٌ على ذلك الكلام؟ أو هل أنت في وقتها كنت فاقداً للوعي بسُكر أو غير ذلك؟ أو هل عندك تأويلاً في تلك الآية أو ذلك الحديث ما فهمتَ معناه؟ وهكذا.

فتبيَّن مما سبق أن من معتقدات أهل السُّنة والجماعة العظيمة هي جواز أن يصلِّي المسلمون مأمومين خلف إمامٍ فاجرٍ، والصلاة خلفه

صحيحة، وأن من مات من أهل القبلة وهو من أهل الكبائر نصلِّي عليه، وأن من مات من أهل الأبرار من أهل القبلة لا ننزِّله ونقول: هذا منزله الجَنة، وكذا من مات على الشرك أو الكفر، لا نقول: هذا منزله النار؛ إلا ما جاءت النصوص بأنه من أهل الجَنة أو أهل النار، وكذلك لا نشهد على أحدٍ في الدنيا بأنه من أهل الكفر أو الشرك أو النفاق إلا إذا أظهر ذلك؛ فنقول: هذا أظهر كلمة الشرك، ونكِل سريرته إلى اللَّه عز وجل.

وَلَا نَرَى السَّيْفَ عَلَى أَحَدٍ مِنْ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم؛ إِلَّا مَنْ وَجَبَ عَلَيْهِ السَّيْفُ.

قال رحمه اللَّه: (وَلَا نَرَى السَّيْفَ) يعني: نرى القتل، وعبَّر بالسيف هنا؛ لأن غالب القتل في ذلك العصر هو بالسيف، وأي وسيلةٍ من وسائل القتل تأخذ حُكمه.

قال: (عَلَى أَحَدٍ مِنْ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم) يعني: من المنتسبين إلى أهل القبلة، فالمراد بأمَّة محمدٍ هنا: أي: أمَّة الإجابة وليس أمَّة الدعوة؛ لأن أمَّة الدعوة تشمل اليهود والنصارى، والمجوس والمشركين، وتَشمل أيضاً المسلمين، فالمراد بأمَّة الدعوة أوَّل ما بعث النبي صلى الله عليه وسلم، فكل من أتى بعد نزول الوحي أو كان بعد نزول الوحي فهو من أمَّة الدعوة إلى قيام الساعة، ومن كان مسلِماً متَّبعاً للنبي عليه الصلاة والسلام فهو من أمَّة الإجابة؛ يعني: استجاب للنبي عليه الصلاة والسلام في دعوته.

فمن كان من أهل القبلة ولم يظهر منه الإسلام ولا الكفر لا يجوز قتله، قال: (إِلَّا مَنْ وَجَبَ عَلَيْهِ السَّيْفُ) يعني: إلا من وجب عليه القتل،

ودم المسلم حرامٌ لا يجوز قتله إلا في ثلاثة أحوالٍ فقط؛ وهي التي ذكرها النبي عليه الصلاة والسلام في البخاري ومسلم[١] بقوله: «لَا يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَّا بِإِحْدَى ثَلَاثٍ: الثَّيِّبُ الزَّانِي، وَالنَّفْسُ بِالنَّفْسِ، وَالتَّارِكُ لِدِينِهِ الْمُفَارِقُ لِلْجَمَاعَةِ».

فمن قتل نفساً بغير حقٍّ فإن دمه حلالٌ، فللإمام أن يقتله إذا توفرت الشروط كما هي في أبواب الفقه، وكذلك الزاني المحصن - أي: المتزوج، وكذا المرأة المتزوجة -، فإذا زنى الرجل أو المرأة فإن دمه حينئذٍ يكون حلالاً، فيقيم عليه الإمام حد الزنا بالرجم حتى الموت، وكذا التارك لدينه وهو المرتد؛ فمن كان مسلماً ثم ارتد؛ فإن دمه مباحٌ، فيقيم عليه الإمام حد الردة.

وفي هذه الأحوال الثلاثة لا يجوز لأحدٍ أن يقتلهم سوى الحاكم؛ لئلا تعم الفوضى وتنتشر بين أفراد المجتمع، ويعتدي الفرد على الآخر

---

(١) رواه البخاريُّ، كتاب الديات، بَابُ قَوْلِ اللهِ تَعَالَى {أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ} الآية، رقم (٦٨٧٨)، ومسلمٌ، كتاب القسامة والمحاربين والقصاص والديات، باب ما يباح به دم المسلم، رقم (١٦٧٦)، من حديث عبد الله بن مسعودٍ رضي الله عنه.

مدَّعياً أنه زنا أو يدعي أنه سَمعه ارتكب ردةً، ونحو ذلك، فحتى لو ثبت ذلك فإقامة الحدود من أعمال السلطان لا يجوز لأحدٍ من أفراد المسلمين أن يقيمها.

فإذا قيل: ماذا يصنع الشخص المسلم إذا سمع رجلاً قال كلمة ردة، والإمام لم يُقِم عليه الحد مع ثبوت ذلك؟ نقول: عليه بالصبر والدعاء له بالهداية، ولا يجوز أن يعتدي عليه حتى ولو كان يقول الردة ليلاً ونهاراً؛ لأن هذا من الافتيات على أعمال الإمام.

فدم المسلم حرامٌ لا يجوز أن يُعتدى عليه ونجعله حلالاً؛ وإنما هو محترمٌ عظيمٌ؛ لقول النبي صلى الله عليه وسلم في صحيح مسلم[١]: «كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ؛ دَمُهُ، وَمَالُهُ، وَعِرْضُهُ».

---

(١) كتاب البِرِّ والصلة والآداب، باب تحريم ظُلم المسلم وخذْله، واحتقاره ودمه، وعرضه وماله، رقم (٢٥٦٤)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وَلَا نَرَى الخُرُوجَ عَلَى أَئِمَّتِنَا وَوُلَاةِ أُمُورِنَا وَإِنْ جَارُوا، وَلَا نَدْعُوا عَلَيْهِمْ، وَلَا نَنْزِعُ يَداً مِنْ طَاعَتِهِمْ.

وَنَرَى طَاعَتَهُمْ مِنْ طَاعَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فَرِيضَةً، مَا لَمْ يَأْمُرُونَا بِمَعْصِيَةٍ، وَنَدْعُو لَهُمْ بِالصَّلَاحِ وَالمُعَافَاةِ.

سبق قوله رحمه اللَّه: (**وَلَا نَرَى السَّيْفَ عَلَى أَحَدٍ مِنْ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم؛ إِلَّا مَنْ وَجَبَ عَلَيْهِ السَّيْفُ**) وهذه في حُكم التعامل مع الشعوب أفراد المجتمع، ثم هنا يبيِّن المصنِّف رحمه الله حقوق الوالي.

والعبارة التي ذكرها المصنِّف رحمه الله تنقسم إلى قِسمين:

القِسم الأوَّل: الأشياء المحرَّمة التي لا يجوز فِعلها مع الإمام، وذكرها بقوله: (وَلَا نَرَى الخُرُوجَ عَلَى أَئِمَّتِنَا وَوُلَاةِ أُمُورِنَا وَإِنْ جَارُوا، وَلَا نَدْعُوا عَلَيْهِمْ، وَلَا نَنْزِعُ يَداً مِنْ طَاعَتِهِمْ).

القِسم الثاني: الأشياء التي يجب أن نفعلها مع الإمام، وذكرها بقوله: (وَنَرَى طَاعَتَهُمْ مِنْ طَاعَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فَرِيضَةً، مَا لَمْ يَأْمُرُونَا بِمَعْصِيَةٍ، وَنَدْعُو لَهُمْ بِالصَّلَاحِ وَالمُعَافَاةِ).

وحقوق الوالي التي يجب على أفراد الرعية ثلاثة أمورٍ وقد ذكرها المصنِّف أيضاً هنا:

الأمر الأوَّل: أمر القلب؛ أي: عقيدةً، فالأمر الواجب علينا تجاههم عقيدة: هو التعبد للَّه عز وجل بطاعتهم ما لم يأمروا بمعصيةٍ؛ لذلك قال: (وَنَرَى طَاعَتَهُمْ مِنْ طَاعَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فَرِيضَةً) يعني: اعتقاداً بالقلب، فهذا من رحمة اللَّه عز وجل وفضله على عباده، حتى جعل الشخص في أموره العامة وحياته يتعبد اللَّه تعالى بطاعتهم، قال: (مَا لَمْ يَأْمُرُونَا بِمَعْصِيَةٍ) مثل: ما يضعونه من تنظيمٍ ونحو ذلك.

والأمر الثاني الذي يجب علينا تجاههم: أمر اللسان، وهو الدعاء لهم كما قال: (وَنَدْعُو لَهُمْ بِالصَّلَاحِ وَالْمُعَافَاةِ)، وأيضاً مع الدعاء النصح لهم بالحكمة واللِّين، والأدب والاخلاص في النصح لهم، والصدق معهم وأداء الامر بأمانة، والتجرد عن الهوى والطمع والجشع.

والأمر الثالث: بالجوارح، وهو أمران:

الأمر الأوَّل: عدم الخروج عليهم باليد سواء كان فيه سلاح أو نحو ذلك، كما قال: (وَلَا نَرَى الْخُرُوجَ عَلَى أَئِمَّتِنَا وَوُلَاةِ أُمُورِنَا وَإِنْ جَارُوا).

والأمر الثاني: قال: (وَلَا نَنْزِعُ يَداً مِنْ طَاعَتِهِمْ) أي: لا نعصيهم فيما أَمروا به ما لم يكن فيه معصية.

وطاعة الإمام يجب أن لا يكون فيها تملّقٌ فيها ولا مداهنةٌ، ولا ثناءٌ فيه أضرارٌ؛ لأن طاعتهم عبادةٌ، ويجب أن لا تدنَّس تلك العبادة بالرياء أو التزلف إليهم أو حب الدنيا، أو الطمع في مالٍ أو جاهٍ أو منصبٍ أو نحو ذلك؛ وإنما يجب أن تكون طاعتهم ومحبتهم عقيدةً للَّه عز وجل لا مُراءاة فيها ولا محاباة ولا مداهنة، فنحبهم لِما يقومون به من طاعاتٍ، وندعو لهم؛ لأن صلاحهم من صلاح الرعية، وننصح لهم كما قال عليه الصلاة والسلام في صحيح مسلم(١): «الدِّينُ النَّصِيحَةُ، قُلْنَا: لِمَنْ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: لِلَّهِ، وَلِكِتَابِهِ، وَلِرَسُولِهِ، وَلأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ»، فيجب أن يُنصح الوالي إذا رأى الناصح خللاً في أمر ونحو ذلك.

وتكون النصيحة كما قال ابن القيم رحمه اللَّه: «دلت الفطرة والشرع على أن نصح الولاة يكون بالأدب»(٢)، فحتى ولو كان الوالي كافراً يُتأدب في الحديث معه، قال سبحانه لموسى وهارون: ﴿اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى * فَقُولَا لَهُ قَوْلاً لَيِّناً﴾ [طه: ٤٣-٤٤]، والنبي عليه الصلاة والسلام

---

(١) كتاب الإيمان، باب بيان أن الدين النصيحة، رقم (٥٥)، من حديث تميمٍ الداريّ رضي الله عنه.

(٢) لم أقف.

قال في صحيح البخاري[١] - في كتابه -: «مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ إِلَى هِرَقْلَ عَظِيمِ الرُّومِ»، فوصفه النبي صلى الله عليه وسلم بأنه عظيم الروم، وهذا من الأدب مع الوالي، وإن كان كافراً فيتأدب معه.

ونُصحه يجب أن يكون سرّاً، وليس توبيخاً أو أمام الناس، قال الشيخ محمد بن إبراهيم رحمه الله والشيخ عبد اللّه بن عبد اللطيف[٢] والشيخ محمد عبد اللطيف[٣] رحمهم اللَّه: «ونُصح الوالي أمام الناس هذا من الجهل في العِلم»[٤]، وإنما الواجب نصح الوالي سرّاً بينك وبينه،

---

(١)كتاب الاستئذان، باب: كيف يكتب الكِتاب إلى أهل الكِتاب، رقم (٦٢٦٠)، ومسلمٌ، كتاب الجهاد والسِّير، باب كتاب النبي صلى الله عليه وسلم إلى هرقل يدعوه إلى الإسلام، رقم (١٧٧٣)، من حديث أبي سفيان رضي الله عنه.

(٢) هو: أبو عبد الملك عبد الله بن عبد اللطيف بن عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ، ولد في الأحساء سنة (١٢٦٥هـ)، وتوفي رحمه الله سنة (١٩٣٩هـ). الدرر السنية في الأجوبة النجدية (١٦/ ٤٥٩).

(٣) هو: محمد بن عبد اللطيف بن عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ، ولد في الرياض سنة (١٢٨٢هـ)، وتوفي رحمه الله سنة (١٣٦٧ه). الدرر السنية في الأجوبة النجدية (١٦/ ٤٧١).

(٤) لم أقف.

فمثلاً تقول له: حدث أمرٌ لا يجوز فعله كذا وكذا في المكان الفلاني، فجزاك اللَّه خيراً لو يُمنع ذلك الأمر.

وهذا الباب انقسم الناس فيه إلى ثلاثة أقسامٍ:

القِسم الأوَّل: فرَّطوا فيه ولم يتَّبعوا فيه منهج أهل السُّنة والجماعة، وهم الخوارج والروافض[1]؛ فالخوارج يَخرجون على الحاكم بكبيرةٍ من كبائر الذنوب؛ لأنهم يَرون التكفير على كبائر الذنوب، والروافض يَرون عدم الطاعة إلا للإمام المعصوم.

والقِسم الثاني: أفرطوا فيه، فيمدح الوالي ويغشه في الكلام ونحو ذلك، ولا يصدُق معه ولا يدعو له ولا يحبه للَّه.

والقِسم الثالث: منهج أهل السُّنة والجماعة وهو المنهج الوسط العظيم القويم، وهو: محبتهم طاعتهم في غير معصية، والدعاء لهم في

(١) الرافضة هم: فرقة من الشيعة، وهو لقب يُطلَق على مَن يرفض خلافة أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، من معتقداتهم: الإمامة، والبراءة من الخلفاء الثلاثة، وعصمة أئمتهم من الخطأ، والتُّقية، وليس في الطوائف المنتسبة إلى القبلة أعظم افتراء للكذب على الله وتكذيباً بالحقِّ منهم. مقالات الإسلاميين (ص ١٦)، البرهان للسَّكسكي (ص ٦٥)، منهاج السنة النبوية (١/ ٢٠، ٢٧، ٣٨، ٣٠٦، ٤٨٦، ٢/ ٣٤، ٤/ ٣٤٥).

الغيب، والبعد عن الثناء عليهم في وجوههم؛ لأن النبي عليه الصلاة والسلام نهى أن يُثنى على الرجل في وجهه[١]، ويُستبدل بذلك الدعاء بالغيب والتضرع إلى اللَّه عز وجل بإصلاحهم ومعافاتهم، وهدايتهم ونفع الأمَّة بهم، وغير ذلك، لذلك قال الشيخ عبد اللَّه بن عبد اللطيف[٢] - كما في الدرر السَّنية في كتاب الجمعة في الخطبة[٣] - : «والوالي يُدعى له، ولا يثنى عليه»، فالوالي ما يحتاج للثناء؛ حتى لا يعرَّض للفتنة، وإنما يُدعى له؛ لأنه أحدُ عباد اللَّه، وعباد اللَّه يحتاجون للدعاء والثبات والهداية، فالدعاء هو الذي ينفعه.

---

(١) كما في حديث أبي بكرة، عن أبيه رضي الله عنه قال «مَدَحَ رَجُلٌ رَجُلاً عِنْدَ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قَالَ: فَقَالَ: وَيْحَكَ، قَطَعْتَ عُنُقَ صَاحِبِكَ، قَطَعْتَ عُنُقَ صَاحِبِكَ - مِرَاراً - إِذَا كَانَ أَحَدُكُمْ مَادِحاً صَاحِبَهُ لَا مَحَالَةَ فَلْيَقُلْ: أَحْسَبُ فُلَاناً وَاللهُ حَسِيبُهُ وَلَا أُزَكِّي عَلَى اللهِ أَحَداً، أَحْسَبُهُ إِنْ كَانَ يَعْلَمُ ذَاكَ كَذَا وَكَذَا» رواه البخاريُّ، كتاب الأدب، باب: ما يكره من التمادح، رقم (٦٠٦١)، ومسلمٌ، كتاب الزهد والرقائق، باب النهي عن المدح إذا كان فيه إفراطٌ وخيف منه فتنةٌ على الممدوح، رقم (٣٠٠٠).

(٢) الصواب أنه للشيخ عبد الله أبا بطين. وهو: عبد الله بن عبد الرحمن بن عبد العزيز بن عبد الرحمن أبا بطين العائذي، ولد في بلد الروضة سنة (١١٩٤هـ)، وتوفي رحمه الله سنة (١٢٨٢هـ). الدرر السنية في الأجوبة النجدية (١٦/ ٤٢٧).

(٣) (٥/ ٤١).

لذلك قال المصنِّف رحمه اللَّه: (**وَلَا نَرَى الْخُرُوجَ عَلَى أَئِمَّتِنَا وَوُلَاةِ أُمُورِنَا**) هل هناك فرقٌ بين قوله: (**أَئِمَّتِنَا**) وقوله: (**وُلَاةِ أُمُورِنَا**)؟ نقول: لا، فلماذا ساقها المصنِّف؟ نقول: لأنه جاءت نصوصٌ في وصفهم بأنهم أئمةٌ؛ كما قال عليه الصلاة والسلام: «كُلُّكُمْ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالْإِمَامُ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ»[1]، وجاءت نصوصٌ أخرى في وصفهم بأنهم ولاة أمرٍ؛ كما في قوله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ [النساء: ٥٩].

فمن معتَقد أهل السُّنة والجماعة ما ذكره المصنِّف وهو: عدم الخروج على الأئمة؛ بمعنى: محاولة نزع الإمرة منهم أو السعي لذلك، وذكر شيخ الإسلام رحمه الله في منهاج السُّنة[2] أن المفاسد التي تحدث في الخروج على الإمام أعظم من المفاسد التي لو بقي المسلم في معصيةٍ أو ظلمٍ مع بقاء ذلك الإمام، وذكر لذلك أمثلةً كثيرةً، وقال: «وما خرج أحدٌ على الإمام إلا أهلكه اللَّه»، لذلك الصحابة والتابعون رضي الله

---

(١) رواه البخاريُّ، كتاب الوصايا، بَابُ تَأْوِيلِ قَوْلِ اللهِ تَعَالَى {مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ}، رقم (٢٧٥١)، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٢) (٣/ ٣٩١).

عنهم صبروا على أذى الحجاج، وكان يَقتل ويَظلم ومع ذلك يَدعون له ويصلُّون خلفه.

فإذا قيل: لو كان الإمام يَظلم، ما العمل؟ نقول: نفعل كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: «مَنْ كَرِهَ مِنْ أَمِيرِهِ شَيْئاً فَلْيَصْبِرْ عَلَيْهِ»[1]، والشخص مأجورٌ على الصبر، وفي صحيح مسلمٍ[2] قال: «تَسْمَعُ وَتُطِيعُ لِلْأَمِيرِ، وَإِنْ ضُرِبَ ظَهْرُكَ، وَأُخِذَ مَالُكَ، فَاسْمَعْ وَأَطِعْ».

لذلك قال المصنِّف رحمه اللَّه: (**وَلَا نَرَى الْخُرُوجَ عَلَى أَئِمَّتِنَا وَوُلَاةِ أُمُورِنَا وَإِنْ جَارُوا**) يعني: ما يجوز أن يقاتَلوا ولا يُخرج عليهم في حُكمهم، وظهر قديماً وحديثاً مفاسد الخروج، فمثلا بقاء دولةٍ بلا والي ولا إمامٍ يَحدث فيها من المفاسد ما اللَّه به عليمٌ، وفي أثرٍ ضعيفٍ

(١) رواه البخاريُّ، كتاب الفتن، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: «سَتَرَوْنَ بَعْدِي أُمُوراً تُنْكِرُونَهَا»، رقم (٧٠٥٣)، ومسلمٌ، كتاب الإمارة، باب وجوب ملازمة جماعة المسلمين عند ظهور الفتن، وفي كل حال، وتحريم الخروج على الطاعة ومفارقة الجماعة، رقم (١٨٤٩)، من حديث ابن عباسٍ رضي الله عنهما.

(٢) كتاب الإمارة، باب الأمر بلزوم الجماعة عند ظهور الفتن وتحذير الدعاة إلى الكُفر، رقم (١٨٤٧)، من حديث حذيفة رضي الله عنه.

قال: «إن ليلةً من إمامٍ ظالمٍ خيرٌ من أربعين سنةً بلا إمامٍ»[١]؛ لأنه لا تقام الحدود إلا به، ولا تُسترد الحقوق إلا به، ولا يخاف السارق وقاطع الطريق ونحو ذلك إلا منه، وهكذا، فالسلطان جَعل اللَّه عز وجل هيبةً له بين أفراد الرعية، يقيم عليهم الإسلام والتوحيد ونحو ذلك.

قال: (**وَلَا نَدْعُوا عَلَيْهِمْ**) والنبي عليه الصلاة والسلام يقول: «خِيَارُ أَئِمَّتِكُمُ الَّذِينَ تُحِبُّونَهُمْ وَيُحِبُّونَكُمْ، وَيُصَلُّونَ عَلَيْكُمْ وَتُصَلُّونَ عَلَيْهِمْ - يعني: الذين تدعون لهم ويدعون لكم -، وَشِرَارُ أَئِمَّتِكُمُ الَّذِينَ تُبْغِضُونَهُمْ وَيُبْغِضُونَكُمْ، وَتَلْعَنُونَهُمْ وَيَلْعَنُونَكُمْ»[٢] فلا ندعو عليهم؛ وإنما ندعو لهم بالصلاح والمعافاة.

قال: (**وَلَا نَنْزِعُ يَداً مِنْ طَاعَتِهِمْ**) يعني: لا نخالف أوامرهم، قال: (**وَنَرَى طَاعَتَهُمْ مِنْ طَاعَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فَرِيضَةً**) تقدير الكلام: ونرى طاعتهم فريضةً من طاعة اللَّه عز وجل؛ يعني: إن طاعتهم

---

(١) وقفت عليه في مجموع فتاوى شيخ الإسلام، بدون عزو، ولفظه: «سِتُّونَ سَنَةً مِنْ إِمَامٍ جَائِرٍ أَصْلَحُ مِنْ لَيْلَةٍ وَاحِدَةٍ بِلَا سُلْطَانٍ». مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٢٨/ ٣٩١).

(٢) رواه مسلمٌ، كتاب الإمارة، باب خيار الأئمة وشرارهم، رقم (١٨٥٥)، من حديث عوف بن مالكٍ رضي الله عنه.

يجب على المسلم أن يحتسبها عند اللَّه بأنها قربةٌ يَتقرب بها المسلم إلى اللَّه عز وجل.

قال: (**مَا لَمْ يَأْمُرُونَا بِمَعْصِيَةٍ**) فإن أمرونا بمعصية فلا نسمع لهم، فلو قال والٍ مثلاً: يجب أن يشرب الرعية الخمر؛ ما نسمع، فالنبي عليه الصلاة والسلام يقول: «إِنَّمَا الطَّاعَةُ فِي الْمَعْرُوفِ»[1]، مثل: لو قال والٍ: احضر إليَّ في مكتبي؛ فيجب على الراعي أن يحضر إليه في مكتبه، وهكذا، ومن طاعة الإمام: طاعة أفراده وجنوده؛ فهم يد السلطان التي بها يمنع الظُّلم ونحو ذلك.

قال: (**وَنَدْعُو لَهُمْ بِالصَّلَاحِ وَالْمُعَافَاةِ**) والهداية ونفع المسلمين، والسداد وتحري العدل، والبطانة الصالحة، ونحو ذلك.

ومع الدعاء النصح لهم بالقول أو بالكتابة بحكمةٍ ولينٍ، ونحو ذلك، ولا يُظن أنَّ في مثل هذا القول تزلُّفاً لهم أو تقرّباً إليهم؛ وإنما هذه

---

(١) رواه البخاريُّ، كتاب الأحكام، باب السمع والطاعة للإمام ما لم تكن معصيةٌ، رقم (٧١٤٥)، ومسلمٌ، كتاب الإمارة، باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصيةٍ وتحريمها في المعصية، رقم (١٨٤٠)، من حديث عليٍّ رضي الله عنه.

عقيدةٌ يجب على المسلِم أن يعتقدها في قلبه، وقربةٌ يتقرَّب بها إلى اللَّه، لكن لا يُفرِط ولا يُفرِّط؛ وإنما يكون وسطاً.

وَنَتَّبِعُ السُّنَّةَ وَالجَمَاعَةَ، وَنَجْتَنِبُ الشُّذُوذَ وَالخِلَافَ وَالفُرْقَةَ.

قال رحمه اللَّه: (وَنَتَّبِعُ السُّنَّةَ) المراد بالسُّنة هنا يعني: ما جاء في كتاب اللَّه عز وجل وسُنة النبي صلى الله عليه وسلم، (وَالجَمَاعَةَ) أي: الذين اجتمعوا على الأخذ بسُنة النبي صلى الله عليه وسلم، واللقب الأوَّل يكفي، لكن الثاني في زيادة أنهم مجتمعون غير متفرقين.

لذلك قوله: (وَنَتَّبِعُ السُّنَّةَ وَالجَمَاعَةَ) يعني: نأخذ بما في كتاب اللَّه وسُنة النبي عليه الصلاة والسلام، ونتبع الجماعة فيما أخذوا فيه، فلا نشذ عليهم ولا نفترق عليهم، ولا نبتعد عنهم؛ لأن اللَّه عز وجل قال: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٣]، وقال: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾ [النور: ٥٤]، وقال: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ [آل عمران: ١٠٥]، وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٩].

فالاجتماع من أعظم مقاصد الشريعة، لهذا قال اللَّه عز وجل: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ

فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً﴾ [آل عمران: ١٠٣]، والنبي عليه الصلاة والسلام قال في حنين[1]: «أَلَمْ أَجِدْكُمْ ضُلَّالاً فَهَدَاكُمُ اللَّهُ بِي؟ وَعَالَةً فَأَغْنَاكُمُ اللَّهُ بِي؟ وَمُتَفَرِّقِينَ فَجَمَعَكُمُ اللَّهُ بِي؟ فَقَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمَنُّ»[2]، ولهذا أوَّل ما قدِم النبي صلى الله عليه وسلم أَلَّف بين الأوس والخزرج بعد أن كانوا يتقاتلون؛ لذلك قال اللَّه عز وجل: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٣]، وفي الآية الأخرى: ﴿مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [الروم: ٣٢].

فالأُلفة بين المسلمين هي من أعظم ما جاءت به الشريعة، قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ [الحجرات: ١٠]، وقال عليه الصلاة والسلام: «الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ، يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضاً

(١) وهي: الغزوة التي وقعت في السنة الثامنة للهجرة بين المسلمين وقبيلتي هوازن وثقيف، في وادٍ يسمى حُنين يقع بين مكة والطائف. سيرة ابن هشام (٢/ ٤٣٧).

وتسمى حنين الآن بالشرائع العليا وتبعد عن مكة حوالي ٣٠ كم.

(٢) رواه البخاريُّ، كتاب المغازي، باب غزوة الطائف، رقم (٤٣٣٠)، ومسلمٌ، كتاب الزكاة، باب إعطاء المؤلفة قلوبهم على الإسلام وتصبر من قوي إيمانه، رقم (١٠٦١)، من حديث عبد الله بن زيد رضي الله عنه.

وَشَبَّكَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ»(١)، واتباع الفرقة والخلاف والشذوذ هو إضعافٌ للأُمَّة.

وإذا كان النزاع بين أهل السُّنة والجماعة فهذا من المصائب التي تَحدث في الدين، والفرقة والنزاع لا تأتي إلا بالضعف، وليس هناك آية في كتاب اللَّه فيها أمرٌ ونهيٌ وثمرة ذلك الفعل لو حدث إلا في تلك الآية؛ وهي قوله سبحانه: ﴿وَلَا تَنَازَعُوا﴾ هذا نهيٌ عن النزاع، ﴿فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ هذا ثمرة النزاع وهو الفشل والضعف، فإذا امتدت الفتنة ماذا نصنع؟ قال: ﴿وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٦].

وشيخ الإسلام رحمه الله يقول: «لو أخطأ كل أخٍ فهجرتَه؛ لم يبقَ لك أخ»(٢)، والإمام أحمد بن حنبل رحمه الله يقول: «العافية عشرة أجزاء كلها

---

(١) رواه البخاريُّ، كتاب الأدب، باب تعاون المؤمنين بعضهم بعضاً، رقم (٦٠٢٦)، ومسلمٌ، كتاب البر والصلة والآداب، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم، رقم (٢٥٨٥)، من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

(٢) لم أقف.

في التغافل»[١] يعني: الإعراض عن أخطاء الاخرين، واللَّه عز وجل يقول: ﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾ [البقرة: ١٠٩].

وكل شخصٍ لا شك فيه نقصٌ وعيبٌ وهذه من طبيعة البشر، لكن من صِدق الأخوة الغض عن تلك الأخطاء، ووضْع كفك في كف أخيك؛ لإكمال نقصه، لا البحث عن نقائصه وسيئاته، وكشفها وتضخيمها، والإعلان بها، فلم يأتِ الدين بذلك؛ وإنما أتى بالألفة والمودة والأخوة.

ولـمَّا كانت نفوس الصحابة رضي الله عنهم صافيةً أَلَّف النبي صلى الله عليه وسلم بينهم، حتى نشروا الدين؛ لذلك لـمَّا كانوا متفقين انتشرت الفتوحات في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه، قال شيخ الإسلام: «ولم تنتشر الفتوح في عصرٍ مثل انتشارها في عصر عمر بن الخطاب رضي الله عنه»[٢]، وقال: «ولم يفتح المسلِمون في عهد علي بن أبي طالب رضي الله عنه أيَّ مصر؛ بسبب ما حصل بينهم من نزاعٍ»[٣].

---

(١) شعب الإيمان (٦/ ٣٣٠).

(٢) منهاج السُّنَّة النبوية لشيخ الإسلام (٦/ ٤٢).

(٣) لم أقف.

فالنزاع يضعف شوكة المسلمين، وممن يكتوي بلظى النزاع: هم من يتشوف للّهداية أو يريد الهداية، فبتنازع المسلمون مَن كان غير مسلِمٍ لا يصِل نور السلام إليه، وكذلك إذا كانوا في ديار الاسلام الذي يكتوي بنار النزاع هم شباب ونساء المسلمين، فيتنازع الصالحون بينهم ويتلقف الشباب والنساء أهل الفسق وغيرهم؛ لإفسادهم، وذلك لانشغال أهل الصلاح بالنزاع ونحو ذلك.

لهذا يجِب على الشخص أن يحفظ لسانه ولا يتكلم في غيره، قال ابن عساكر[١] رحمه اللَّه: «لحوم العلماء مسمومةٌ، من ابتلي بسب العلماء ابتلاه اللَّه عز وجل بسوء الخاتمة»[٢] - والعياذ باللَّه -، لذلك يجب على الشخص أن يَحفظ لسانه، ولا يطعن ولا يلمز في أهل العِلم والصلاح والتقوى وغيرهم ممن نفع اللَّه عز وجل بهم.

(١) هو: أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله بن الحسين الدمشقي الشافعي، ولد سنة (٤٩٩هـ)، وتوفي رحمه الله سنة (٥٧١هـ). طبقات الحفاظ للذهبي (٤/ ٨٢).

(٢) التبيان في آداب حملة القرآن (ص٢٩). ولفظه هو: «لحوم العلماء مسمومةٌ، وعادة الله في هتك أستار منتقصيهم معلومةٌ، وأن من أطلق لسانه في العلماء بالثلب ابتلاه الله تعالى قبل موته بموت القلب».

وإذا كان الشخص يلحظ على آخر خطئاً أو عيباً فليكن نصحه سرّاً؛ حتى بإذن اللَّه يستقيم على ما أمره اللَّه عز وجل به، أما النزاع فثمرته وخيمةٌ وأضراره كثيرةٌ، فمن أضراره: ظلمة القلب، فلا يخشع الشخص في كلام اللَّه عز وجل، ولا يلين قلبه عند ذكر اللَّه تعالى، وقد يُنزع نور العِلم والبركة والطاعة من قلبه؛ بسبب ما في قلبه مما يَحمِله على إخوانه المسلمين.

لذلك يجب على المسلم أن يهذِّب نفسه، وألا يتطلَّع إلى عيوب غيره، ويسعى إلى إصلاح عيبه، قال الشافعي رحمه الله - في كتاب الأم[1] -: «صحبتُ الصوفية سنين فما استفدت منهم إلا أمرين: **الأوَّل**: النفس إن لم تشغلها بالحق شغلتك بالباطل، **والثاني**: الوقت كالسيف ان لم

(١) لم أقف عليه بكتاب الأم، وإنما ذكره البيهقي في مناقب الشافعي، بلفظ: «صحبتُ الصوفية عشر سنين ما استفدت منهم إلا هذين الحرفين: الوقت سيفٌ، ومن العصمة أن لا تقدر». (٢/ ٢٠٨).

تقطعه قطعك»، وقال بعض السلف[١]: «من اشتغل بعيوب غيره صده اللَّه عز وجل عن ذكره».

لذلك ما أجمل من أن يعطَّر اللسان بذكر اللَّه سبحانه! قال ابن القيم رحمه اللَّه: «ولا يصِل العبد إلى مرتبة الإحسان إلا إذا كان مكثِراً من ذكر اللَّه عز وجل»[٢]، ولو لم يأتك من فوائد الذِّكر إلا هذه الفائدة لكفى بها فائدة، وإذا اعتاد الشخص على حبس لسانه عما لا ينفعه؛ بإذن اللَّه استنار قلبه وسدد اللَّه عز وجل قوله وفعله وأصلح له ذريته، وما من أحدٍ دخل في هذا الباب الذي هو النزاع والفرقة إلا ندم إذا كبُر سِنه أو إذا استبان له الحق.

وإذا دخل الشخص في هذا الباب يضيِّع على نفسه زمناً كثيراً في تحصيل العِلم، ثم يندم، فإذا التفت بعد برهةٍ يمنةً ويسرةً فإذا هو لم يحصِّل شيئاً من العِلم إلا فلانٌ قال كذا من الذم والطعن ونحو ذلك،

---

(١) كابن حبان رحمه الله. ولكن ليس كهذا اللفظ وإنما على لفظ: «وإن من اشتغل بعيوب الناس عَن عيوب نفسه عمى قلبه وتعب بدنه وتعذر عَلَيْهِ ترك عيوب نفسه». روضة العقلاء ونزهة الفضلاء (ص١٢٥).

(٢) الوابل الصيب (ص٤٢).

ويجِد غيره قد وصل إلى الأعالي بحفظ المتون وطلب العِلم، وهو قد بقي في القهقرة متأخراً عنهم؛ بسبب ما أطاع الشيطان فيه بالفرقة والنزاع.

وإذا صفَّى الإنسان قلبه حريٌّ بأن يكون من أهل الجَنة، لذلك لمَّا طلع رجل في عهد النبي صلى الله عليه وسلم وقد قال عنه صلى الله عليه وسلم: يطلع عليكم رجلٌ من أهل الجَنة، فتبعه عبد اللَّه بن عمرو[1] رضي الله عنهما فرآه ما يقوم حتى الليل، فسأله، فقال: إني أنام وليس في قلبي شيء على المسلمين[2]، فإذا صفي القلب بإذن اللَّه يسعد الإنسان في الدنيا وفي الآخرة، أما تتبع سقطات وهفوات الآخرين فما يجوز؛ لذلك قال عثمان بن عفان رضي الله عنه: «من تتبع عورات المسلمين تتبع اللَّه عورته حتى ولو في حجرته»[3]، فالشخص لا ينظر في عيوب

---

(١) هو: أبو محمد عبد الله بْن عَمْرو بن العاص بن وائل القرشي السهمي، أسلم قبل أَبِيهِ، توفي رضي الله عنه ليالي الحرة، في ولاية يزيد بن معاوية، سنة (٦٣هـ)، وقيل: سنة (٦٧هـ)، وقيل غير ذلك. الاستيعاب في معرفة الأصحاب (٣/ ٩٥٦).

(٢) الحديث بطوله رواه أحمد في المسند، رقم (١٢٦٩٧)، من حديث أنسٍ رضي الله عنه.

(٣) لم أقف عليه. لكن لعله يستبدل بحديث ابن عمر رضي الله عنهما، وفيه: «... فَإِنَّهُ مَنْ تَتَبَّعَ عَوْرَةَ أَخِيهِ الْمُسْلِمِ تَتَبَّعَ اللهُ عَوْرَتَهُ، وَمَنْ تَتَبَّعَ اللهُ عَوْرَتَهُ يَفْضَحْهُ وَلَوْ فِي جَوْفِ رَحْلِهِ...» رواه الترمذيُّ، أبواب البر والصلة، باب ما جاء في تعظيم المؤمن، رقم (٢٠٣٢).

غيره، فإن رأى شيئاً من غيره يبيِّن له الصواب وينصحه بينه وبينه سرّاً، أما أنه يسعى إلى الفرقة والنزاع بين المسلمين فلا، لذلك قال شيخ الاسلام رحمه اللَّه: «وإن من أعظم ما عملتُه هو أن وفَّقتُ بين الاشاعرة وأهل السُّنة»(١) يعني: دعا وقرَّب الأشاعرة لأهل السُّنة.

لهذا فمعتقد أهل السُّنة والجماعة ما قاله الإمام الطحاوي هنا: **(وَنَتَّبِعُ السُّنَّةَ وَالجَمَاعَةَ)** فنحبهم ونكون معهم، ولا نفارق جماعتهم قولاً واعتقاداً وجوارحاً بما يؤلِّف القلب.

قال: **(وَنَجْتَنِبُ الشُّذُوذَ)** يعني: لا نشذ عن الجماعة، ونسب فيهم ونطعن فيهم، ونشذ عن أقوالهم؛ وإنما نكون معهم، قال سبحانه: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ هذا الشاهد ﴿نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيراً﴾ [النساء: ١١٥].

قال: **(وَالخِلَافَ وَالفُرْقَةَ)** يعني: نبتعد عن الخلاف الذي يُضعف شأن المسلمين، ولا نفرِّق بين جماعة المسلمين؛ وإنما نسعى للتأليف بينهم، فإذا كان اللَّه عز وجل قد حث على الصلح بين الزوجين، وهم

(١) لم أقف.

شخصان في بيتٍ واحدٍ لا يَسمع أحد خصامهما؛ فما ظنك بجماعة المسلمين التي إن ضعفت ضعف نور الإسلام في الانتشار وفي نفع الاخرين مع احتياج البشر إلى إنقاذهم من النار؟! قال سبحانه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

فإذا انشغل الناس أو طلبة العِلم أو أهل السُّنة بالنزاع بينهم والخلاف ونحو ذلك؛ أضرَّ هذا بدعوة غير المسلمين، وأضر هذا بالناشئين من أهل الإسلام فيعيشون في تيهٍ وحيرةٍ، بل وضلالٍ؛ والسبب هو تنازع طلبة العِلم وصدهم بسبب الشيطان عن إصلاح غيرهم، وقد يُبتلى من يطرق هذا الباب أو يدخل فيه بالانحراف - والعياذ باللَّه - في ذريته وأولاده؛ بسبب هذا الأمر.

وهذا معتقدٌ عظيمٌ من معتقد أهل السُّنة والجماعة يجب أن يظهر على الجوارح، والشيخ محمد بن إبراهيم رحمه الله قال: «فمتى ضعف العمل دل على ضعف الاعتقاد»[١]؛ يعني: إذا كان الشخص يَسعى إلى الفرقة والنزاع ونحو ذلك فهذا يدل على ضعف اعتقاده - والعياذ باللَّه - وبُعده عن معتقد أهل السُّنة والجماعة.

---

(١) شرح العقيدة الواسطية (ص ٢٤١).

وَنُحِبُّ أَهْلَ العَدْلِ وَالأَمَانَةِ، وَنُبْغِضُ أَهْلَ الجَوْرِ وَالخِيَانَةِ.

قال المصنِّف رحمه اللَّه: (وَنُحِبُّ أَهْلَ العَدْلِ) يعني: نحِب المقسطين، (وَالأَمَانَةِ) يعني: الذين يؤدّون ما ائتمنهم اللَّه عز وجل به في جميع الأمور والأحوال؛ سواءً الأمانة مع الأولاد أو مع الزوجة أو مع العمل أو مع الحي أو ما ائتمن عليه من مالٍ، أو ما ائتمن عليه من قولٍ، ونحو ذلك.

وقوله: (وَنُحِبُّ) أي: من مقتضيات أهل السُّنة والجماعة المحبة لمن أتوا بالطاعات أن اللَّه عز وجل قد أحب ذلك، فنحب أهل العدل كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [المائدة: ٤٢]، ونحب أهل الأمانة؛ لأن اللَّه عز وجل قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٤]، وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ١٩٥]، ويُرجى أن من كان من أهل العدل[١] أن يكون مع عباد اللَّه المتقين.

والنبي عليه الصلاة والسلام قال: «ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ

---

(١) الصواب: (الأمانة).

لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلهِ...» الحديث[1]، فهذه المحبة في اللَّه، فمن المحبة في اللَّه: أن تحِب كل من سلك أمر طاعةٍ، فنحب طلبة العِلم، ونحب الصالحين، ونحب العلماء، ونحب العباد، وهكذا، فمن أسباب حلاوة الإيمان: محبة المؤمنين، ومنهم أهل العدل والأمانة.

قال: (وَنُبْغِضُ أَهْلَ الجَوْرِ) الجور ضد العدل؛ يعني: نبغض من يَظلم الناس (وَالخِيَانَةِ) أي: كذلك نبغض من خان الناس في أموالهم، أو فيما أعطوه من مسؤولياتٍ ونحو ذلك.

وإذا كان في الشخص طاعةٌ ومعصيةٌ وهو مسلمٌ؛ نحبه لطاعته ونبغضه لمعصيته، وأيهما غلب فيكون الحب له أو البغض له، فيجتمع في حق المسلم حبٌّ وبغضٌ، أما الكافر فإن فعل ما فعل فكُفره يغطي حسناته؛ فلا نحبه.

(١) رواه البخاريُّ، كتاب الإيمان، باب حلاوة الإيمان، رقم (١٦)، ومسلمٌ، كتاب الإيمان، باب بيان خصال من اتصف بهن وجد حلاوة الإيمان، رقم (٤٣)، من حديث أنسٍ رضي الله عنه.

وَنَقُولُ: اللَّهُ أَعْلَمُ فِيمَا اشْتَبَهَ عَلَيْنَا عِلْمُهُ.

قال رحمه اللَّه: (وَنَقُولُ: اللَّهُ أَعْلَمُ فِيمَا اشْتَبَهَ عَلَيْنَا عِلْمُهُ) هذه المسألة سبقت قبل عند قوله رحمه اللَّه: (**فَإِنَّهُ مَا يَسْلَمُ فِي دِينِهِ إِلَّا مَنْ سَلَّمَ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَلِرَسُولِهِ صلى الله عليه وسلم، وَرَدَّ عِلْمَ مَا اشْتَبَهَ عَلَيْهِ إِلَى عَالِمِهِ**).

وهنا قال: (**وَنَقُولُ: اللَّهُ أَعْلَمُ فِيمَا اشْتَبَهَ عَلَيْنَا عِلْمُهُ**) يعني: أن من معتقد أهل السُّنة والجماعة فيما سُئِلوا عنه وهم لا يَعلمون أن يقولوا: اللَّه أعلم؛ لأن اللَّه عز وجل قال لنبيه عليه الصلاة والسلام لمَّا سُئل وهو لا يَعلم: ﴿قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا﴾ [الكهف: ٢٦]، وقال في الآية الأخرى: ﴿قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ﴾ [الكهف: ٢٢].

فمن معتقد أهل السُّنة والجماعة أن من سُئل عن شيءٍ لا يَعلمه يقول: اللَّه أعلم، وفي ذلك شرفٌ له ورفعةٌ؛ لأن العِلم درجاتٌ، وفوق كل ذي عِلمٍ عليمٌ، وإذا قال الشخص: اللَّه أعلم؛ هذا يدل على تواضعه وعلى خوفه من اللَّه عز وجل، ويؤدِّي أيضاً إلى ثقة الناس به.

وَنَرَى المَسْحَ عَلَى الخُفَّيْنِ فِي السَّفَرِ وَالحَضَرِ، كَمَا جَاءَ فِي الأَثَرِ.

وَالحَجُّ وَالجِهَادُ فَرْضَانِ مَاضِيَانِ مَعَ أُولِي الأَمْرِ مِنْ أَئِمَّةِ المُسْلِمِينَ - بَرِّهِمْ وَفَاجِرِهِمْ - إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ، لَا يُبْطِلُهُمَا شَيْءٌ وَلَا يَنْقُضُهُمَا.

قال رحمه اللَّه: (**وَنَرَى المَسْحَ عَلَى الخُفَّيْنِ فِي السَّفَرِ وَالحَضَرِ**)

ساق المصنِّف رحمه الله هذه الجملة؛ لبيان أنَّ معتقد أهل السُّنة والجماعة أنهم يَرون المسح على الخفين خلافاً للرافضة.

فالمسح على الخفين مسألةٌ فقهيةٌ واعتقاديةٌ؛ فقهيةٌ في المسح على الخفين[١]، واعتقاديةٌ في الرد على الرافضة؛ فالرافضة لا يَرون المسح على الخفين، ففي البرد يخلعون خفافهما ويمسحون على الأرجل، فخالفوا أمرين: **الأمر الأوَّل**: عدم المسح على الخفين، **والأمر الثاني**: عدم غسل القدمين.

فقوله: (**وَنَرَى المَسْحَ عَلَى الخُفَّيْنِ فِي السَّفَرِ وَالحَضَرِ**) أي: أن المسح على الخفين مشروعٌ في السفر، ومشروعٌ أيضاً في الحضر.

فإذا قيل: لماذا قال في السفر والحضر؟ نقول: من أجل أنه قال: (**كَمَا جَاءَ فِي الأَثَرِ**) أي: الأثر الذي رواه علي بن أبي طالب رضي

---

(١) لعل الصواب: (فالمسح على الخفين جائز).

الله عنه قال: «جَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم لِلْمُسَافِرِ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ وَلَيَالِيَهُنَّ، وَلِلْمُقِيمِ يَوْماً وَلَيْلَةً» متفق عليه[١]، فإذا قيل: لماذا أشار إلى حديث عليٍّ رضي الله عنه؟ نقول: لأن الرافضة الذين يَغلون في حب عليٍّ رضي الله عنه، وهو الذي روى حديث المسح على الخفين، فكأنه يقول: لماذا أيها الرافضة تخالفونه فيما رواه، وأنتم تدَّعون حبه؟!

فجاء المسح على الخفين في السفر والحضر؛ رخصة لهذه الأمَّة المحمدية، فنأخذ بها ونتعبد ربنا عز وجل بها عقيدةً وفقهاً؛ فقهاً في الصفة وما جاءت به الشريعة، وعقيدةً لمخالفة الرافضة.

وأهل العِلم رحمهم اللَّه يَذكرون مع هذه المسألة مسائل أخرى وهي: أن أهل السُّنة والجماعة يَرون غسل الرجلين في الوضوء خلافاً أيضاً للرافضة؛ فالرافضة يرون أنَّ القدمين لا تُغسل؛ إنما يُمسح ظهر القدمين بالأصابع، كما يَمسح أهل السُّنة الخفين بالأصابع، فوقعوا في مصيبةٍ أخرى، واللَّه عز وجل يقول: ﴿وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾ [المائدة: ٦]، فقوله: ﴿وَأَرْجُلَكُمْ﴾ هذه القراءة وهي قراءة

---

(١) رواه مسلمٌ، كتاب الطهارة، باب التوقيت في المسح على الخفين، رقم (٢٧٦). ولم أقف عليه عند البخاري.

حفصٍ[١] وحمزة[٢] بالنصب معطوفة على المرفوع وهو قوله: ﴿فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ﴾ ثم قال: ﴿وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾ ففي الآية تقديم وتأخير، فإذا قيل: لماذا ذكر غسل الوجه ثم اليدين ثم الرأس، ثم عاد إلى القدمين؟ نقول: هذا ترتيباً لأركان الوضوء.

فهذه الآية[٣] متواترةٌ تَقطع على الرافضة كل حُجةٍ، إضافة إلى تواتر الأحاديث في الغسل؛ كحديث عثمان[٤] وحديث ابن عباس[٥] وحديث

---

(١) هو: أبو عمر حفص بن سليمان الدوري مولاهم الغاضري الكوفي، وُلد سنة (٩٠هـ)، وتوفي رحمه الله سنة (١٨٠ هـ). معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار (ص ٨٤).

(٢) هو: أبو عمارة حمزة بن حبيب بن عمارة بن إسماعيل الإمام، الكوفي، ولد سنة (٨٠هـ)، وتوفي رحمه الله سنة (١٥٦ هـ). معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار (ص ١١١).

(٣) الصواب: (فقراءة هذه الآية).

(٤) رواه البخاريُّ، كتاب الوضوء، باب الوضوء ثلاثاً ثلاثاً، رقم (١٥٩)، ومسلمٌ، كتاب الطهارة، باب صفة الوضوء وكماله، رقم (٢٢٦)، وفيه: «...ثُمَّ غَسَلَ رِجْلَيْهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ...».

(٥) رواه البخاريُّ، كتاب الوضوء، باب غسل الوجه باليدين من غرفةٍ واحدةٍ، رقم (١٤٠)، وفيه: «... ثُمَّ أَخَذَ غَرْفَةً مِنْ مَاءٍ فَرَشَّ عَلَى رِجْلِهِ الْيُمْنَى حَتَّى غَسَلَهَا، ثُمَّ أَخَذَ غَرْفَةً أُخْرَى فَغَسَلَ بِهَا رِجْلَهُ، يَعْنِي الْيُسْرَى، ثُمَّ قَالَ: هَكَذَا رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم يَتَوَضَّأُ».

عبد اللَّه بن عمرو بن العاص[١] رضي الله عنهم، وهكذا حتى بلغت حد التواتر.

قال شيخ الإسلام رحمه اللَّه: «وكل سُنة يفعلها أهل السُّنة يخالف الرافضة فيها، فيؤخرون الفطر في رمضان حتى تشتبك النجوم، خلافاً لأهل السُّنة، ولا يَشرعون بالجنازة، خلافاً لأهل السُّنة، موافقة لغيرهم»[٢]؛ فاليهود لا يَشرعون بالجنازة في أمواتهم، وكذلك النصارى يفعلون مثل ما يفعل اليهود؛ لذلك ترى جنائز النصارى إذا مات أحدهم يمكثون زمناً طويلاً في المكان الذي هم فيه، وحتى في المقبرة يسيرون سيراً بطيئاً، أما أهل السُّنة فالسُّنة عندهم الإسراع للجنازة.

ثم قال رحمه اللَّه: (وَالحَجُّ وَالجِهَادُ فَرْضَانِ مَاضِيَانِ مَعَ أُولِي الأَمْرِ مِنْ أَئِمَّةِ المُسْلِمِينَ - بَرِّهِمْ وَفَاجِرِهِمْ -) هنا قال: (وَالحَجُّ) لأن بعض

---

(١) رواه البخاريُّ، كتاب الوضوء، باب غسل الرجلين ولا يمسح على القدمين، رقم (١٦٣)، ومسلمٌ، كتاب الطهارة، باب وجوب غسل الرجلين بكمالهما، رقم (٢٤١)، ولفظه: «رَجَعْنَا مَعَ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم مِنْ مَكَّةَ إِلَى الْمَدِينَةِ، حَتَّى إِذَا كُنَّا بِمَاءٍ بِالطَّرِيقِ تَعَجَّلَ قَوْمٌ عِنْدَ الْعَصْرِ فَتَوَضَّؤُوا وَهُمْ عِجَالٌ، فَانْتَهَيْنَا إِلَيْهِمْ وَأَعْقَابُهُمْ تَلُوحُ لَمْ يَمَسَّهَا الْمَاءُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: وَيْلٌ لِلأَعْقَابِ مِنَ النَّارِ، أَسْبِغُوا الْوُضُوءَ».

(٢) لم أقف.

أهل العِلم[١] يَرون أن السُّنة أن يكون للحجيج قائداً يقودهم وهو ولي الأمر، فلا يتقدَّمون عليه في الانصراف من عرفة، وكذا في مزدلفة، وكذا لا يَرمون قبله؛ واستدلوا بفعل النبي صلى الله عليه وسلم، وقوله: «خُذُوا عَنِّي مَنَاسِكَكُمْ»[٢]، وكذلك استدلوا بحجة أبي بكرٍ رضي الله عنه لمَّا بعثه النبي صلى الله عليه وسلم قائداً للحجيج ومعلِّماً لهم.

قال شيخ الإسلام رحمه اللَّه: «والحج من أدق المسائل الفقهية؛ لذلك بعث النبي صلى الله عليه وسلم في الحج أبا بكر؛ لأنه كان أفقه الصحابة؛ ليفتيهم»[٣]، فأهل السُّنة حتى ولو كان القائد الذي يقود الحجيج ويسيرون خلفه فاجراً؛ يسيرون خلفه، ولا شك من باب أَولى يسيرون خلفه إذا كان برّاً.

---

(١) كالإمام أحمد رحمه الله. المغني لابن قدامة (٣/ ٣٧٣).

(٢) رواه البيهقي في السُّنن الكبرى، كتاب الحج، باب الإيضاع في وادي محسر، (٥/ ٢٠٤)، رقم (٩٥٢٤)، من حديث جابر رضي الله عنه.

(٣) منهاج السُّنة (٥/ ٤٩٧).

لذلك قال: (**وَالحَجُّ**) المقصود به: السَّير خلفه في المشاعر، لا يتقدمون عليه.

قال: (**وَالجِهَادُ**) كذلك أهل السُّنة يَرون الجهاد حتى ولو مع الإمام الفاسق، لذلك قال شيخ الإسلام رحمه اللَّه: «والقائد الفاسق الشجاع أحب في الإسلام من القائد الصالح الجبان»[(١)]، فالشجاع من المسلمين وإن كان فاسقاً لكنه يقاتل الكفار؛ نسير خلفه، وهو أفضل من الجبان الصالح، لأنَّه يحقق مصالح للمسلمين في الفتوحات وغيرها.

قال: (**بَرِّهِمْ**) يعني: الرجل القائد الصالح، فالبَر ضد الفسق؛ اللَّه يقول: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ * وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾ [الانفطار: ١٣-١٤]، (**وَفَاجِرِهِمْ**) أي: القائد الفاسق.

وهكذا كان التابعون رضي الله عنهم، وكذا سلف الأمَّة رضي الله عنهم يحجون ويغزون مع ولي الأمر سواء كان بَرّاً أو فاجراً، لذلك قال: (**إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ**) يعني: ليس محدَّداً بالغزو مع الخلفاء الراشدين، وليس محدّداً مع قريشٍ وأمراء قريشٍ؛ وإنما مع كل ولي أمر المسلمين قد انعقد اللواء عليه وله فنحج ونجاهد معه.

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٢٨/ ٢٥٥).

قال: (لَا يُبْطِلُهُمَا شَيْءٌ وَلَا يَنْقُضُهُمَا) ذكر هنا رحمه الله أمرين: **الأمر الأوّل**: إبطال الجهاد، **والأمر الثاني**: نقض الجهاد، والفَرق بينهما:

قوله: (**لَا يُبْطِلُهُمَا شَيْءٌ**) يعني: الحج والغزو مع البَر والفاجر نفعله، فلا نُبطل شعيرة الحج والجهاد من أساسهما؛ يعني: ما نقول: إن هذا الإمام فاسقٌ؛ فما نحج ولا نجاهد، فالإبطال يعني: عدم الإقامة.

وقوله: (**وَلَا يَنْقُضُهُمَا**) يعني: إن الحج أو الجهاد مع ولي الأمر الفاسق لا يَنقض شيئاً من أحكامه، أو مثلاً نقيمه ثم نتوقف، فالنقض في أمرين:

الأمر الأوَّل: إما في إقامته ثم التوقف، فمثلاً نذهب فنقاتل، ثم نتوقف.

والأمر الثاني: إقامته في أمورٍ دون أمورٍ، فمثلاً: شخص يقول: نقاتل مع الإمام الفاسق، لكن الغنائم ما نأخذها.

وهذا معتقدٌ عظيمٌ من معتقدات أهل السُّنة فيه قوةٌ لشوكة المسلمين، وفيه إرهابٌ للعدو، وفيه حفظٌ لحمى بيضة الإسلام وحوزة الدين، فإذا عَلم الأعداء أنَّ المسلمين يقاتلونهم حتى ولو كان إمامهم فاسقاً فيرهبون من المسلمين.

وفي هذا ردٌّ أيضاً على الخوارج والروافض؛ لأنَّ الخوارج لا يَرون إقامة الجهاد مع الإمام الفاسق، والروافض لا يَرون إقامة الجهاد إلا خلف الإمام المعصوم، وهم يَرون أن خاتمة الأئمة المعصومين هو محمد بن الحسن العسكري[1] وهو المنتظَر عندهم الذي غاب سنة مئتين وستين، فقالوا: لا نعقد صلاة جماعةٍ حتى يَخرج لنا هذا الإمام المنتظَر، ولا نقيم جهاداً حتى يَخرج لنا ذلك الإمام المنتظَر، قال شيخ الإسلام: «وكيف ينتظرون شخصاً معدوماً أصله غير موجودٍ، فضلاً عن أن يكون غائباً؟!»[2] فهم وضعوا أمراً موهوماً يسيرون عليه ومع ذلك ناقضوا أنفسهم، فوضعوا لهم إماماً يصلُّون الجمعة بعده، ويصلُّون الصلوات الآن بعضها جماعةً بينهم، وهذا خلاف المعتقَد الذي ساروا عليه وهو أن الصلاة لا تكون إلا خلف الأئمة المعصومين.

---

(١) هو: أبو القاسم محمد بن الحسن بن علي بن محمد بن علي العلوي الحسيني. سير أعلام النبلاء (١٣/ ١١٩).

(٢) منهاج السُّنة لشيخ الإسلام (١/ ١٠٠).

وَنُؤْمِنُ بِالكِرَامِ الكَاتِبِينَ، وَأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ جَعَلَهُمْ عَلَيْنَا حَافِظِينَ.

قال رحمه اللَّه: (وَنُؤْمِنُ بِالكِرَامِ الكَاتِبِينَ) أي: الملائكة، ومن أعظم الأجور التي يؤجر عليها العبد هو الإيمان بالغيب، ومن الإيمان بالغيب: الإيمان بالملائكة الذين لا نراهم؛ لأنهم غيِّبوا عن أبصارنا، لكن قد يَظهر شيءٌ من آثارهم؛ مثل: قتالهم مع المسلمين في بدرٍ، والنبي عليه الصلاة والسلام رأى جبريل على صورته الحقيقية مرتين.

وإيماننا بالملائكة إيمانٌ بوجودهم؛ يعني: بأنهم موجودون، وكذا إيمانٌ بأعمالهم، وأن عددهم كثيرٌ؛ كما قال سبحانه: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر: ٣١].

وإيماننا بهم إيمانان:

الأوَّل: نؤمن بهم بالإجمال؛ بأن هناك خلقٌ عظيمٌ وهم الملائكة، ونؤمن بأعمالهم وبأن عددهم كثيرٌ.

والثاني: نؤمن بتفصيل ما جاءنا تفصيله من أسمائهم، ومما أوكلوا من أعمالٍ، وقد ورد في القران العظيم أسماء خمسة من الملائكة وهم: جبريل وميكائيل، وهاروت وماروت ومالك، أما ملَك الموت فهو وصفٌ لعمله لا اسماً له.

ولا يَعلم عددهم إلا اللَّه، ومن الكثرة قال عليه الصلاة والسلام: «أَطَّتِ[١] السَّمَاءُ وَحَقَّ لَهَا أَنْ تَئِطَّ، مَا فِيهَا مَوْضِعُ أَرْبَعِ أَصَابِعَ إِلَّا عَلَيْهِ مَلَكٌ سَاجِدٌ»[٢]، وفي الحديث الصحيح: «البَيْتُ المَعْمُورُ يَدْخُلُهُ كُلَّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ، إِذَا خَرَجُوا مِنْهُ لَمْ يَعُودُوا فِيهِ»[٣]، وهذا يدل على كثرتهم؛ فإذا كان كل يومٍ يدخل سبعون ألف ملكٍ ثم لا يعودون إليه ويأتِ آخرون؛ فهذا يدل على كثرتهم.

ومن الأعمال التي أوكلوا بها، بل أعظم عمل أوكلوا به هو: نزول الوحي على الرسل؛ لإنقاذ البشرية من الكُفر إلى الإيمان، لهذا كان أشرفهم هو من يقوم بذلك العمل وهو جبريل عليه السلام، فوصفه اللَّه عز وجل بأنه أمينٌ؛ لأنه أدى ما أمره اللَّه عز وجل لرسله.

---

(١) أي: أصدرت صوتاً. النهاية في غريب الحديث والأثر (١/ ٥٤).

(٢) رواه أحمد في المسند، رقم (٢١٥١٦)، من حديث أبي ذرٍّ رضي الله عنه.

(٣) رواه البخاريُّ، كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة، رقم (٣٢٠٧)، ومسلمٌ، كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله صلى الله عليه وسلم إلى السماوات، وفرض الصلوات، رقم (١٦٤)، من حديث مالك بن صعصعة رضي الله عنه.

ومن أعمالهم: سوق الرياح، وإنزال المطر؛ فهناك مَلَكٌ موكَّلٌ بالقَطر، ومن أعمالهم: النفخ في كل جنينٍ إذا تم أربعة أشهر، ويؤمر بكتب رزقه وأجله وعمله وشقيٌّ أو سعيدٌ، ومن أعمالهم: نزع الأرواح.

ومن أعمالهم: حفظ العباد، لذلك قال المصنِّف رحمه اللَّه: (**وَأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ جَعَلَهُمْ عَلَيْنَا حَافِظِينَ**) وحفظهم للعبد بأمرين:

الأمر الأوَّل: حفظهم من الشرور والآثام والمكاره.

والأمر الثاني: حفظ أعماله، سواء الحسنات أو السيئات؛ فالحسنات حتى لا يُبخس شيءٌ من ذلك، والسيئات حتى لا يُظلم بشيءٍ، فيُجعل عليه شيءٌ لم يعمله.

لذلك قال سبحانه عن **الأمر الأوَّل** - وهو حفظ العبد من المكاره -: ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ [الرعد: ١١]، وقال سبحانه عن **الأمر الثاني** - وهو حفظ الأعمال -: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَاماً كَاتِبِينَ﴾ [الانفطار: ١٠-١١] يعني: يكتبون أعمال الحسنات والسيئات، وقال أيضاً: ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨]، وقال سبحانه: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزخرف: ٨٠]،

وقال: ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجاثية: ٢٩]، فهم يَكتبون ما يَعمله العبد وما يتلفظ به، فنؤمن بأولئك الكرام.

وفي كل يومٍ وليلةٍ مع العبد ثمانية ملائكة؛ أربعة يحفظونه من المكاره، وأربعة يكتبون حسناته وسيئاته، ففي النهار معه أربعة؛ اثنان للحسنات والسيئات، واثنان للحفظ، وكذا في الليل معه أربعة؛ اثنان للحسنات والسيئات، واثنان لحفظه، لذلك قال عليه الصلاة والسلام: «يَتَعَاقَبُونَ فِيكُمْ مَلَائِكَةٌ بِاللَّيْلِ، وَمَلَائِكَةٌ بِالنَّهَارِ، وَيَجْتَمِعُونَ فِي صَلَاةِ الْفَجْرِ وَصَلَاةِ الْعَصْرِ، ثُمَّ يَعْرُجُ الَّذِينَ بَاتُوا فِيكُمْ، فَيَسْأَلُهُمْ رَبُّهُمْ، وَهُوَ أَعْلَمُ بِهِمْ: كَيْفَ تَرَكْتُمْ عِبَادِي؟ فَيَقُولُونَ: تَرَكْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ وَأَتَيْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ»(١)، لهذا كانت من أعظم

---

(١) رواه البخاريُّ، كتاب التوحيد، بَابُ قَوْلِ اللهِ تَعَالَى {تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ}، رقم (٧٤٢٩)، ومسلمٌ، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب فضل صلاتي الصبح والعصر والمحافظة عليهما، رقم (٦٣٢)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

الصلوات: صلاة البردين؛ وهما صلاة الفجر وصلاة العصر؛ قال عليه الصلاة والسلام: «مَنْ صَلَّى البَرْدَيْنِ دَخَلَ الْجَنَّةَ»[1].

وقول المصنِّف: **(وَنُؤْمِنُ بِالكِرَامِ)** هذا وصفٌ عظيمٌ للملائكة، قال سبحانه: ﴿بِأَيْدِي سَفَرَةٍ * كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾ [عبس: ١٥-١٦]، فهم كرامٌ ما يَظلمون أحداً، قال ابن كثيرٍ رحمه اللَّه: «فينبغي لحافظ القران أن يكون كريماً؛ فإن اللَّه وصف الملائكة بالكرم»[2].

---

(١) رواه البخاريُّ، كتاب مواقيت الصلاة، باب فضل صلاة الفجر، رقم (٥٧٤)، ومسلمٌ، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب فضل صلاتي الصبح والعصر، والمحافظة عليهما، رقم (٦٣٥)، من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

(٢) تفسير ابن كثير (٨/ ٣٢١).

وَنُؤْمِنُ بِمَلَكِ المَوْتِ، المُوَكَّلِ بِقَبْضِ أَرْوَاحِ العَالَمِينَ.

وَبِعَذَابِ القَبْرِ لِمَنْ كَانَ لَهُ أَهْلاً، وَسُؤَالِ مُنْكَرٍ وَنَكِيرٍ لِلْمَيِّتِ فِي قَبْرِهِ عَنْ رَبِّهِ وَدِينِهِ وَنَبِيِّهِ، عَلَى مَا جَاءَتْ بِهِ الأَخْبَارُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم، وَعَنْ أَصْحَابِهِ - رضي الله عنهم أَجْمَعِينَ -.

وَالقَبْرُ رَوْضَةٌ مِنْ رِيَاضِ الجَنَّةِ، أَوْ حُفْرَةٌ مِنْ حُفَرِ النَّارِ.

قال رحمه اللَّه: **(وَنُؤْمِنُ بِمَلَكِ المَوْتِ)** ملك الموت جاء في وصفه بأنه ملكٌ واحدٌ؛ كما قال سبحانه: ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ﴾ [السجدة: ١١]، وجاء بأنهم عدة ملائكة؛ كما قال سبحانه: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ﴾ [الأنعام: ٩٣]، والجمع بينهما: أن هؤلاء الملائكة الموكَّلون بنزع الارواح ملك الموت هو الذي يأمرهم بأمر اللَّه بقبض أرواح العباد.

لذلك قال: **(المُوَكَّلِ بِقَبْضِ أَرْوَاحِ العَالَمِينَ)** كما قال سبحانه: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٤].

قال: (وَبِعَذَابِ القَبْرِ) هنا قال: عذاب القبر، ولم يَذكر نعيم القبر؛ لأن عذاب القبر ينكره المعتزلة، أما نعيم القبر فيقولون: إذا كان العبد منعَّماً فهذا من عمله، لكن ننكر أن العبد يعذَّب في قبره.

والدليل على عذاب القبر من القرآن: قوله سبحانه: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوّاً وَعَشِيّاً﴾ هذا في القبر؛ يعني: آل فرعون ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٦].

ومما استدل به بعض أهل العِلم[1] على عذاب القبر من القرآن: قوله سبحانه: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [السجدة: ٢١] فقالوا: إن العذاب الأدنى هو عذاب القبر، لكن قد تكون هذه الآية العذاب الأدنى يعني: العذاب في الدنيا دون عذاب الآخرة.

---

(١) كالبراء رضي الله عنه، ونسبه ابن القيم لابن عباسٍ رضي الله عنهما. الشريعة للآجري (٣/ ١٢٨٣)، الروح (ص٧٦).

وأما الدليل من السُّنة: فوردت أحاديث كثيرة؛ مثل: قوله عليه الصلاة والسلام في البخاريِّ ومسلمٍ[١]: «مَرَّ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ سَلَّمَ بِقَبْرينِ فَقَالَ: إِنَّهُمَا لَيُعَذَّبَانِ، وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ، أَمَّا أَحَدُهُمَا فَكَانَ لَا يَسْتَتِرُ مِنَ البَوْلِ، وَأَمَّا الآخَرُ فَكَانَ يَمْشِي بِالنَّمِيمَةِ»، وأيضا ما رواه الإمام أحمد في المسند[٢] قال: «إِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا كَانَ فِي إِقْبَالٍ مِنَ الآخِرَةِ، وَانْقِطَاعٍ مِنَ الدُّنْيَا، تَنَزَّلَتْ إِلَيْهِ المَلَائِكَةُ كَأَنَّ عَلَى وُجُوهِهِمُ الشَّمْسَ، مَعَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ كَفَنٌ وَحَنُوطٌ...» إلى آخر الحديث.

قال: (وَبِعَذَابِ القَبْرِ لِمَنْ كَانَ لَهُ أَهْلاً) أي: لمن استحق العذاب، فنؤمن بأن هناك عذابٌ في القبر، فإذا قيل: كيف يكون هناك عذابٌ في القبر، ونحن نشاهد الميت ما فيه لا نارٌ ولا فيه اختلاف أضلاعه ولا شيء؟ نقول: الشخص قد ينام ويرى رؤيا مفزعةً وناراً ونحو ذلك، ثم يستيقظ وما يرى شيئاً، فالعذاب في القبر يكون على الروح والجسد تبعاً

(١) رواه البخاريُّ، كتاب الوضوء، باب ما جاء في غسْل البول، رقم (٢١٨)، ومسلمٌ، كتاب الطهارة، باب الدليل على نجاسة البول ووجوب الاستبراء منه، رقم (٢٩٢)، من حديث ابن عباسٍ رضي الله عنهما.

(٢) رقم (١٨٦١٤)، من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه.

له، وفي الدنيا على الجسد والروح تبعاً له، وفي الآخرة العذاب والنعيم للجسد والروح معاً.

ثم قال: (وَسُؤَالِ مُنْكَرٍ وَنَكِيرٍ لِلْمَيِّتِ فِي قَبْرِهِ) منكرٌ ونكيرٌ هذان اسمان للملائكة، ولم يثبت اسم منكرٍ ونكيرٍ بأنهم من الملائكة، وإنما يأتي ملكان فيجلسانه فيقولان له: من ربك؟ من نبيك؟ ما دينك؟ وجاء في بعض الآثار أن الذي يسألانه من الملائكة اسمهما منكرٌ ونكيرٌ[١]، لكن ما ثبت.

(عَنْ رَبِّهِ وَدِينِهِ وَنَبِيِّهِ) فيقال له: من ربك؟ ما دينك؟ من نبيك؟ كما في حديث البراء في مسند الإمام أحمد[٢]، فأما المؤمن فيقول: ربي اللَّه وديني الإسلام ونبيّي محمد، وأما الكافر والمنافق فيقول: ها ها لا أدري سمعتُ الناس يقولون شيئاً فقلتُه - والعياذ باللَّه -، فيُضرب بمرزبةٍ من حديدٍ، فيصيح صيحةً، فيسمعها كل شيءٍ إلا الثقلين ولو سمعوا لآمنوا؛

(١) كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وفيه: «إِذَا قُبِرَ الْمَيِّتُ - أَوْ قَالَ: أَحَدُكُمْ - أَتَاهُ مَلَكَانِ أَسْوَدَانِ أَزْرَقَانِ، يُقَالُ لِأَحَدِهِمَا: الْمُنْكَرُ، وَلِلْآخَرِ: النَّكِيرُ...» رواه الترمذيُّ، أبواب الجنائز، باب ما جاء في عذاب القبر، رقم (١٠٧١).

(٢) رقم (١٨٥٣٤).

لذلك قال سبحانه: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ [إبراهيم: ٢٧]، والثبات في القبر أوَّل منزلةٍ من منازل الآخرة.

فإذا قيل: متى يبدأ اليوم الآخر؟ نقول: من القبر، وعذاب القبر يعذَّب من كان أهلاً لذلك، أو ينعَّم، لمن كان مدفوناً، ولمن لم يكن مدفوناً؛ مثل: من كان ملقىً في صحراء فلم يُدفن، أو من أكلته السباع والأسماك ونحو ذلك، ونُسب العذاب والنعيم للقبر؛ لأن الغالب أنَّ الشخص يُقبر.

قال: (عَلَى مَا جَاءَتْ بِهِ الأَخْبَارُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم) مثل ما سبق في الأحاديث، (وَعَنْ أَصْحَابِهِ - رضي الله عنهم أَجْمَعِينَ -) كما ورد عن عثمان رضي الله عنه أنه كان يأتي للقبر ويعظ نفسه حتى تبتل لحيته[١].

(١) رواه ابن ماجه، كتاب الزهد، باب ذكر القبر والبلى، رقم (٤٢٦٧)، من حديث هانئ مولى عثمان، ولفظه: كَانَ عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ إِذَا وَقَفَ عَلَى قَبْرٍ يَبْكِي حَتَّى يَبُلَّ لِحْيَتَهُ، فَقِيلَ لَهُ: تَذْكُرُ الْجَنَّةَ وَالنَّارَ، وَلَا تَبْكِي، وَتَبْكِي مِنْ هَذَا؟ قَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم، قَالَ: «إِنَّ الْقَبْرَ أَوَّلُ مَنَازِلِ الْآخِرَةِ، فَإِنْ نَجَا مِنْهُ، فَمَا بَعْدَهُ أَيْسَرُ مِنْهُ، وَإِنْ لَمْ يَنْجُ مِنْهُ، فَمَا بَعْدَهُ أَشَدُّ مِنْهُ».

قال: **(وَالقَبْرُ رَوْضَةٌ مِنْ رِيَاضِ الجَنَّةِ)** للمؤمنين، **(أَوْ حُفْرَةٌ مِنْ حُفَرِ النَّارِ)** - والعياذ باللَّه - للكافرين والمنافقين؛ كما قال سبحانه: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوّاً وَعَشِيّاً﴾ [غافر: ٤٦]؛ يعني: في كل صباحٍ ومساءٍ يُعرض آل فرعون على النار - والعياذ باللَّه -، وكذلك من كان من الكافرين يعذَّب عذاب القبر، والمؤمن يُفسح له في قبره، ويُمد له في بصره ويقال له: انظر الى منزلك في النار أبدلك اللَّه بها منزلاً في الجَنة، ويقال للكافر: انظر إلى منزلك في الجَنة أبدلك اللَّه عنه بمنزلٍ في النار - والعياذ باللَّه -.

وَنُؤْمِنُ بِالبَعْثِ وَجَزَاءِ الأَعْمَالِ يَوْمَ القِيَامَةِ، وَالعَرْضِ وَالحِسَابِ، وَقِرَاءَةِ الكِتَابِ، وَالثَّوَابِ وَالعِقَابِ، وَالصِّرَاطِ وَالمِيزَانِ.

قال رحمه اللَّه: (وَنُؤْمِنُ بِالبَعْثِ) أي: إعادة الأجساد يوم القيامة كما كانت في الدنيا، فيُرى الشخص في الآخرة في المحشر على هيئته التي في الدنيا، فالملبِّي يعود بإحرامه يلبِّي، والمكلوم في سبيل اللَّه يُبعث وجرحه يسيل دماً، وهكذا يُبعث كل شخصٍ على ما كان عليه.

والمشركون لا ينكِرون البعث؛ وإنما إنكارهم هو إعادة الأجساد على صورتها كما كانت؛ لذلك قالوا: ﴿أَإِذَا كُنَّا عِظَاماً نَخِرَةً﴾ فنعود كما كنا ﴿قَالُوا تِلْكَ إِذاً كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾ [النازعات: ١١-١٢]، وقال اللَّه عنهم: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٧٨-٧٩].

والإيمان بالبعث أتت الرسل بدعوة أقوامهم إليه؛ بدءاً من آدم عليه السلام، قال سبحانه: ﴿قَالَ اهْبِطُوا﴾ يعني: آدم وحواء وإبليس ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ * قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ [الأعراف: ٢٤-٢٥]، وقال نوح عليه السلام: ﴿وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتاً * ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا

وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجاً﴾ [نوح: ١٧-١٨]، وفي قوم موسى: ﴿وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ * يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾ [غافر: ٣٢-٣٣]، وفي هذه الأمَّة قال: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [التغابن: ٧]، وقال سبحانه: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ * عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ * الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾ [النبأ: ١-٣]؛ يعني: هو البعث.

فمعتقد أهل الإسلام هو الإيمان بالبعث، والإيمان بالبعث وإعادة الناس إلى ما كانوا من رحمة اللَّه عز وجل وفضله؛ ليجازى كلٌّ بعمله كما سيأتي.

قال: (وَجَزَاءِ الأَعْمَالِ يَوْمَ القِيَامَةِ) كما قال سبحانه: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧ – ٨]، وقال سبحانه: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ * ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ [الزمر: ٣٠_٣١]، وفي الآية الأخرى: ﴿تُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ١٦]، وقال سبحانه: ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ﴾ [الغاشية: ٢٥-٢٦].

والمقصود بجزاء الأعمال يوم القيامة: أي: المحاسبة عليها؛ قال سبحانه: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الجاثية: ٢١]، فلا بد من المحاسبة لكل أحدٍ.

قال: (وَالعَرْضِ) يعني: قيام الناس لرب العالمين، كيف؟ نقول: من كمال ملك اللَّه عز وجل وقوة هيمنته وقدرته أن يعيد الخلائق جميعاً أمامه سبحانه وتعالى؛ كما قال سبحانه: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾ [طه: ٥٥]، وقال سبحانه: ﴿وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفّاً لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الكهف: ٤٨]، عُرضوا بأجسادهم على رب العالمين، قال سبحانه: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٨]، وقال سبحانه: ﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعاً﴾ [إبراهيم: ٢١]، وقال سبحانه: ﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ * يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ﴾ [غافر: ١٥-١٦].

لذلك من معتقد أهل السُّنة العرض على اللَّه عز وجل؛ يعني: العرض قبل الحساب؛ يُعرضون جميعاً، وهذا من قهر اللَّه لعباده؛ افعل ما شئتَ فأنت ملاقينا، اظلم ما شئتَ فسوف تقف بين يدي اللَّه عز وجل؛ لذلك في هذا إيناسٌ للمظلوم، وكذلك أيضاً فيه فرحٌ للصالح الذي يَعلم بأنَّه بين يدي اللَّه عز وجل يجازيه.

ثم قال: (وَالحِسَابِ) فهم يُعرضون ثم يحاسبون، فمن العقيدة أيضاً: الحساب؛ كما قال سبحانه: ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف: ٨-٩]، وقال سبحانه: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧]، فيحاسَب كل شخصٍ بعمله، إن خيراً فخيرٌ، وإن شرّاً فشرٌّ.

ثم قال: (وَقِرَاءَةِ الكِتَابِ) يعني: مما نؤمن به قراءة كتاب وصحائف الأعمال؛ الحسنات والسيئات، فقراءة الكتاب مما يكون في المحشر يوم القيامة؛ كما قال سبحانه: ﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي

عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَاباً يَلْقَاهُ مَنْشُوراً ۞ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً﴾ [الإسراء: ١٣-١٤].

والذي يَقرأ هذا الكتاب الأمّي والمتعلم، جميعاً ينظر ما فيه من حسناتٍ وينظر ما فيه من سيئاتٍ؛ كما قال سبحانه: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ۞ كِرَاماً كَاتِبِينَ﴾ [الانفطار: ١٠-١١]، وقال جل وعلا: ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨]، فكل فعلٍ مكتوبٌ ومنسوخٌ، وكل قولٍ مدوَّنٌ عند ملائكةٍ حافظين كراماً كاتبين، يخشون اللَّه عز وجل لا يزيدون ولا ينقصون فيه شيئاً.

قال: (وَالثَّوَابِ وَالعِقَابِ) فلمَّا قرؤوا الكتاب يَبدأ في حقهم الثواب بالجَنة والرضوان والنظر في وجهه سبحانه الكريم، أو العقاب بدخول النار - والعياذ باللَّه - وما فيها من أصناف العذاب؛ من حرٍّ شديدٍ وبردٍ شديدٍ، وأكلٍ من زقومٍ وحميمٍ وغير ذلك من الأغلال، والثياب من سرابيل، والوجوه الشاحبة وما فيها من صراخٍ ونحو ذلك؛ قال اللَّه: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ [فاطر: ٣٧].

ثم قال بعد ذلك: (وَالصِّرَاطِ) الصراط يكون بعد المحاسبة، ويكون دون الجسر بعد الظلمة؛ كما سألت عائشة رضي الله عنها النبي صلى الله عليه وسلم فقالت: أين الخلائق - يعني: بعد ذلك - فقال: «هُمْ فِي الظُّلْمَةِ دُونَ الْجِسْرِ»(١)، فإذا حوسبوا يأتون إلى مكانٍ فيه ظلمةٌ، ثم يَعبرون منه على الصراط.

وهذا الصراط الذي يَظهر واللَّه أعلم أنَّ الذي يَعبره هم المؤمنون والمنافقون فقط، أما الكفار فيُزج بهم في نار جهنم، فلا يَعبرون على الصراط؛ لأنه لا حسنات لهم حتى توزن، وإنما تُعرض عليهم سيئاتهم، ويقرّون عليها، وحسناتهم إنما يجازون عليها في الدنيا، فمن كان منهم يَصِل رحمه يثاب على ما يفعله في الدنيا من مالٍ مثلاً يرزقه اللَّه، أو العافية ونحو ذلك، أما في الآخرة فكما قال سبحانه عنهم: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُوراً﴾ [الفرقان: ٢٣]، أما المؤمنون فيقرَّرون بحسناتهم وبسيئاتهم.

---

(١) رواه مسلمٌ، كتاب الحيض، باب بيان صفة مني الرجل، والمرأة وأن الولد مخلوق من مائهما، رقم (٣١٥)، من حديث ثوبان رضي الله عنه.

فالصراط كما قلنا الذي يَعبره المؤمنون والمنافقون؛ فالمنافقون كما قال سبحانه: ﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُوراً فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾ [الحديد: ١٣]، فيَسقطون ولا يتم لهم العبور على الصراط، قال أهل العِلم: «وهذا من خديعة اللَّه عز وجل للمنافقين، كما قال سبحانه: ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ٩]»(١)، إذاً واللَّه أعلم أنه يَدخل معهم المنافقون، لكن لا يتمون الصراط، قال سبحانه: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْماً مَقْضِيّاً﴾ [مريم: ٧١].

والصراط تحته النار، فمنهم من يَعبر كالبرق، ومنهم من يَعبر كالخيل المرسَلة، ومنهم من يمشي مشياً، ومنهم من يَزحف زحفاً، ومنهم من تأخذه - والعياذ باللَّه - الكلاليب فيسقط في نار جهنم، فلا يبقى من اجتاز الصراط سوى المؤمنين، ثم بعد ذلك يكونون في قنطرةٍ وهي مكانٌ بعد الصراط، فيهذَّبون ويُقتص لبعضهم من بعضٍ، ثم يأتي

(١) تفسير الطبري (٧/ ٦١٢).

النبي عليه الصلاة والسلام إلى باب الجَنة فيَستفتح فيُفتح لهم، أما الكفار مثل ما قال سبحانه: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْداً * وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْداً﴾ [مريم: ٨٥-٨٦] من المحشر إلى النار والعياذ باللَّه.

ثم قال رحمه اللَّه: (وَالمِيزَانِ) الميزان لثلاثة أمورٍ:

الأمر الأوَّل: ورد أنه يوزَن نفس الكتاب، فصحائف الأعمال توزن؛ كما في حديث البطاقة[1]؛ يؤتى بمد البصر من السجل مما كُتب

---

(١) رواه أحمد في المسند، رقم (٦٩٩٤)، من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، ولفظه: «إِنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ يَسْتَخْلِصُ رَجُلاً مِنْ أُمَّتِي عَلَى رُءُوسِ الْخَلَائِقِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيَنْشُرُ عَلَيْهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ سِجِلّاً، كُلُّ سِجِلٍّ مَدَّ الْبَصَرِ.

ثُمَّ يَقُولُ لَهُ: أَتُنْكِرُ مِنْ هَذَا شَيْئاً؟ أَظَلَمَتْكَ كَتَبَتِي الْحَافِظُونَ؟

قَالَ: لَا، يَا رَبِّ.

فَيَقُولُ: أَلَكَ عُذْرٌ، أَوْ حَسَنَةٌ؟

فَيُبْهَتُ الرَّجُلُ، فَيَقُولُ: لَا، يَا رَبِّ.

فَيَقُولُ: بَلَى، إِنَّ لَكَ عِنْدَنَا حَسَنَةً وَاحِدَةً، لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ، فَتُخْرَجُ لَهُ بِطَاقَةٌ، فِيهَا: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ.

فَيَقُولُ: أَحْضِرُوهُ.

على الرجل من سيئات، فتوضع في الميزان، فيميل الميزان، ثم يؤتى بكلمة التوحيد، فتوضع في الكفة الأخرى فتطيش تلك السجلات.

والأمر الثاني: يوزن أيضاً الشخص، لكن لا عبرة بوزن الشخص؛ كما قال عليه الصلاة والسلام: «لَيَأْتِي الرَّجُلُ الْعَظِيمُ السَّمِينُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، لَا يَزِنُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ»[1].

والأمر الثالث: توزن الأعمال؛ قال سبحانه: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ* وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧ – ٨]، وقال عليه الصلاة والسلام: «وَالحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلَأُ المِيزَانَ»[2].

فَيَقُولُ: يَا رَبِّ! مَا هَذِهِ الْبِطَاقَةُ مَعَ هَذِهِ السِّجِلَّاتِ؟

فَيُقَالُ: إِنَّكَ لَا تُظْلَمُ.

قَالَ: فَتُوضَعُ السِّجِلَّاتُ فِي كِفَّةٍ.

قَالَ: فَطَاشَتِ السِّجِلَّاتُ، وَثَقُلَتِ الْبِطَاقَةُ، وَلَا يَثْقُلُ شَيْءٌ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ».

(١) رواه البخاريُّ، كتاب تفسير القرآن، باب قول الله تعالى: {أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ} الْآيَةَ، رقم (٤٧٢٩)، ومسلمٌ، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، رقم (٢٧٨٥)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) رواه مسلمٌ، كتاب الطهارة، باب فضل الوضوء، رقم (٢٢٣)، من حديث أبي مالكٍ الأشعريّ رضي الله عنه.

وهذا الميزان الذي في المحشر ميزانٌ حقيقيٌّ له كفتان، قال سبحانه: ﴿وَالوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ المُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ٨]، وقال سبحانه: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ [الأنبياء: ٤٧]، ومن دقة هذا الميزان يأتي صنف من الناس تستوي حسناته وسيئاته وهم أصحاب الأعراف، ثم بعد ذلك يُفصل بينهم في دخول الجَنة.

والناس في هذا الميزان ينقسمون إلى ثلاثة أقسامٍ:

القِسم الأوَّل: يَدخل الجَنة بغير حسابٍ ولا عذابٍ، فما يوزَن شيءٌ له.

والقِسم الثاني: تُعرض عليه الأعمال عرضاً؛ كما قال سبحانه: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ * فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَاباً يَسِيراً﴾ [الانشقاق: ٧-٨].

والقِسم الثالث: يناقَش الحساب؛ كما قال عليه الصلاة والسلام: «مَنْ نُوقِشَ الْحِسَابَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عُذِّبَ»[(١)].

فالناس على هذه الأقسام الثلاثة، ولهذا ينبغي للشخص أن يدعو لنفسه كثيراً فيقول مثلاً: اللَّهم أدخلني الجَنة بغير حسابٍ ولا عذابٍ؛ حتى يكون من الناجين الفائزين في ذلك الموقف العظيم والكرب المهول.

---

(١) رواه البخاريُّ، كتاب الرقاق، باب: من نوقش الحساب عذب، رقم (٦٥٣٧)، ومسلمٌ، كتاب الجَنة وصفة نعيمها وأهلها، باب إثبات الحساب، رقم (٢٨٧٦)، من حديث عائشة رضي الله عنها.

وَالجَنَّةُ وَالنَّارُ مَخْلُوقَتَانِ، لَا تَفْنَيَانِ أَبَداً وَلَا تَبِيدَانِ.

وَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَلَقَ الجَنَّةَ وَالنَّارَ قَبْلَ الخَلْقِ، وَخَلَقَ لَهُمَا أَهْلاً، فَمَنْ شَاءَ مِنْهُمْ لِلْجَنَّةِ فَضْلاً مِنْهُ، وَمَنْ شَاءَ مِنْهُمْ لِلنَّارِ عَدْلاً مِنْهُ.

قال رحمه اللَّه: **(وَالجَنَّةُ وَالنَّارُ مَخْلُوقَتَانِ)** يعني: أن الجنة والنار الآن مخلوقتان – يعني: موجودتان –؛ كما قال سبحانه: ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣] يعني: الآن معدَّة، وقال سبحانه عن النار: ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤] يعني: الآن موجودة، وقال النبي عليه الصلاة والسلام: «اطَّلَعْتُ فِي الجَنَّةِ، فَرَأَيْتُ أَكْثَرَ أَهْلِهَا الفُقَرَاءَ، وَاطَّلَعْتُ فِي النَّارِ فَرَأَيْتُ أَكْثَرَ أَهْلِهَا النِّسَاء»[1]؛ فدل على أنهما موجودتان.

والنبي عليه الصلاة والسلام قال: «اشْتَكَتِ النَّارُ إِلَى رَبِّهَا، فَقَالَتْ: رَبِّ أَكَلَ بَعْضِي بَعْضاً، فَأَذِنَ لَهَا بِنَفَسَيْنِ نَفَسٍ فِي الشِّتَاءِ وَنَفَسٍ

---

(١) رواه البخاريُّ، كتاب الرقاق، باب صفة الجَنة والنار، رقم (٦٥٤٦)، من حديث عمران رضي الله عنه، ومسلمٌ، كتاب الرقاق، باب أكثر أهل الجَنة الفقراء وأكثر أهل النار النساء وبيان الفتنة بالنساء، رقم (٢٧٣٧)، من حديث ابن عباسٍ رضي الله عنهما.

فِي الصَّيْفِ، فَأَشَدُّ مَا تَجِدُونَ فِي الحَرِّ، وَأَشَدُّ مَا تَجِدُونَ مِنَ الزَّمْهَرِيرِ»[١] فدل على أنها موجودةٌ.

وقال عليه الصلاة والسلام: «مَنْ قَالَ: سُبْحَانَ اللَّهِ العَظِيمِ وَبِحَمْدِهِ، غُرِسَتْ لَهُ نَخْلَةٌ فِي الجَنَّةِ» رواه الترمذي[٢] فدل على أنها موجودةٌ.

ولمَّا سمع عليه الصلاة والسلام وَجَبَةً - يعني: سقوطاً - فقال عليه الصلاة والسلام: «تَدْرُونَ مَا هَذَا؟ قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: هَذَا حَجَرٌ رُمِيَ بِهِ فِي النَّارِ مُنْذُ سَبْعِينَ خَرِيفاً، فَهُوَ يَهْوِي فِي النَّارِ الْآنَ، حَتَّى انْتَهَى إِلَى قَعْرِهَا»[٣]، فدل على أنها موجودةٌ.

---

(١) رواه البخاريُّ، كتاب بدء الخلق، باب صفة النار وأنها مخلوقة، رقم (٣٢٦٠)، ومسلمٌ، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب استحباب الإبراد بالظهر في شدة الحر، رقم (٦١٧)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أبواب الدعوات، رقم (٣٤٦٤)، من حديث جابر رضي الله عنه.

(٣) رواه مسلمٌ، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب في شدة حر نار جهنم، وبعد قعرها، وما تأخذ من المعذبين، رقم (٢٨٤٤)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وفي صلاة الكسوف أقبل النبي عليه الصلاة والسلام وأدبر؛ رأى الجَنة فأقبل أراد أن يأخذ عنقوداً، وتأخر لمَّا رأى النار[1]، فدل على أنهما مخلوقتان الآن، وأنكر ذلك المعتزلة؛ لذلك ساق المصنِّف رحمه الله هذا المعتقد العظيم.

قال: (لَا تَفْنَيَانِ أَبَداً وَلَا تَبِيدَانِ) هنا مسألةٌ وهي: فناء الجَنة وفناء النار، فنقول: لم يختلف أهل السُّنة والجماعة في أن الجَنة لا تفنى؛ بل هم متفقون على أن الجَنة باقيةٌ لا تفنى أبداً، واختلفوا رحمهم اللَّه هل النار تفنى أو لا تفنى على قولين:

القول الأوَّل: منهم من ذهب إلى فناء النار؛ استدلالاً بقوله عز وجل: ﴿لَابِثِينَ فِيهَا أَحْقَاباً﴾ [النبأ: ٢٣]؛ يعني: مدةً طويلةً ثم تفنى، وقوله عز وجل أيضاً: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ * خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾ [هود: ١٠٦-١٠٧] يعني: اللَّه يشاء فترة، ثم بعد ذلك تفنى

(١) كما في حديث ابن عباسٍ رضي الله عنهما، وفيه: «إِنِّي رَأَيْتُ الْجَنَّةَ، فَتَنَاوَلْتُ عُنْقُوداً، وَلَوْ أَصَبْتُهُ لَأَكَلْتُمْ مِنْهُ مَا بَقِيَتِ الدُّنْيَا، وَأُرِيتُ النَّارَ، فَلَمْ أَرَ مَنْظَراً كَالْيَوْمِ قَطُّ أَفْظَعَ» رواه البخاريُّ، كتاب الكسوف، باب صلاة الكسوف جماعة، رقم (١٠٥٢).

على هذا القول، وإلى هذا القول - وهو فناء النار - ذهب شيخ الإسلام[١] وابن القيم[٢] رحمهم اللَّه.

القول الثاني: أن النار لا تفنى أبداً؛ لقوله عز وجل: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٧]، وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيراً * خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً لَا يَجِدُونَ وَلِيّاً وَلَا نَصِيراً﴾ [الأحزاب: ٦٤-٦٥]، وقول النبي عليه الصلاة والسلام: «ثُمَّ يُقَالُ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ، خُلُودٌ فَلَا مَوْتَ،

(١) لم أقف على أنه ممن قاله، ولعل الصواب أن شيخ الإسلام من القائلين بعدم فناء النار، لأنه نَص رحمه الله على ذلك في أكثر من موضعٍ؛ منها: قوله: «وقد اتفق سلف الأمة وأئمتها وسائر أهل السنة والجماعة على أن من المخلوقات ما لا يعدم ولا يفنى بالكلِّية كالجَنة والنار والعرش وغير ذلك». مجموع فتاوى شيخ الإسلام (١٨/ ٣٠٧).

(٢) هو رحمه الله ذكر الأقوال بفناء النار، ولمَّا وصل إلى القول بعدم فناءها قواه وأيده بالأدلة؛ فكأنه رحمه الله يراه هو الصواب. حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح (٢/ ٧٣٣).
لكنه رحمه الله له قول آخر يقول بفناءها، ونص عليه في أكثر من موضعٍ؛ منها: قوله بعد أن ذكر الجنة والنار: «وهاتان الداران لا تفنيان» الوابل الصيب (ص٢٠).

وَيَا أَهْلَ النَّارِ، خُلُودٌ فَلَا مَوْتَ»(١)، وإلى هذا القول ذهب ابن جرير(٢) رحمه اللَّه، وكذلك ابن كثيرٍ(٣) والصنعاني(٤) وغيرهم(٥).

وردوا على استدلال القول الأوَّل بقول اللَّه عز وجل: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ * خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ [هود: ١٠٦-١٠٧] أنَّ هذا في أهل الكبائر دون الشرك، فمن فعل كبيرةً فإنه يبقى في النار ما شاء اللَّه إن لم تتداركه مشيئة اللَّه ورحمته فيَخرج منها.

---

(١) رواه البخاريُّ، كتاب تفسير القرآن، بَابُ قَوْلِهِ: {وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الحَسْرَةِ}، رقم (٤٧٣٠)، ومسلمٌ، كتاب الجَنة وصفة نعيمها وأهلها، باب: النار يدخلها الجبارون والجَنة يدخلها الضعفاء، رقم (٢٨٤٩)، من حديث أبي سعيدٍ الخدري رضي الله عنه.

(٢) تفسير الطبري (٣/ ٣٦).

(٣) تفسير ابن كثير (٦/ ٤٨٣).

(٤) رفع الأستار لإبطال أدلة القائلين بفناء النار (ص١١٩).

والصنعاني هو: محمد بن إسماعيل بن صلاح بن محمد الكُحلاني ثم الصنعاني المعروف بالأمير، ولد سنة (١٠٩٩هـ)، وتوفي رحمه الله سنة (١١٨٢هـ). البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع (٢/ ١٣٣).

(٥) كابن حزمٍ رحمه الله؛ حيث نقل الإجماع على ذلك. مراتب الإجماع (ص١٧٣).

فالخلاف إذاً بيْن أهل السُّنة هو في فناء النار، وأما فناء الجَنة فلم يختلف فيه أحدٌ من أهل السُّنة، فالنزاع إذاً دائماً في النار هل تفنى أو ما تفنى؟ والذي رجَّحه المصنِّف رحمه الله هو ما ذهب إليه ابن جرير وغيره أن النار لا تفنى.

لذلك قال: (**لَا تَفْنَيَانِ أَبَداً**) يعني: لا تنتهيان ولا يُطفأ نورهما (**وَلَا تَبِيدَانِ**) يعني: مثلاً أثر تلك النار مما فيها من الأغلال وشجرة الزقوم ونحو ذلك.

قال: (**وَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَلَقَ الجَنَّةَ وَالنَّارَ قَبْلَ الخَلْقِ**) يعني: الجَنة والنار خلقهما اللَّه قبل الخلْق؛ لقوله سبحانه: ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣] أي: أنَّ الجَنة معدَّة قبل خلق أهل الجَنة، وقوله سبحانه: ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤] أي: أن النار معدَّةٌ للكافرين قبل خلقهم، فإذا كان الشيء معدّاً يكون قبل الخلق لا شك.

قال: (وَخَلَقَ لَهُمَا أَهْلاً) يعني: خلق للجَنة خلْقاً، وللنار خلْقاً؛ كما في صحيح مسلم[1] قال: «إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ لِلْجَنَّةِ أَهْلاً خَلَقَهُمْ لَهَا، وَهُمْ فِي أَصْلَابِ آبَائِهِمْ، وَخَلَقَ لِلنَّارِ أَهْلاً خَلَقَهُمْ لَهَا وَهُمْ فِي أَصْلَابِ آبَائِهِمْ»، وقال سبحانه: ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ [الشورى: ٧]، وقال سبحانه: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً﴾ [الإنسان: ٣]، وقال سبحانه: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الجاثية: ٢١].

قال: (فَمَنْ شَاءَ) يعني: فمن شاء أدخله، فهنا حذف، (فَمَنْ شَاءَ مِنْهُمْ لِلْجَنَّةِ فَضْلاً مِنْهُ) يعني: فمن شاء أدخله اللَّه عز وجل الجَنة بفضله وكرمه وإحسانه ورحمته؛ أي: أن دخول أهل الجَنةِ الجَنةَ إنما هو برحمة اللَّه سبحانه، قال عز وجل: ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٣٢] يعني: بسبب عملكم فقط، أما الذي أَذِن بالدخول وأعدَّ ذلك فهو رب العالمين، فمن شاء إلى الجَنة فضلاً منه؛ لذلك قال

(١) كتاب القدَر، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة، وحكم موت أطفال الكفار وأطفال المسلمين، رقم (٢٦٦٢)، من حديث عائشة رضي الله عنها.

سبحانه: ﴿ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ﴾ [البروج: ١١]، وقال: ﴿ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [المائدة: ١١٩]، وقال: ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [البقرة: ١٠٥]، فهذا بفضل اللَّه.

(وَمَنْ شَاءَ مِنْهُمْ لِلنَّارِ عَدْلاً مِنْهُ) يعني: من شاء أدخله اللَّه عز وجل النار بعدله وما ظلمه؛ كما قال سبحانه: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦]، وقال عز وجل: ﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِلْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ١٠٨]، وكما قال سبحانه: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [النحل: ١١٨]، وقال سبحانه: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ﴾ [الزخرف: ٧٦]، فهو سبحانه من دخل النار لم يَظلمه جل وعلا؛ وإنما بسبب سيئاته؛ كما قال عز وجل: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠]، ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ﴾ [النساء: ٧٩] فدخولهم إلى النار بعدلٍ منه سبحانه.

لذلك ينبغي للعبد أن يكثر من الدعاء كثيراً بدخول الجَنة، ويَسأل اللَّه فضله العظيم سواء في الدنيا أو في الآخرة فتقول مثلاً: اللَّهم إني

أسألك من فضلك العظيم يا كريم! ويتعوذ من النار ويقول: اللَّهم إني أعوذ بك من النار يا رحيم!

وَكُلٌّ يَعْمَلُ لِمَا قَدْ فُرِغَ مِنْهُ، وَصَائِرٌ إِلَى مَا خُلِقَ لَهُ، وَالخَيْرُ وَالشَّرُّ مُقَدَّرَانِ عَلَى العِبَادِ.

قال رحمه اللَّه: (وَكُلٌّ يَعْمَلُ لِمَا قَدْ فُرِغَ مِنْهُ) يعني: أن أعمال العباد وأقوالهم مكتوبة قبل أن يُخلقوا، قال عليه الصلاة والسلام: «كَتَبَ اللَّهُ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ» رواه مسلمٌ[1]، وكل شيءٍ عنده مكتوبٌ؛ كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ﴾ [الحج: ٧٠]، وقال سبحانه: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩]، فكل شيءٍ مكتوبٌ، والنبي عليه الصلاة والسلام يقول: «رُفِعَتِ الْأَقْلَامُ، وَجَفَّتِ الصُّحُفُ»[2].

---

(١) كتاب القدَر، باب حجاج آدم وموسى عليهما السلام، رقم (٢٦٥٣)، من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

(٢) رواه مسلمٌ، كتاب القدَر، باب كيفية خلق الآدمي في بطن أمه وكتابة رزقه وأجله وعمله وشقاوته وسعادته، رقم (٢٦٤٨)، من حديث جابر رضي الله عنه.

لهذا قال: (**وَكُلٌّ يَعْمَلُ لِمَا قَدْ فُرِغَ مِنْهُ**) من كتابة عمله ونحو ذلك، فكل ما يَحدث في الكون مكتوبٌ، (**وَصَائِرٌ إِلَى مَا خُلِقَ لَهُ**) أي: متحوِّلٌ وذاهبٌ إلى ما خُلق له؛ إن كان من أهل الجَنة فهو من أهل الجَنة، وإن كان من أهل النار فهو من أهل النار؛ كما قال عليه الصلاة والسلام في صحيح مسلمٍ[1]: «إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ لِلْجَنَّةِ أَهْلاً...وَخَلَقَ لِلنَّارِ أَهْلاً».

فإذا قيل: لماذا نعمل وكلٌّ مكتوب؟

نقول: قال عليه الصلاة والسلام عن ذلك لمَّا سأله الصحابة: «اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ»[2]، فأهل السعادة ميسَّرون لعمل أهل السعادة، وأهل الشقاوة ميسَّرون لعمل أهل الشقاوة - والعياذ باللَّه -.

فإذا قيل: ما هو الدليل العقلي على أننا نعمل أو يَجب أن نعمل، وقد كُتب لنا أو كُتب علينا كلَّ شيء؟

---

(١) سبق تخريجه (ص) عند قوله (يعني: خلق للجَنة خلقاً، وللنار خلقاً؛ كما).

(٢) رواه مسلمٌ، كتاب القدَر، باب كيفية خلق الآدمي في بطن أمه وكتابة رزقه وأجله وعمله وشقاوته وسعادته، رقم (٢٦٤٨)، من حديث جابر رضي الله عنه.

نقول: أنت لو جعتَ هل تأكل؟ أو تقول: إنه مكتوب أنِّي أموت فلا آكل؟ فأنت حين تجوع تذهب وتأكل، فلو قال لك شخصٌ: لماذا تأكل وأنت مكتوب عليك أن تموت بسبب الجوع؟! تقول: أنا ميسَّرٌ أني آكل إذا جعتُ، وهكذا العمل الصالح تفعل السبب حتى تكون من أهل الجَنة، وهنا أنت تأكل حتى تنجو من الموت، وكذلك تشرب، وهكذا من الأعمال.

ثم قال: **(وَالخَيْرُ وَالشَّرُّ مُقَدَّرَانِ عَلَى العِبَادِ)** كما قال سبحانه: ﴿وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥] أي: إن المؤمن يُبتلى بالشر من المرض والفتن، والمحن والفقر، والأدواء والبلايا، ونحو ذلك، ويُبتلى بالخير مثل الغنى والمال والولد، ﴿فِتْنَةً﴾؛ أي: ابتلاءً وامتحاناً[1]، فكل ذلك مكتوبٌ على العباد بَرهم وفاجرهم، وكل هذا من باب الابتلاء والامتحان لعباده؛ قال سبحانه: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ [الملك: ٢].

(١) تفسير الطبري (١٦/ ٢٦٨).

وَالاِسْتِطَاعَةُ ضَرْبَانِ:

أَحَدُهُمَا: الاِسْتِطَاعَةُ الَّتِي يَجِبُ بِهَا الفِعْلُ - مِنْ نَحْوِ التَّوْفِيقِ الَّذِي لَا يَجُوزُ أَنْ يُوصَفَ المَخْلُوقُ بِهِ -: فَهِيَ مَعَ الفِعْلِ.

وَأَمَّا الاِسْتِطَاعَةُ التي مِنْ جِهَةِ الصِّحَّةِ وَالوُسْعِ، وَالتَّمَكُّنِ وَسَلَامَةِ الآلَاتِ: فَهِيَ قَبْلَ الفِعْلِ، وَبِهَا يَتَعَلَّقُ الخِطَابُ، وَهُوَ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا﴾.

يَذكر المصنِّف رحمه الله في هذه الجملة مذهباً يبيِّن لك هل العبد يَخلق فعل نفسه أم أن العبد مجبورٌ على فعل نفسه؟ فذكر رحمه الله أنَّ العبد ليس مجبوراً على فعل نفسه، وهو أيضاً لا يَخلق فعل نفسه؛ وإنما هو تحت مشيئة اللَّه عز وجل وإرادته؛ كما قال سبحانه: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الإنسان: ٣٠].

فمن قال: إن العبد مجبورٌ على فعل نفسه؛ هذا مذهب الجبرية، ورَد عليهم المصنِّف في قوله: (**وَأَمَّا الاِسْتِطَاعَةُ التي مِنْ جِهَةِ الصِّحَّةِ وَالوُسْعِ...**) كما سيأتي، ومن قال: إن العبد هو الذي يَخلق فعل نفسه؛ هذا مذهب القدَرية، ورَد عليهم المصنِّف بقوله: (**الاِسْتِطَاعَةُ الَّتِي يَجِبُ**

بِهَا الفِعْلُ - مِنْ نَحْوِ التَّوْفِيقِ الَّذِي لَا يَجُوزُ أَنْ يُوصَفَ المَخْلُوقُ بِهِ - : فَهِيَ مَعَ الفِعْلِ).

فأهل السُّنة والجماعة يقولون: العبد له فعلٌ واختيارٌ، لكن فعل اللَّه واختياره فوق فعل العبد واختياره؛ ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الإنسان: ٣٠]، والمصنِّف رحمه الله قال: **(وَالاِسْتِطَاعَةُ ضَرْبَانِ)** أي: في فعل العبد من ناحية إجباره على فعل نفسه أو غيره تنقسم إلى قِسمين:

القِسم الأوَّل: استطاعةٌ في خطاب التكليف من أمرٍ ونهيٍ، مثال ذلك: اللَّه عز وجل يقول: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ [البقرة: ٤٣]، هذا خطابٌ عامٌّ، هل أتى فعلٌ؟ ما أتى فعلٌ.

القسم الثاني: حال أداء الفعل، مثل: في الصلاة ونحن نصلِّي.

فالاستطاعة التي قبل الفعل لا بد فيها أن يكون الشخص متوجِّها إليه الخطاب حتى يصح الخطاب إليه، لذلك قال في الجملة الثانية - لأنها هي مذهب الجبرية -: **(وَأَمَّا الاِسْتِطَاعَةُ التي مِنْ جِهَةِ الصِّحَّةِ)** يعني: سلامة العقل؛ أي: الخطاب الذي يتوجَّه للعاقل من الذي يتوجه به، هل العبد مجبور على فعل نفسه؟ قال: لا؛ الخطاب اللَّه عز وجل يوجهه للعاقل من جهة الصحة، **(وَالوُسْعِ)** يعني: القدرة، فغير القادر لا

يوجه إليه الخطاب، مثل: الطفل الصغير غير المميِّز لا يوجَّه إليه الخطاب.

قال: (وَالتَّمَكُّنِ) يعني: القدرة على فعل الأمر؛ أي: السلامة من الموانع، فالرجل السالم من الموانع الخطاب متوجِّهٌ إليه، أما مثلاً المعتوه فهو غير سالمٍ من الموانع، أو السكران كذلك غير سالمٍ من الموانع.

قال: (وَسَلَامَةِ الآلَاتِ) يعني: سلامة الجوارح، فمن هو سالم الجوارح الخطاب موجَّهٌ إليه، ومن الذي يوجهه؟ هو رب العالمين؛ فهنا يَردُّ على الجبرية، يعني: العبد ليس مجبوراً على فعل نفسه؛ وإنما الخطاب موجَّهٌ له إن كان مستطيعاً، فهو ليس مجبراً، فإذا كانت آلتك سليمة الجوارح الخطاب موجَّهٌ إليك، فمثلاً الأمر بصلة الرحم: لو كان الشخص ما عنده أرحام هل الخطاب يتوجه إليه؟ ما يتوجه إليه.

لذلك قال: (**وَأَمَّا الاِسْتِطَاعَةُ التي مِنْ جِهَةِ الصِّحَّةِ وَالوُسْعِ، وَالتَّمَكُّنِ وَسَلَامَةِ الآلَاتِ**) فمن كان كذلك يكون مخاطباً ومأموراً بالاستطاعة، ومن كان غير سليمٍ أو مثلاً ما عنده رحمٌ فهو غير مستطيعٍ؛ فدل على أنه ليس مجبوراً على فعل نفسه.

لهذا قال المصنِّف: (فَهِيَ قَبْلَ الفِعْلِ) يعني: الاستطاعة التي تكون عند التكليف بالخطاب تكون قبل الفعل بشرط: الاستطاعة، فإذا قلنا بشرط الاستطاعة معناه: أن اللَّه عز وجل لم يجبر العبد على الفعل لماذا؟ لأنه قال: إن استطعت وجب عليك، وإن لم تستطع ما يجب عليك، لهذا قال: (فَهِيَ قَبْلَ الفِعْلِ).

قال: (وَبِهَا يَتَعَلَّقُ الخِطَابُ) يعني: الخطاب يتعلق بالاستطاعة، فليس العبد مجبوراً على فعل نفسه، كما قال سبحانه: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً﴾ [آل عمران: ٩٧]، فدل على أنَّ العبد ليس مجبوراً على فعل نفسه، فلو كان مجبوراً لما قال اللَّه: ﴿مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً﴾، وكذلك قوله عز وجل: ﴿وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ [النساء: ٢٥]، فهذا المستطيع، ولو كان الشخص مجبوراً على فعل نفسه هل اللَّه يقول له: إذا استطعت؟ لا، واللَّه عز وجل قال: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦]، فلو كان الشخص مجبوراً على فعل نفسه هل كان ليقول اللَّه له: ان استطعتَ افعل؟!

لذلك قال: (وَهُوَ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا﴾) فليس العبد مجبوراً على فعل نفسه، وهذا **القِسم الأوَّل** وهو الاستطاعة حال التكليف قبل الفعل، ثم نرجع إلى الاستطاعة التي بعد الفعل والتي ذكرها المصنِّف في الجملة الأُولى، وقدَّمنا في الشرح الجملة الثانية؛ لأنها قبل الفعل، ثم الآن نتكلم عن التي بعد الفعل.

قال: (الاِسْتِطَاعَةُ الَّتِي يَجِبُ بِهَا الفِعْلُ) يعني: الاستطاعة هنا حال العمل، يعني: الصلاة ونحو ذلك، (مِنْ نَحْوِ التَّوْفِيقِ الَّذِي لَا يَجُوزُ أَنْ يُوصَفَ المَخْلُوقُ بِهِ) معنى هذا الكلام: من نحو التوفيق الذي لا يجوز أن يوصف المخلوق به وحده بأنه هو الذي يَخلق فعل نفسه، قال: (فَهِيَ مَعَ الفِعْلِ) أي: هذه حين الأداء، فالعبد وهو يصلِّي لا يَخلق فعل نفسه؛ وإنما ذلك تحت مشيئة اللَّه.

وفي هذه ردٌّ على القدَرية، فهم يريدون أن يصِلوا إلى أن اللَّه عز وجل لا يعين المؤمن دون الكافر؛ وإنما هم سواءٌ، والمؤمن مختارٌ طريق الهداية، والكافر هو أراد الشقوة؛ نقول: لا غير صحيح؛ اللَّه عز وجل هو الذي أعان المؤمن بدليل قوله عز وجل: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥]، فهو أعان الخاشعين على أداء تلك الصلاة،

وكذلك قوله عز وجل: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى﴾ [الليل: ٥-٧]، وكذلك قوله عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩].

فدل على أنَّ العبد لا يَخلق فعل نفسه؛ وإنما اللَّه عز وجل هو الذي يشاء أن يفعل، وهو الذي يعين المؤمن على فعل الصالحات، والقدَرية يقولون بلوازم القول هذا أنَّ اللَّه سبحانه ظلم الكافر وما بيَّن له السبيل ولا أعطاه؛ لكن نقول: اللَّه أعطاه القدرة لكن الكافر هو الذي اختار السبيل السيئ.

لهذا قال: (**الإِسْتِطَاعَةُ الَّتِي يَجِبُ بِهَا الفِعْلُ**) يعني: الاستطاعة التي تكون حين أداء الأمر الشرعي، هذه الاستطاعة يقول: (**مِنْ نَحْوِ التَّوْفِيقِ الَّذِي لَا يَجُوزُ أَنْ يُوصَفَ المَخْلُوقُ بِهِ**) وحده؛ يعني: هذا عملٌ وُفِّق له العبد لكن لا يُنسب له وإنما بأمر اللَّه.

إذاً كأن المصنِّف رحمه الله يَرد على الجبرية فيقول: إن اللَّه عز وجل جعل للعبد فعلاً واختياراً، ولكن مشيئة اللَّه عز وجل فوق ذلك، فليس العبد مجبوراً على فعل نفسه؛ بدليل أن اللَّه سبحانه جعل شرط الاستطاعة حال الخطاب، فلو كان مجبوراً ما شَرط الاستطاعة، ويَرد

على القدرية الذين يقولون: في حال تنفيذ الفعل إنهم هم الذين يَخلقون فعل أنفسهم؛ فيقول: لا، اللَّه عز وجل هو الذي يسَّر لهم ذلك وشاءه لهم ويفعلونه، أما وصف التوفيق لعملهم لذلك الأمر بأنهم هم الذين يفعلونه وحدهم؛ فغير صحيحٍ؛ وإنما بمشيئة اللَّه وإعانته لهم، فهي التي تكون مع الفعل.

وَأَفْعَالُ العِبَادِ: خَلْقُ اللَّهِ، وَكَسْبٌ مِنَ العِبَادِ، وَلَمْ يُكَلِّفْهُمُ اللَّهُ إِلَّا مَا يُطِيقُونَ، وَلَا يُطِيقُونَ إِلَّا مَا كَلَّفَهُمْ بِهِ، وَهُوَ تَفْسِيرُ: «لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ»، نَقُولُ: لَا حِيلَةَ لِأَحَدٍ، وَلَا حَرَكَةَ لِأَحَدٍ، وَلَا تَحَوُّلَ لِأَحَدٍ عَنْ مَعْصِيَةِ اللَّهِ؛ إِلَّا بِمَعُونَةِ اللَّهِ.

وَلَا قُوَّةَ لِأَحَدٍ عَلَى إِقَامَةِ طَاعَةِ اللَّهِ وَالثَّبَاتِ عَلَيْهَا؛ إِلَّا بِتَوْفِيقِ اللَّهِ.

اللَّه عز وجل جعل للعباد إرادةً ومشيئةً، ولكن مشيئة اللَّه عز وجل فوق مشيئة عباده وإرادتهم، فهو سبحانه جعل للعباد قدرةً وأفعالاً، ولكن ليس كل ما يريدونه ويشاؤونه في هذه الأرض يقع لهم؛ وإنما بأمر اللَّه سبحانه؛ لذلك قال جل وعلا: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [التكوير: ٢٩]، وجعل لهم إرادةً فقال: ﴿لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ﴾ [التكوير: ٢٨]، لكن ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [التكوير: ٢٩]، وقال جل وعلا: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢]، فيقع ما أمر اللَّه عز وجل كما أمر.

إذاً للعباد قدرةٌ وإرادةٌ، لكن قدرة اللَّه وإرادته فوق إرادتهم، ولهذا قال المصنِّف رحمه اللَّه: (وَأَفْعَالُ العِبَادِ: خَلْقُ اللَّهِ) أي: إن أفعال العباد هي خلقٌ من خلق اللَّه، تحت إرادة اللَّه وتدبيره، وفي هذا رَدٌّ على القدَرية

الذين يقولون: إن العبد هو الذي ينشئ فعل نفسه، ومن لازم قولهم: أنهم هم ورب العالمين سواء في التدبير، فالعبد يفعل ما يشاء؛ يريد أن يتزوج يتزوج، واللَّه ليس له مشيئةٌ، ويريد أن يتعافى من المرض يتعافى؛ وهذا خطأٌ.

لذلك قال: (**وَأَفْعَالُ العِبَادِ: خَلْقُ اللَّهِ**) أي: خلقٌ من خلق اللَّه، يدبِّره سبحانه كيفما شاء، كما قال جل وعلا: ﴿أَلَا لَهُ الخَلْقُ وَالأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤]، وقال سبحانه: ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾ [السجدة: ٥]، وهنا رَدٌّ على القدرية؛ لأن الذين غلَوا في القدَر وقالوا: إن اللَّه لا يَخلق شيئاً، واللَّه سبحانه وتعالى قال: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الزمر: ٦٢].

ثم قال: (وَكَسْبٌ مِنَ العِبَادِ) أي: أفعال العباد كسبٌ منهم، فلهم إرادةٌ لكن فوق خلق اللَّه، وقوله: (**وَكَسْبٌ مِنَ العِبَادِ**) فيه رَدٌّ على الجبرية الذين يقولون: إن العبد مجبورٌ على فعل نفسه، فهو كالريشة في مهب الريح، فرَدَّ عليهم المصنِّف وبيَّن أن للعبد كسبٌ، فهو يتحرك متى يشاء، وتضع أمامه أصنافاً من الطعام فيأكل الذي يريده، ويجد في المسجد ثلاثة أبوابٍ فيختار أن يخرج من الباب الذي يريد، فللعبد إرادةٌ لكن

إرادة اللَّه فوق إرادته؛ فقد يريد مثلاً أن يتزوج امرأةً اسمها عائشة، لكن اللَّه لا يريد ذلك؛ فلا يقع إلا ما يريد سبحانه.

ثم قال رحمه الله بعد ذلك: (وَلَمْ يُكَلِّفْهُمُ اللَّهُ إِلَّا مَا يُطِيقُونَ) يعني: من رحمة اللَّه عز وجل لم يكلِّفنا إلا ما نطيق؛ كما قال سبحانه: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، وقال: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [الأنعام: ١٥٢]، وقال: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا مَا آتَاهَا﴾ [الطلاق: ٧]، فمن فضل اللَّه عز وجل ورحمته أنه لا يكلِّفنا الا ما نستطيع، فمثلا جل وعلا تكرَّم علينا مثلا ما نصلِّي ونحن في الهواء، وما كلفنا أن نتوضأ أو نتيمم على لؤلؤٍ وزبرجدٍ ونحو ذلك، بل كلفنا بأمرٍ سهلٍ؛ بماءٍ أو بترابٍ، وهكذا.

لذلك قال: (**وَلَمْ يُكَلِّفْهُمُ اللَّهُ إِلَّا مَا يُطِيقُونَ**) رحمةً وتكرّماً وفضلاً منه؛ كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ٢٤٣].

ثم قال: (**وَلَا يُطِيقُونَ إِلَّا مَا كَلَّفَهُمْ بِهِ**) هذه العبارة غير سليمةٍ؛ لأننا نستطيع أن نفعل حتى ما لم يكلِّفنا اللَّه سبحانه وتعالى به، لكن ننقاد لأمره، فمثلاً: لو أمرنا اللَّه سبحانه وتعالى بصلاةٍ سادسةٍ هل نستطيعها؟

نقول: نعم نستطيع، لكن ما كلفنا اللَّه عز وجل بها، وكذلك لو أن اللَّه سبحانه وتعالى فرض علينا في السَّنة صيام شهرين؛ نستطيع، لكن بفضل اللَّه وكرمه ما فَرض علينا ذلك، لذلك قال اللَّه: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

فقوله: (**وَلَا يُطِيقُونَ إِلَّا مَا كَلَّفَهُمْ بِهِ**) نقول: نطيق أشياء حتى لو لم يكلفنا اللَّه بها، لكننا نقف على النصوص ولا نعمل إلا ما أمرنا اللَّه سبحانه وتعالى به، وهكذا.

ثم قال: (**وَهُوَ**) أي: أن للَّه مشيئةٌ وللعبد كسبٌ أيضاً ومشيئة هو (**تَفْسِيرُ: «لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ»**) أي: معنى لا حول ولا قوة الا باللَّه؛ ففيها إثبات الفعل من العبد وجعل مشيئة اللَّه فوق مشيئة العبد.

ونقول في تفسيرها كما قال المصنِّف: (**نَقُولُ**) يعني: نقول في معنى «لا حول»: (**لَا حِيلَةَ لِأَحَدٍ**) يعني: لا قدرة لأحدٍ، (**وَلَا حَرَكَةَ لِأَحَدٍ**) يعني: ولا فعل لأحدٍ، (**وَلَا تَحَوُّلَ لِأَحَدٍ عَنْ مَعْصِيَةِ اللَّهِ؛ إِلَّا بِمَعُونَةِ اللَّهِ**) هذا معنى «لا حول»؛ يعني: لا نتحول من المعصية إلا بمعونة اللَّه.

ومعنى: «ولا قوة إلا باللَّه» قال: (وَلَا قُوَّةَ لِأَحَدٍ عَلَى إِقَامَةِ طَاعَةِ اللَّهِ وَالثَّبَاتِ عَلَيْهَا؛ إِلَّا بِتَوْفِيقِ اللَّهِ) أي: لا قوة على فعل الطاعة والثبات عليها إلا بتوفيق اللَّه عز وجل.

لذلك فهذه اللفظة تنقسم إلى قِسمين:

القِسم الأوَّل: لا تحول عن معصيةٍ إلا بمعونة اللَّه.

والقِسم الثاني: بعد أن تحولنا عن المعصية، لا قوة لنا على أداء الطاعة إلا بتوفيق اللَّه.

لذلك لو قال لك شخصٌ: ما معنى لا حول ولا قوة إلا باللَّه؟

تقول: أي: لا تحول عن معصية اللَّه إلى طاعة اللَّه إلا بمعونة اللَّه وتوفيق اللَّه، فمعونة اللَّه بالإقلاع عن المعصية، ولا قوة على أداء تلك الطاعة إلا بمعونة اللَّه وتوفيقه، وهذا معنى قول العبد: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، وأيضاً معنى «لا حول ولا قوة الا باللَّه» أي: لا تحوّل من حالٍ إلى حالٍ إلا بقوة اللَّه سبحانه وتأييده لنا، فلا تحوّل من فقرٍ إلى غنىً، ومن مرضٍ إلى صحةٍ إلا باللَّه سبحانه وإعانته لنا.

وَكُلُّ شَيْءٍ يَجْرِي بِمَشِيئَةِ اللَّهِ وَعِلْمِهِ وَقَضَائِهِ وَقَدَرِهِ، فَغَلَبَتْ مَشِيئَتُهُ المَشِيئَاتِ كُلَّهَا، وَغَلَبَ قَضَاؤُهُ الحِيَلَ كُلَّهَا، يَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ، وَهُوَ غَيْرُ ظَالِمٍ أَبَداً ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾.

قال رحمه اللَّه: **(وَكُلُّ شَيْءٍ يَجْرِي بِمَشِيئَةِ اللَّهِ وَعِلْمِهِ)** يعني: كل ما في الكون مما هو في السماوات والأرض يجري بمشيئة اللَّه وأمره، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢]، فإذا اللَّه أراد شيئاً يقع، وهو المراد بذلك الأمر الكوني، فإذا أراد أيَّ أمرٍ يقع لا رادَّ لأمره ولا رادَّ سبحانه لقضائه، وقال جل وعلا: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ [القمر: ٥٠]، وهو سبحانه إذا أراد شيئاً يقضي بالأمر لا يردّه شيئاً.

لذلك قال: **(وَكُلُّ شَيْءٍ يَجْرِي بِمَشِيئَةِ اللَّهِ وَعِلْمِهِ)** يعني: كل ما يقع في الكون لا يقع إلا بعِلم اللَّه؛ كما قال سبحانه: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩]، وقال سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: ٧٥]، وقال: ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٨٢]، وقال: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣]،

وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة: ١]، وقال: ﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [آل عمران: ١٥٣].

فكل شيءٍ في هذا الكون بعِلم اللَّه، لا يمكن أن يقع شيءٌ لا يَعلمه سبحانه؛ ﴿وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً﴾ [طه: ٩٨]؛ بل مع عِلمه مكتوب أيضاً؛ كما قال سبحانه: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحج: ٧٠]، وقال سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [المجادلة: ٧]، فكل شيءٍ يجري بعِلمه سبحانه.

ثم قال: (وَقَضَائِهِ وَقَدَرِهِ) عندنا القضاء وعندنا القدَر، ما الفَرق بينهما؟

القول الأوَّل: بعض أهل العِلم[١] يقول: لا فَرق بين القضاء والقدَر، وكلاهما سواء في المعنى.

(١) كالفيروز آبادي رحمه الله. القاموس المحيط (ص٤٦٠).

القول الثاني - وهو أقرب -: إن القدر قبل أن يقع الأمر، والقضاء إذا وقع[1]، فمثلاً: اللَّه عز وجل قدَّر وقوع حادث على فلان، فإذا حدَث نقول: قُضي ذلك الذي قدِّر؛ يعني: وقع ذلك الذي قدِّر، ومثل: قدَّر اللَّه على شخص الوفاة، فإذا مات؛ نقول: قضى اللَّه ذلك الذي قدَّره سبحانه.

لذلك قال: (**وَقَضَائِهِ وَقَدَرِهِ**) يعني: الذي يَحدث بأمر اللَّه وهو الذي قضاه سبحانه، وهو الذي أيضاً قدَّره؛ كما قال سبحانه: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ [الرعد: ٨]، وقال سبحانه: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَراً مَقْدُوراً﴾ [الأحزاب: ٣٨]، وقال سبحانه: ﴿وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ﴾ [المؤمنون: ١٧]، فهو سبحانه مطَّلع على خلقه، وقال سبحانه: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [لقمان: ٢٧]، وهكذا.

فكل ما يَحدث بمشيئة اللَّه، فهو الذي شاءه، وكل ما يَحدث بعِلم اللَّه، فاللَّه عَلِمه، وكل ما يَحدث اللَّه كتبه، وكل ما يَحدث اللَّه خلقه، وكل ما يَحدث اللَّه سبحانه وتعالى قضاه وقدَّره، فهو مالك الكون؛ كما قال سبحانه: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤]، وقال سبحانه: ﴿تَبَارَكَ

---

(١) وممن قال به: الراغب الأصفهاني رحمه الله. المفردات في غريب القرآن (ص٦٧٥).

﴿الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الملك: ١]، وقال سبحانه: ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾ [السجدة: ٥]، وقال سبحانه: ﴿أَلَا لَهُ الخَلْقُ وَالأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤]، وقال سبحانه: ﴿بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ٢٦] جل وعلا، فهو مدبِّر الكون، وقال: ﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الزمر: ٦٣].

قال: **(فَغَلَبَتْ مَشِيئَتُهُ المَشِيئَاتِ كُلَّهَا)** يعني: لو شاء أحدٌ شيئاً واللَّه لم يشأه؛ لا يقع، فلو مثلاً رجلٌ شاء أن يتزوج امرأة واللَّه ما يشاءها وما قضى ذلك؛ لا يمكن أن يتزوج ولو فعل ما فعل بسِحر ونحو ذلك فما يستطيع؛ لأن اللَّه قال عن نفسه: ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٢١]، وقال: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ [الأنعام: ١٨]، بل لو اجتمع الخلق كلهم على شيءٍ يريدونه ويشاؤونه واللَّه شاء غير ذلك؛ لم يشأ ما أرادوه هم؛ كما قال سبحانه: ﴿وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءاً فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ﴾ [الرعد: ١١]، فلا أحد يستطيع أن يردَّه؛ لأن اللَّه شاء ذلك.

لذلك قال: (**فَغَلَبَتْ مَشِيئَتُهُ المَشِيئَاتِ كُلَّهَا**) فكل مشيئات البشر - فقراء أو أغنياء، عظماء أو ضعفاءٌ - مشيئة اللَّه فوق مشيئتهم؛ كما قال جل وعلا: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [التكوير: ٢٩].

قال: (**وَغَلَبَ قَضَاؤُهُ الحِيَلَ كُلَّهَا**) يعني: غلب ما أراده سبحانه بقوته وعظمته جميع القدرات والقوات؛ كما قال سبحانه عن قوم عادٍ: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ [فصلت: ١٥]، فلمَّا تظاهروا بالقوة أتاهم شيءٌ يسيرٌ أهلكهم وهو الريح؛ ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً﴾ [فصلت: ١٦]، وكذلك فرعون قال: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ [القصص: ٣٨] فأغرقه اللَّه بالماء، وهكذا.

لذلك قال: (**وَغَلَبَ قَضَاؤُهُ الحِيَلَ كُلَّهَا**) يعني: ما أراده اللَّه يقع حتى ولو كان الذي وقع عليه ذلك الأمر سعى إلى عدم وقوعه؛ قال جل وعلا: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ﴾ [النساء: ٧٨]، وقال سبحانه: ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [فاطر: ٢].

قال: (يَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ) يعني: يَفعل في كونه ما يشاء؛ كما قال سبحانه: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [البقرة: ٢٥٣]، وقال سبحانه: ﴿وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ [إبراهيم: ٢٧]، وقال سبحانه: ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣]، فهو يفعل في كونه ما أراد.

قال: (وَهُوَ غَيْرُ ظَالِمٍ أَبَداً) فمع قوته وقهره وجبروته وعلوه وعظمته ما يَظلم أحداً، وهذا من كمال صفات اللَّه سبحانه، كما قال عن نفسه: ﴿وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ [ق: ٢٩]، وقال جل وعلا: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦]، وقال عز وجل: ﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِلْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ١٠٨]، وقال في الحديث القدسي: «يَا عِبَادِي! إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي، وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّماً فَلَا تَظَالَمُوا»[(١)]، وقال سبحانه: ﴿الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ﴾ [غافر: ١٧]، وقال سبحانه: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [النحل: ١١٨]، وقال سبحانه: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ﴾ [الزخرف: ٧٦]، وقال سبحانه: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا

---

(١) رواه مسلمٌ، كتاب البِر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، رقم (٢٥٧٧)، من حديث أبي ذرٍّ رضي الله عنه.

أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ [هود: ١٠١]، وهكذا، فاللَّه سبحانه لا يَظلم أحداً.

ثم قال: (وَتَقَدَّسَ عَنْ كُلِّ سُوءٍ وَحَيْنٍ)[١] (وَتَقَدَّسَ) من القدّوس؛ يعني: المنزَّه والمبرَّء[٢] (عَنْ كُلِّ سُوءٍ) يعني: أمرٍ سيّءٍ من ظُلمٍ وعدم بذلٍ وكرمٍ ونحو ذلك، (وَحَيْنٍ) الحَين يعني: العيب[٣]، فقوله: (وَتَقَدَّسَ عَنْ كُلِّ سُوءٍ وَحَيْنٍ) يعني: اللَّه عز وجل تقدَّس وتنزَّه عن كل وصف سوء أو كل وصف عيب.

ومما يُذم اللَّه عز وجل فيه: بوصفه أنَّ معه إلها آخر؛ مثل: ثالث ثلاثة، إلهين اثنين، أو يُجعل معه شريكاً من الأولياء والأنداد والأولياء والصالحين ونحو ذلك، كما قال عليه الصلاة والسلام: «لَا أَحَدَ أَصْبَرُ عَلَى أَذىً يَسْمَعُهُ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلّ - قال -؛ أَخْلُقُهُم وَأَرْزُقُهُم وَيَدْعُون

(١) ليست في المطبوع، لعلها في نسخة أخرى.

(٢) تهذيب اللغة (١٠/ ١٣٠).

(٣) لم أقف.

مَعِي غَيرِي»[١]، فهو سبحانه منزَّهٌ عن الولد؛ كما قال جل وعلا: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ٣-٤].

قال: (وَتَنَزَّهَ عَنْ كُلِّ عَيْبٍ وَشَيْنٍ)[٢] (عَنْ كُلِّ عَيْبٍ) أي: كذلك كل أمرٍ معيبٍ لا كمال فيه اللَّه سبحانه منزَّهٌ عنه، فله سبحانه الصفات العلى والأسماء الحُسنى؛ كما قال سبحانه: ﴿لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ [طه: ٨]، وقال: ﴿فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ [الإسراء: ١١٠]، وقال: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ﴾ [المنافقون: ٨]، وهكذا من الصفات العظيمة التي تنزه اللَّه عز وجل بها، (وَشَيْنٍ) أي: كذلك تنزَّه عن كل فعلٍ مشينٍ من ظُلمٍ ونحو ذلك.

قال: (﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾) لأنه لا يَظلم أحداً، وله الصفات العلى، (﴿وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾) أي: الخلْق يُسألون عما يفعلونه؛ لأن صفاتهم ناقصة، وفيهم الحسد والكذب، والكبرياء والظُلم، ونحو ذلك،

---

(١) رواه البخاريُّ، كتاب الأدب، باب الصبر على الأذى، رقم (٦٠٩٩)، ومسلم، كتاب صفات القيامة والجَنة والنار، باب لا أحد أصبر على أذىً من الله عز وجل، رقم (٢٨٠٣)، من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، ولفظه: «لَا أَحَدَ أَصْبَرُ عَلَى أَذىً يَسْمَعُهُ مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، إِنَّهُ يُشْرَكُ بِهِ، وَيُجْعَلُ لَهُ الْوَلَدُ، ثُمَّ هُوَ يُعَافِيهِمْ وَيَرْزُقُهُمْ».

(٢) ليست في المطبوع، لعلها في نسخة أخرى.

فيسألون عن تلك الأمور التي وقعوا فيها من نقصٍ، أما الرب سبحانه فليس في أفعاله ولا في أسمائه ولا صفاته أيَّ نقصٍ ولا عيبٍ، فلا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون.

وَفِي دُعَاءِ الأَحْيَاءِ وَصَدَقَاتِهِمْ: مَنْفَعَةٌ لِلأَمْوَاتِ.

وَاللَّهُ يَسْتَجِيبُ الدَّعَوَاتِ، وَيَقْضِي الحَاجَاتِ، وَيَمْلِكُ كُلَّ شَيْءٍ، وَلَا يَمْلِكُهُ شَيْءٌ.

قال رحمه اللَّه: (وَفِي دُعَاءِ الأَحْيَاءِ وَصَدَقَاتِهِمْ: مَنْفَعَةٌ لِلأَمْوَاتِ) هذه المسألة وهي مسألة: هل ينتفع الأموات بما يُهدونهم الأحياء من أعمالٍ صالحةٍ؟ يَذكرها أهل العقيدة في كتب العقيدة؛ لإنكار المعتزلة وصول شيءٍ مما يُهدى من أعمال إلى الأموات، ويَذكرها أهل السُّنة في كتب الفقه؛ لاختلاف أهل السُّنة فيها.

فاتفق أهل السُّنة على أن الأموات يَنتفعون بما يُهدون من أعمال صالحة من الأحياء، خلافا للمعتزلة، ولكن اختلف أهل السُّنة ماهي الأعمال التي يصِل ثوابها إلى الأموات على قولين:

القول الأوَّل: أنَّ كلها تَصل إلى الأموات عموماً، سواء كانت حَجّاً أو عمرة أو إهداء ثواب ذِكرٍ أو تلاوة قرآنٍ ونحو ذلك، وإلى هذا القول ذهب الأحناف[1] والحنابلة[2].

---

(١) البحر الرائق شرح كنز الدقائق (٣/ ٦٣)، الهداية في شرح بداية المبتدي (١/ ١٧٨).

(٢) الكافي في فقه الإمام أحمد (١/ ٣٧٧)، المغني لابن قدامة (٢/ ٤٢٣).

والقول الثاني: الذي يَصِل هو المقتَصر عليه في النصوص؛ وهي أربعة أعمال: الحجُّ والعمرة والدعاء والصدقة، وهذا القول هو الأقرب للصواب، وإليه ذهب المالكية[١] والشافعية[٢] رحمهم اللَّه.

أما المعتزلة فقالوا: لا يَصِل شيء من الأعمال أبداً؛ واستدلوا بقوله سبحانه: ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾ [النجم: ٣٩]، وقوله: ﴿وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [يس: ٥٤].

ولكن الوصول هو الصحيح، وقول النبي عليه الصلاة والسلام: «إِذَا مَاتَ اَلْإِنْسَانُ اِنْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثٍ» يعني: انقطع العمل، لكن يبقى أثر العمل، وأثر العمل هو: «صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالَحٍ يَدْعُو لَهُ»[٣]، فهذه آثار العمل التي عملها، وكذا في الحج يَصِل الثواب؛ لأن رجلاً استأذن النبي صلى الله عليه وسلم أن

(١) بلغة السالك لأقرب المسالك (١/ ٥٨٠).

(٢) شرح النووي على مسلم (٧/ ٩٠).

(٣) رواه مسلمٌ، كتاب الوصية، باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته، رقم (١٦٣١).

يَحُج عن أبيه؟ فقال: «هَلْ حَجَجْتَ عَنْ نَفْسِكَ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: فَحُجَّ»[١]، فدل على أنَّ الحج يجوز فيه النيابة، والعمرة مثل الحج.

وبالنسبة للصدقة؛ كما في حديثٍ في قصة سعد بن عبادة[٢] قال: «إِنَّ أُمِّي مَاتَتْ أَفَأَتَصَدَّقُ عَنْهَا؟ قَالَ النبي صلى الله عليه وسلم: نَعَمْ»[٣]، وكذا في الحديث السابق قال: «صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ».

لهذا قال المصنِّف: **(وَفِي دُعَاءِ الأَحْيَاءِ)** كما في الحديث: «أَوْ وَلَدٍ صَالَحٍ يَدْعُو لَهُ»، فعلى هذا يجب على الأب أن يسعى إلى إصلاح أبنائه بفعل الأسباب، مع الدعاء لهم بالهداية والصلاح والاستقامة؛ ليكونوا امتداداً صالحاً له بعد وفاته، فالأبناء الصالحون هم العمر الثاني للأب بعد مماته، قال: **(وَصَدَقَاتِهِمْ: مَنْفَعَةٌ لِلأَمْوَاتِ)** أي: أن الصدقات أيضاً تَصِل إلى الميت.

---

(١) رواه أحمد في المسند، رقم (٢١٨٩)، من حديث ابن عباسٍ رضي الله عنهما، ولفظه: «يَا رَسُولَ اللهِ! إِنَّ أَبِي شَيْخٌ كَبِيرٌ، لَمْ يَحُجَّ؟ قَالَ: حُجَّ عَنْ أَبِيكَ».

(٢) هو: أبو ثابت سعد بن عبادة بن دليم بن أبى حليمة الأنصاري الساعدي، شهد العقبة، وبدراً في قول بعضهم، وتوفي سنة (١١هـ). الاستيعاب في معرفة الأصحاب (٢/ ٥٩٤).

(٣) رواه البخاريُّ، كتاب الوصايا، باب ما يستحب لمن توفي فجاءة أن يتصدقوا عنه، رقم (٢٧٦٠)، من حديث عائشة رضي الله عنها.

والمصنِّف رحمه الله حَنَفيٌّ؛ لذلك ساق مذهب الأحناف وهو أنه يَصِل الثواب إلى الأموات.

والصواب كما قلنا أربعة أشياء هي التي تَصِل، لذلك المصنِّف اقتصر هنا على الدعاء والصدقة؛ لأنَّه لو تُوسع بالباب لَمَا انتهى ذلك الأمر؛ فقد يصوم الشخص، وكذلك يتلو القران ويُهدي الثواب، وكذلك يأتي بالذِّكر ويُهدي الثواب، ويقرأ في كتب أهل العِلم ويُهدي الثواب، وهكذا، فقد يقع في أمورٍ محذورةٍ لم يقع فيها النَّص، وقول النبي عليه الصلاة والسلام في صحيح البخاريِّ ومسلمٍ[1]: «مَنْ مَاتَ وَعَلَيْهِ صِيَامٌ صَامَ عَنْهُ وَلِيُّهُ» المقصود بذلك الصيام هو: صيام النذر، فيصام عنه صيام النذر لا صيام التطوع.

ثم قال بعد ذلك: **(وَاللَّهُ يَسْتَجِيبُ الدَّعَوَاتِ)** كما قال سبحانه: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠]، وقال: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦]، وقال: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ [النمل: ٦٢]، وفي

(١) رواه البخاريُّ، كتاب الصوم، باب من مات وعليه صوم، رقم (١٩٥٢)، ومسلمٌ، كتاب الصيام، باب قضاء الصيام عن الميت، رقم (١١٤٧)، من حديث عائشة رضي الله عنها.

الصحيحين[1]: «يَنزِلُ رَبُّنَا إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا كُلَّ لَيْلَةٍ حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الآخِرُ، فيَقُولُ: مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ؟ مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ؟ مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ؟»، واللَّه سبحانه يستجيب الدعوات، وفي السنن[2] النبي عليه الصلاة والسلام قال: «مَا مِنْ رَجُلٍ يَدْعُو اللَّهَ بِدُعَاءٍ إِلَّا اسْتُجِيبَ لَهُ» فكل مسلمٍ يدعو يُستجاب له.

قال: **(وَيَقْضِي الحَاجَاتِ)** كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٠]، وقال سبحانه: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩]، وقال سبحانه: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [لقمان: ٢٧]، فهو يقضي الحاجات؛ قال سبحانه: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ [النمل: ٦٢]، وقال سبحانه: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ

---

(١) رواه البخاريُّ، كتاب التهجد، باب الدعاء في الصلاة من آخر الليل، رقم (١١٤٥)، ومسلمٌ، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الترغيب في الدعاء والذِّكر في آخر الليل، والإجابة فيه، رقم (٧٥٨)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) رواه الترمذيُّ، أبواب الدعوات، باب، رقم (٣٦٠٤)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: ١٧]، وقال سبحانه: ﴿وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾ [يونس: ١٠٧]، فهو سبحانه كاشف الكربات، وقال جل وعلا: ﴿قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [الزمر: ٣٨].

قال: **(وَيَمْلِكُ كُلَّ شَيْءٍ)** كما قال سبحانه: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ﴾ [آل عمران: ٢٦]، وقال سبحانه: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الملك: ١]، وقال سبحانه: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الحديد: ١-٢]، وقال سبحانه: ﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الزمر: ٦٣]، وقال سبحانه: ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْداً * لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدّاً﴾ [مريم: ٩٣-٩٤]، وقال سبحانه: ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦]، وفي الحديث القدسي يقول: «أَنَا المَلِكُ، أَيْنَ الجَبَّارُونَ؟ أَيْنَ

الْمُتَكَبِّرُونَ»[(١)]، وقال سبحانه: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤]، فهو سبحانه مالك كل شيءٍ.

قال: (وَلَا يَمْلِكُهُ شَيْءٌ) لأنه كما قال عن نفسه: ﴿الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ﴾ [الرعد: ٩]، فهو الكبير الذي لا أكبر منه، وهو العلي العظيم، فهو عالٍ لا أحد فوقه سبحانه، والعظيم الذي لا أعظم منه؛ لذلك لا يَملكه شيءٌ سبحانه وتعالى.

---

(١) رواه مسلمٌ، كتاب صفة القيامة والجَنة والنار، رقم (٢٧٨٨)، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

وَلَا غِنَى عَنِ اللَّهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ، وَمَنِ اسْتَغْنَى عَنِ اللَّهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ؛ فَقَدْ كَفَرَ، وَكَانَ مِنْ أَهْلِ الحَيْنِ.

وَاللَّهُ يَغْضَبُ وَيَرْضَى، لَا كَأَحَدٍ مِنَ الوَرَى.

قال رحمه اللَّه: (**وَلَا غِنَى عَنِ اللَّهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ**) يعني: لا نستغني عن اللَّه ولو في أقل برهةٍ من الزمن؛ لحاجتنا إليه، فلو استغنى العبد عن اللَّه مثلاً في جسده؛ لتعطلت الآلات التي في بطنه فيموت فجأةً؛ لأن الذي يسيِّر ذلك هو اللَّه؛ كما قال سبحانه: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٦]، فلو استغنى العبد عن اللَّه لهلك؛ فالهواء يحتاجه العبد، وما في باطن جسد الإنسان يعمل، ولو أوقفه اللَّه سبحانه لهلك العبد، وهكذا.

وما حُكم من يستغني عن اللَّه؟ قال: (**وَمَنِ اسْتَغْنَى عَنِ اللَّهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ**):

الأمر الأوَّل: قال - والعياذ باللَّه -: (**فَقَدْ كَفَرَ**).

والأمر الثاني: قال: (**وَكَانَ مِنْ أَهْلِ الحَيْنِ**) يعني: الهلاك[1].

---

(١) لسان العرب (١٣/ ١٣٦).

إذاً من اعتقد أنه يستغني عن اللَّه فقد كفر وهلك؛ كما قال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥]، وقال: ﴿وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾ [محمد: ٣٨]، وقال سبحانه: ﴿إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر: ٧].

ثم قال بعد ذلك: (وَاللَّهُ يَغْضَبُ) غضباً يليق بجلاله وعظمته؛ كما قال سبحانه: ﴿مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ﴾ [المائدة: ٦٠]، وقال سبحانه: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ﴾ [النساء: ٩٣]، فنثبت الغضب للَّه، وكيف غضبه سبحانه؟ نقول: اللَّه أعلم.

قال: (وَيَرْضَى) فهو أيضاً سبحانه يرضى، فيرضى عن عباده المؤمنين والمتقين والمحسنين والصالحين والمطيعين، ورضي هو سبحانه عن الصحابة كما قال جل وعلا: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رضي الله عنهم وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [التوبة: ١٠٠]، وقال سبحانه: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ [الفتح: ١٨]، وقال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا

وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ * جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً رضي الله عنهم وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾ [البينة: ٧-٨]، فنثبت رضى اللَّه سبحانه حقيقةً كما يليق بجلاله وعظمته.

قال: (لَا كَأَحَدٍ مِنَ الوَرَى) يعني: غضبه ورضاه لا يشابه أحداً من الخلْق، فنثبت تلك الصفتين وغيرهما كما يليق بجلاله وعظمته من غير تمثيلٍ بخلْقه.

وَنُحِبُّ أَصْحَابَ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم، وَلَا نُفْرِطُ فِي حُبِّ أَحَدٍ مِنْهُمْ، وَلَا نَتَبَرَّأُ مِنْ أَحَدٍ مِنْهُمْ.

وَنُبْغِضُ مَنْ يُبْغِضُهُمْ، وَبِغَيْرِ الخَيْرِ يَذْكُرُهُمْ، وَلَا نَذْكُرُهُمْ إِلَّا بِخَيْرٍ.

وَحُبُّهُمْ: دِينٌ وَإِيمَانٌ وَإِحْسَانٌ.

وَبُغْضُهُمْ: كُفْرٌ وَنِفَاقٌ وَطُغْيَانٌ.

الواجب في اصحاب رسول اللَّه صلى الله عليه وسلم أمران:

الأمر الأوَّل: محبتهم، **والأمر الثاني**: التبرؤ ممن يبغضهم.

والمصنِّف رحمه الله هنا ذكر الأمرين، وهذان الأمران أيضاً ذكرهما شيخ الإسلام رحمه الله في العقيدة الواسطية فالأمر الأوَّل - حب الصحابة - قال عنه شيخ الإسلام: «ويحبون أهل بيت رسول اللَّه صلى الله عليه وسلم، ويتولونهم»[1]، وهنا المصنِّف قال: (وَنُحِبُّ أَصْحَابَ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم)، والأمر الثاني وهو التبرؤ ممن يبغضهم ذكره المصنِّف هنا بقوله: (**وَنُبْغِضُ مَنْ يُبْغِضُهُمْ، وَبِغَيْرِ الخَيْرِ يَذْكُرُهُمْ**)،

---

(١) لعل المقصود هنا قوله: «ومن أصول أهل السنة والجماعة: سلامة قلوبهم وألسنتهم لأصحاب محمد صلى الله عليه وسلم». ضمن متون طالب العلم، المستوى الثالث، بتحقيقنا (ص ١٦١).

وشيخ الإسلام قال في الواسطية[1]: «ويتبرؤون من طريقة الروافض وطريقة النواصب»، إذاً لا يكفي في حق الصحابة فقط حبهم؛ بل يجب أيضاً بغض من يبغضهم والتبرؤ من طريقتهم في بغضهم للصحابة.

وقول المصنِّف رحمه اللَّه: (**وَنُحِبُّ أَصْحَابَ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم**) يعني: نحبُّهم جميعاً؛ لأنَّ اللَّه أحبهم، ونحبهم؛ لأنَّ اللَّه رضي عنهم، ونحبهم؛ لأن اللَّه سبحانه اصطفاهم واختارهم لصحبة أفضل نبيٍّ بعثه، ونحبهم؛ لأنهم بذلوا من المال والنفس والروح ما لم يبذله غيرهم، وحتى ولو بذل غيرهم أكثر ما بذل لا يساوي إخلاصهم ولن يساوي سبْقهم الى الدين، فهم في منقبةٍ عظيمةٍ؛ الصحبة والسبق للدين، فلو أتى مَن أتى بعدهم وعمل ما لم يعملونه من أعمالٍ لا يكون مثلهم؛ لصحبتهم ولسبقهم لهذا الدين، فلو شخصٌ عمل عملاً كثيراً؛ نقول: نعم عملتَ أعمالاً كثيرةً لكن هم سبقوك.

ونحِب أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم؛ لأنهم أبْلوا بلاءً حَسناً حتى نَقلوا إلينا هذا الدين، مع ما لاقوه من مصاعب ومصائب وقتلٍ وخوفٍ ونحو ذلك؛ كما قال سبحانه: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ

---

(١) ضمن متون طالب العلم، المستوى الثالث، بتحقيقنا (ص ١٦٧).

فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ﴾ [التوبة: ٢٥] الآيات، وكذلك في الأحزاب: ﴿إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا * هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً﴾ [الأحزاب: ١٠-١١]، وأيضاً قوله عزوجل: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢١٤].

ومن اتبع هذا الدين من بعثة النبي صلى الله عليه وسلم إلى قيام الساعة يجِد الناس ثلاثة أصناف، الصحابة في صنفين، وبقية الأمَّة في صنفٍ واحدٍ، **فالصنف الأوَّل**: المهاجرون، **والصنف الثاني**: الأنصار، **والصنف الثالث**: الذين جاؤوا من بعدهم، وذكرهم اللَّه عز وجل في سورة واحدة فقال سبحانه: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحشر: ٨]، وقال في الأنصار: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ

خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩]، وقال فيمن بعدهم من المؤمنين: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ﴾ [الحشر: ١٠] يعني: من المهاجرين والأنصار.

ويكفيك رضى اللَّه عز وجل عنهم ووعْدهم بالجَنة في قوله: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رضي الله عنهم وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [التوبة: ١٠٠] هذا من باب الإخبار؛ يعني: أيها الناس اعلموا بأني قد رضيتُ عنهم واعلموا أنهم هم رضوا عن ربهم لمَّا وهبهم هذا الدين، فقوله: ﴿رضي الله عنهم وَرَضُوا عَنْهُ﴾ ليس من باب الدعاء؛ وإنما الإخبار، لذلك قال ابن كثير رحمه اللَّه: «﴿رضي الله عنهم وَرَضُوا عَنْهُ﴾ وقد فعل»(١) يعني: هو رضي عنهم سبحانه.

ومن رضا اللَّه عنهم: أنه بشَّرهم بالجَنة وهم أحياء، كما في هذه الآية قال: ﴿رضي الله عنهم وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً﴾ [التوبة: ١٠٠]، وفي قوله: ﴿وَكُلّاً وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى﴾ [النساء: ٩٥] يعني: من أنفق من قبل الفتح وبعد الفتح جميعاً

---

(١) تفسير ابن كثير (٤/ ٢٠٣).

وعدهم اللَّه بالجَنة، قال ابن حزم رحمه اللَّه: «جميع الصحابة في الجَنَّة قطعاً»[١].

فأهل السُّنة يحبُّون الصحابة، ويشهدون لهم بأنهم جميعاً في الجَنة، ومحبتهم إيمانٌ - كما سيأتي -؛ لقول النبي عليه الصلاة والسلام عن الأنصار كما في صحيح مسلم[٢]: «لَا يُحِبُّهُمْ إِلَّا مُؤْمِنٌ»، لذلك من معتقد أهل السُّنة قال: (**وَنُحِبُّ أَصْحَابَ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم**) وهذا من الوفاء منك لهم؛ فلمَّا بلغوك العلم تحبهم، فلولا نقلهم للعِلم لعشتَ في التيه والضلال والظلام.

قال: (**وَلَا نُفْرِطُ فِي حُبِّ أَحَدٍ مِنْهُمْ**) كما يفعل الرافضة؛ وإنما نحبهم جميعاً ونفضِّل بعضهم على بعض درجاتٍ كما جاءت النصوص، فنفضِّل أهل البيعة على غيرهم، وأهل بدرٍ على غيرهم، وممن خُص بالجَنة على غيرهم، والخلفاء الراشدين أيضاً على غيرهم، ونفضِّل

---

(١) اللفظ الذي وقفتُ عليه: «الصحابة كلّهم من أهل الجَنَّة قطعاً». الإصابة في تمييز الصحابة (١/ ١٦٣).

(٢) كتاب الإيمان، باب الدليل على أن حب الأنصار وعلي رضي الله عنهم من الإيمان وعلاماته، وبغضهم من علامات النفاق، رقم (٧٥)، من حديث البراء رضي الله عنه.

الخليفتين الراشدين أبا بكرٍ وعمر على غيرهم، ونفضِّل أبا بكرٍ على جميعهم، فهو أفضل الصحابة وأجلهم وأعظمهم رضي الله عنهم جميعاً وأرضاهم، فقوله: (وَلَا نُفْرِطُ فِي حُبِّ أَحَدٍ مِنْهُمْ) يعني: دون بعض؛ وإنما نحبهم جميعاً.

قال: (وَلَا نَتَبَرَّأُ مِنْ أَحَدٍ مِنْهُمْ) أيضاً كما يفعل الرافضة، فلا نتبرأ من أحدٍ منهم كأبي بكرٍ وعمر كما يتبرأ الرافضة منهم ويتبرؤون أيضاً من غيرهم؛ وإنما نحن جميعاً نحبهم، فهم كآبائنا، قال شيخ الإسلام في الواسطية[١]: «لا كان ولا يكون مثلهم أبداً»؛ لا كان في القرون السابقة مثلهم، ولن يكون في هذه الأمَّة مثلهم، فهم الصفوة في هذه الأمَّة؛ بل الصفوة في جميع الأمم، فهم خير خلقٍ بعد الأنبياء عليهم السلام، فما يأتي درجةٌ بعد الرسل إلا هم رضي الله عنهم وأرضاهم.

لذلك قال: (وَلَا نَتَبَرَّأُ مِنْ أَحَدٍ مِنْهُمْ) بل نحبُّهم جميعاً؛ للصحبة؛ يعني لاختيار اللَّه عز وجل لهم في صحبتهم.

فإذا قيل: أيهما مثلاً أفضل عمر بن عبد العزيز أو الأعرابي الذي بال في المسجد؟ نقول: شعرة من شعرات أنف الأعرابي أفضل من

---

(١) ضمن متون طالب العلم، المستوى الثالث، بتحقيقنا (ص ١٦٩).

عمر بن عبد العزيز من رأسه إلى قدمه؛ للصحبة، لذلك قال الإمام أحمد بن حنبل رحمه اللَّه: «غبار نعلي معاوية[١] خيرٌ من عمر بن عبد العزيز»[٢] لماذا؟ لأنه صحابي، والصحابيُّ نال رتبةً عظيمةً وهي رتبة الصحبة التي لا يفاضلها رتبةٌ سوى رتبة الرسل، فهم قد نالوا منزلةً عظيمةً اسمها منزلة الصحبة.

فالصحابيُّ له منزلةٌ عظيمةٌ مقدَّمٌ على غيره، حتى ولو أتى من بعده من التابعين والعلماء ما يَصِل إلى مرتبة الصحبة التي منحهم اللَّه عزو جل إياها؛ لذلك قال عليه الصلاة والسلام: «لَا تَسُبُّوا أَصْحَابِي فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ! لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَباً مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلَا نَصِيفَهُ»[٣].

---

(١) هو: أبو عبد الرحمن معاوية بن أبي سفيان بن صخر بن حرب الأموي، أسلم قبل الفتح وعمره ١٨ سنة، وتوفي سنة (٦٠هـ). معرفة الصحابة لأبي نعيم (٥/ ٢٤٩٦).

(٢) شذرات الذهب (١/ ٢٧٠). لكنها بلفظ: «الغبارٌ لحق بأنف جواد معاوية بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم خيرٌ من عمر بن عبد العزيز».

(٣) رواه البخاريُّ، كتاب أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: «لَوْ كُنْتُ مُتَّخِذاً خَلِيلاً»، رقم (٣٦٧٣)، من حديث أبي سعيدٍ رضي الله عنه، ومسلمٌ،

ثم قال: (وَنُبْغِضُ مَنْ يُبْغِضُهُمْ) هذا **الأمر الثاني** من الواجب في أصحاب رسول اللَّه صلى الله عليه وسلم الذي هو التبرؤ ممن يبغضهم، قال: (وَنُبْغِضُ مَنْ يُبْغِضُهُمْ) فكل من أبغض الصحابة نبغضه، وهذا من محبتنا للصحابة؛ لأن النبي عليه الصلاة والسلام قال: «لَا يُحِبُّهُمْ إِلَّا مُؤْمِنٌ، وَلَا يُبْغِضُهُمْ إِلَّا مُنَافِقٌ»(١)، فنبغضهم؛ لأن فيهم آيةً من آيات النفاق وهي بغضهم للصحابة.

قال: (وَبِغَيْرِ الخَيْرِ يَذْكُرُهُمْ) يعني: من يسب الصحابة ويَذكرهم بغير الخير نبغضه، قال: (وَلَا نَذْكُرُهُمْ إِلَّا بِخَيْرٍ) يعني: واجبٌ على الناس جميعاً ألَّا يَذكروا الصحابة إلا بكل خيرٍ وثناءٍ، وترضٍّ ومحبةٍ، وشكرٍ ووفاءٍ لِما قدمَّوه لهذا الدين العظيم، فمنهم من شُلت يده، ومنهم من مات، ومنهم من خاف، ومنهم من فارق وطنه، من أجل أن يَصِلك

كتاب فضائل الصحابة رضي الله تعالى عنهم، باب تحريم سب الصحابة رضي الله عنهم، رقم (٢٥٤٠)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(١) سبق تخريجه (ص) عند قوله: (لقول النبي عليه الصلاة والسلام عن الأنصار كما في).

هذا الدين، فطلحة رضي الله عنه شُلت يده؛ لأنه يقي النبي عليه الصلاة والسلام أن لا يصيبه شيء من النبل[١].

ولكثرة مناقب الصحابة رضي الله عنهم جمع أهل العِلم مجلَّداتٍ كبيرةٍ في ذكر فضائلهم، مثل فضائل الصحابة لأبي نعيم الأصبهاني[٢]، والاستيعاب لابن عبد البر[٣]، والإصابة لابن حجر[٤]، وذكر جملة كبيرة منهم الذهبي في سير أعلام النبلاء.

---

(١) كما في حديث قيس بن أبي حازم قال: «رَأَيْتُ يَدَ طَلْحَةَ الَّتِي وَقَى بِهَا النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم قَدْ شُلَّتْ» رواه البخاريُّ، كتاب فضائل الصحابة، باب ذكر طلحة بن عبيد الله، رقم (٣٧٢٤).

(٢) هو: أبو نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق الأصبهاني الصوفي الشافعي، ولد سنة (٣٣٦هـ)، وتوفي رحمه الله سنة (٤٣٠هـ). طبقات الشافعية (١/ ٢٠٢).

(٣) هو: أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البَر النمري المالكي، وُلد سنة (٣٦٨هـ)، وتوفي رحمه الله سنة (٤٦٣هـ). ترتيب المدارك وتقريب المسالك (٨/ ١٢٧)، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية (١/ ١٧٦).

(٤) هو: أبو الفضل شهاب الدين أحمد بن علي بن محمد الكناني العسقلاني ثم المصري الشافعي، ولد سنة (٧٧٣هـ)، وتوفي رحمه الله سنة (٨٥٢هـ). طبقات الحفاظ للسيوطي (ص٥٥٢).

ثم ذكر بعد ذلك جملةً عظيمةً ينبغي لكل مسلمٍ أن يَحفظها، فقال: (وَحُبُّهُمْ: دِينٌ) يعني: حبهم من الدِّين الذي يؤجر عليه الشخص، وهو من أعظم المحبة في اللَّه؛ لأنهم رجالٌ صالحون، مجاهدون صابرون، عبَّادٌ زهادٌ، علماءُ أوفياءُ مع النبي عليه الصلاة والسلام.

قال: (وَإِيمَانٌ) لقول النبي عليه الصلاة والسلام: «لَا يُحِبُّهُمْ إِلَّا مُؤْمِنٌ» فمن خير ما يتقرب به العبد هو حبهم، وحبُّهم علامةٌ عظيمةٌ من علامات الإيمان، (وَإِحْسَانٌ) أي: حبهم إحسانٌ وفضلٌ وكرمٌ تُحسِن فيه لنفسك في محبتك لهم، ولا يمكن أن يَصِل الشخص إلى مرتبة الإحسان وهو يبغض الصحابة، وقد يَصِل إلى مرتبة الإحسان بحبه للصحابة، كما قال سبحانه: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩]، وقال النبي عليه الصلاة والسلام: «الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ»[١]، يعني: يُحشر مع من أحب، فحبهم إحسانٌ.

---

(١) رواه البخاريُّ، كتاب الأدب، باب علامة حب الله عز وجل، رقم (٦١٦٨)، ومسلمٌ، كتاب البِر والصلة والآداب، باب المرء مع من أحب، رقم (٢٦٤٠)، من حديث عبد الله بن مسعودٍ رضي الله عنه.

قال: (وَبُغْضُهُمْ) يعني: ما هو حُكم من يبغضهم؟ قال: (كُفْرٌ) يعني: المصنِّف رحمه الله هنا يرى أن من يبغض الصحابة يكفر، وهو الصواب؛ لموافقته للنصوص؛ لأن اللَّه قال: ﴿رضي الله عنهم وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [التوبة: ١٠٠]، وهو يبغض من رضي الله عنهم؛ فقد صادم النصوص، هذا إذا كان عملهم فقط بغض الصحابة، أما إذا أضافوا إلى بغض الصحابة أمراً آخر وهو الاستغاثة بغير اللَّه - كالاستغاثة بعليٍّ والحسن[(١)] والحسين -؛ هنا شركٌ وهو شرك العبادة، وشيخ الإسلام رحمه الله كفَّر الرافضة في منهاج السُّنة[(٢)]، وكفَّرهم أيضاً في الفتاوى في المجلد الثامن والعشرين[(٣)].

---

(١) هو: أبو محمد الحسن بن علي بن أبي طالب بن عبد المطلب الهاشمي القرشي، وُلد سنة (٣هـ)، وتوفي رضي الله عنه سنة (٤٩هـ) وقيل (٥٠هـ)، وقيل (٥١هـ). الإصابة في تمييز الصحابة (٢/ ٦٠).

(٢) (٣/ ٤٥٢).

(٣) (ص ٤٧٤).

قال: (وَنِفَاقٌ) كما قال عليه الصلاة والسلام: «وَلَا يُبْغِضُهُمْ إِلَّا مُنَافِقٌ»[١]، (وَطُغْيَانٌ) يعني: من العصيان في دين اللَّه، فمن أبغضهم فقد طغى وأسرف على نفسه في تلك المعصية العظيمة وهي بغض الصحابة.

---

(١) سبق تخريجه (ص) عند قوله: (لقول النبي عليه الصلاة والسلام عن الأنصار كما في).

وَنُثْبِتُ الخِلَافَةَ بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: أَوَّلاً لِأَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رضي الله عنه - تَفْضِيلاً لَهُ، وَتَقْدِيماً عَلَى جَمِيعِ الأُمَّةِ -، ثُمَّ لِعُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ رضي الله عنه، ثُمَّ لِعُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ رضي الله عنه، ثُمَّ لِعَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رضي الله عنه - وَهُمُ الخُلَفَاءُ الرَّاشِدُونَ وَالأَئِمَّةُ المَهْدِيُّونَ -.

قال رحمه اللَّه: (وَنُثْبِتُ الخِلَافَةَ بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم) النبي عليه الصلاة والسلام سار بهذه الأمَّة بالنبوة؛ أي: قادهم بها، ثم من بعده على الخلافة؛ كما قال: «ثُمَّ الخِلَافَةُ أَرْبَعُونَ سَنَةً»[1]، وامتدت الخلافة أربعين سنة بعده صلى الله عليه وسلم.

قال: (أَوَّلاً لِأَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رضي الله عنه) ساق شيخ الإسلام رحمه الله اتفاق أهل السُّنة على أن أفضل هذه الأمَّة بعد النبي صلى الله عليه

---

(١) الصواب: (ثلاثون سنة)، ولفظ الحديث: «الخِلَافَةُ فِي أُمَّتِي ثَلَاثُونَ سَنَةً، ثُمَّ مُلْكاً بَعْدَ ذَلِكَ» رواه أحمد في المسند، رقم (٢١٩٢٨)، من حديث سفينة رضي الله عنه.

وسلم هو أبو بكر رضي الله عنه[١]، وساق أيضاً اتفاق الأمَّة على أن أوَّل الخلفاء الراشدين هو أبو بكر رضي الله عنه[٢].

قال: (تَفْضِيلاً لَهُ) فأبو بكرٍ هو أفضل الصحابة، وله الصحبة المطلقة، وهو أشجع الصحابة؛ بل هو أشجع من عمر كما بين السماء والأرض، وهو أفضل من عمر كما بين السماء والأرض، وهو أكرم الصحابة رضي الله عنهم، وأبذلهم؛ بل قال شيخ الإسلام: «إنَّ كل آيةٍ بها ثناء على المؤمنين والمتَّقين[٣] فأوَّل الداخلين فيها هو أبو بكر»[٤]، وأكثر من لازم النبي عليه الصلاة والسلام في حياته هو أبو بكر رضي الله عنه؛ فكان صديقاً له وخليلاً له من قبل البعثة، وهو وإياه سواء، وزوَّج أبو بكر النبي صلى الله عليه وسلم بنته عائشة.

(١) منهاج السُّنة (٦/ ٤٧٦).

(٢) منهاج السُّنة (٨/ ٣٤٥).

(٣) الصواب: (المنفقين في سبيل الله).

(٤) منهاج السُّنة (٨/ ٥٥٥).

وفي صحيح البخاري[١] كان النبي صلى الله عليه وسلم يزور أبا بكر قبل الهجرة بكرةً وعشيّاً؛ يعني: النبي صلى الله عليه وسلم يزور أبا بكرٍ في اليوم مرتين اثنتين، لماذا؟ لقوة ما بينها من الصحبة، واللَّه عز وجل أثبت له الصحبة؛ ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠]، ولم يَثبت في المعارك – كحنين – من الصحابة العظام سوى أبي بكر رضي الله عنه وأرضاه، فهو أفضل هذه الأمَّة.

وكان النبي صلى الله عليه وسلم كثيراً ما يقول: «دَخَلْتُ أَنا وَأَبُو بَكْرٍ، وَعُمَرُ، وَذَهَبْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ، وَعُمَرُ»[٢]، ولمَّا أتته امرأة – يعني: النبي عليه

(١) كتاب مناقب الأنصار، باب هجرة النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه إلى المدينة، رقم (٣٩٠٥)، من حديث عائشة رضي الله عنها، ولفظه: «لَمْ أَعْقِلْ أَبَوَيَّ قَطُّ إِلَّا وَهُمَا يَدِينَانِ الدِّينَ، وَلَمْ يَمُرَّ عَلَيْنَا يَوْمٌ إِلَّا يَأْتِينَا فِيهِ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم طَرَفَيِ النَّهَارِ، بُكْرَةً وَعَشِيَّةً».

(٢) رواه البخاريُّ، كتاب أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، باب مناقب عمر بن الخطاب أبي حفص القرشي العدوي رضي الله عنه، رقم (٣٦٨٥)، ومسلمٌ، كتاب فضائل الصحابة رضي الله تعالى عنهم، باب من فضائل عمر رضي الله تعالى عنه، رقم (٢٣٨٩)، من حديث عليٍّ رضي الله عنه، ولفظه: «وَايْمُ اللهِ! إِنْ كُنْتُ لَأَظُنُّ أَنْ يَجْعَلَكَ اللهُ مَعَ صَاحِبَيْكَ، وَذَاكَ أَنِّي كُنْتُ أُكَثِّرُ أَسْمَعُ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ: جِئْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ، وَدَخَلْتُ أَنَا

الصلاة والسلام - في آخر حياته وقالت: إن لم أجدك العام المقبل؟ قال: «فَإِنْ لَمْ تَجِدِينِي فَأْتِي أَبَا بَكْرٍ»[١]، وهو يشير إلى أبي بكر بأنه الخليفة من بعده، وقال: «مُرُوا أَبَا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ بِالنَّاسِ»[٢]، وقال: «يَأْبَى اللَّهُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَّا أَبَا بَكْرٍ »[٣] يعني: خليفة من بعد نبينا عليه الصلاة والسلام، والأحاديث صحيحةٌ.

وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ، وَخَرَجْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ، فَإِنْ كُنْتُ لَأَرْجُو، أَوْ لَأَظُنُّ، أَنْ يَجْعَلَكَ اللهُ مَعَهُمَا».

(١) رواه البخاريُّ، كتاب أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: «لَوْ كُنْتُ مُتَّخِذاً خَلِيلاً»، رقم (٣٦٥٩)، ورواه مسلم، كتاب فضائل الصحابة رضي الله تعالى عنهم، باب من فضائل أبي بكر الصديق رضي الله عنه، رقم (٢٣٨٦).

(٢) رواه البخاريُّ، كتاب الأذان، باب: أهل العِلم والفضل أحق بالإمامة، رقم (٦٧٨)، ومسلمٌ، كتاب الصلاة، باب استخلاف الإمام إذا عَرض له عذرٌ من مرضٍ وسفرٍ وغيرهما من يصلي بالناس، وأن من صلى خلف إمام جالس لعجزه عن القيام لزمه القيام إذا قدر عليه، ونسخ القعود خلف القاعد في حق من قدر على القيام، رقم (٤٢٠)، من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

(٣) رواه البخاريِّ، كتاب المرضى، باب قول المريض «إني وجع» أو «وا رأساه»، رقم (٥٦٦٦)، ورواه مسلم، كتاب فضائل الصحابة رضي الله تعالى عنهم، باب من فضائل أبي بكر الصديق رضي الله عنه، رقم (٢٣٨٧)، من حديث عائشة رضي الله عنها.

لهذا قال شيخ الإسلام: «وثبتت خلافة أبي بكر بعد نبوة النبي صلى الله عليه وسلم بالنَّص والإجماع»[١]؛ فالنبي صلى الله عليه وسلم نَص على أن يكون الخليفة من بعده هو أبو بكر؛ لمثل الأحاديث السابقة التي ذكرناها.

قال: (**تَفْضِيلاً لَهُ**) يعني: فضله عظيمٌ، قال عمر رضي الله عنه: «لَلَيْلَةٌ مِنْ أَبِي بَكْرٍ خَيْرٌ مِنْ عُمَرَ وَآلِ عُمَرَ»[٢]، وقال أيضاً: «أَبُو بَكْرٍ سَيِّدُنَا وَأَحْلَمُنَا»[٣]، وكان الصحابة يهابون أبا بكر أشد من هيبتهم من عمر أو من غير عمر؛ لشجاعته وقوته وشدة بأسه، بل ثبات أبي بكرٍ رضي الله عنه في الأمور العظام أشد من ثبات غيره؛ ففي قتال المرتدين

---

(١) منهاج السُّنة (٨/ ٣٤٥).

(٢) رواه الحاكم في المستدرك، (٣/ ٧)، رقم (٤٢٦٨)، ولفظه: «لَلَيْلَةٌ مِنْ أَبِي بَكْرٍ خَيْرٌ مِنْ آلِ عُمَرَ، وَلَيَوْمٌ مِنْ أَبِي بَكْرٍ خَيْرٌ مِنْ آلِ عُمَرَ».

(٣) رواه البخاريُّ، كتاب مناقب الأنصار، باب مناقب بلال بن رباح رضي الله عنه، رقم (٣٧٥٤)، من حديث جابر رضي الله عنه، ولفظه: «أَبُو بَكْرٍ سَيِّدُنَا».

ورواه الترمذي، أبواب المناقب، باب مناقب أبي بكر الصديق رضي الله عنه، رقم (٣٦٥٦)، من حديث عائشة رضي الله عنها، ولفظه: «أَبُو بَكْرٍ سَيِّدُنَا وَخَيْرُنَا وَأَحَبُّنَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم».

كان يراجعه كبار الصحابة في عدم قتالهم، بل في مانعي الزكاة كان كبار الصحابة يراجعون أبا بكر في عدم قتالهم، وكان يقول: «وَاللَّهِ! لَوْ مَنَعُونِي عِقَالاً كَانُوا يُؤَدُّونَهُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم لَقَاتَلْتُهُمْ عَلَى مَنْعِهِ»[(١)] فهنا الشجاعة.

وتظهر شجاعته كثيراً كما في صحيح البخاري قال عمر رضي الله عنه: «لمَّا سمعت بوفاة النبي صلى الله عليه وسلم سقطتُ حتى ما تحملني رجلاي»[(٢)]، فسقط على الأرض عمر بن الخطاب وهو الشجاع، أما أبو بكرٍ رضي الله عنه فلم يسقط؛ بل قام يخطب ويقول: «مَنْ كَانَ يَعْبُدُ مُحَمَّداً؛ فَإِنَّ مُحَمَّداً قَدْ مَاتَ»[(٣)]، فأيهما

(١) رواه البخاريُّ، كتاب استتابة المرتدين والمعاندين وقتالهم، باب قتل مَن أبَى قبول الفرائض وما نسبوا إلى الردة، رقم (٦٩٢٥)، ومسلمٌ، كتاب الإيمان، باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله محمد رسول الله، رقم (٢٠)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) رواه البخاريُّ، كتاب المغازي، باب مرض النبي صلى الله عليه وسلم ووفاته، رقم (٤٤٥٤)، من حديث ابن عباسٍ رضي الله عنهما، ولفظه: «وَاللهِ مَا هُوَ إِلَّا أَنْ سَمِعْتُ أَبَا بَكْرٍ تَلَاهَا فَعَقِرْتُ، حَتَّى مَا تُقِلُّنِي رِجْلَايَ، وَحَتَّى أَهْوَيْتُ إِلَى الْأَرْضِ حِينَ سَمِعْتُهُ تَلَاهَا، أَنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم قَدْ مَاتَ».

(٣) رواه أحمد في المسند، رقم (٢٥٨٤١)، من حديث عائشة رضي الله عنها.

أشجع؟! الذي خَرَّ وصعق لمَّا سمع الخبر، أو الذي لمَّا سمع الخبر قام يخطب؟! لا شك الذي قام يخطب فيهم؛ لذلك قال شيخ الإسلام: «وهو أشجع من عمر»[(١)] قال: «بل هو أشجع من جميع الصحابة رضي الله عنه وأرضاه»[(٢)]، وقال: «وساس الناس بعد النبي صلى الله عليه وسلم ولم يَلحظوا فرقاً بينه وبين سياسة النبي صلى الله عليه وسلم، وهذا يدل على حسن سياسته ودهائه، ولا يظهر سياسة حاكم إلا بعد حاكمٍ بعده، أما أبو بكر فلم يظهر هناك للصحابة فَرقٌ بينه وبين النبي صلى الله عليه وسلم في سياسته»[(٣)]، وقال: «ولم يخطئ أبو بكر في اجتهادٍ؛ بل كل اجتهادٍ له وافق النَّص، وكان الصحابة يَرجعون إليه»[(٤)]، قال: «وبعث النبي صلى الله عليه وسلم أبا بكرٍ قبل حجة الوداع؛ ليعلِّم الناس مسائل الحج؛ لأن مسائل الحج من أدق مسائل

---

(١) منهاج السُّنة (٨/ ٧٩).

(٢) منهاج السُّنة (٨/ ٨٢).

(٣) منهاج السُّنة (٥/ ٥٠١).

(٤) منهاج السُّنة (٧/ ٥٠٧).

العبادات، فبعث أفقه الصحابة ليعلِّم الناس وهو أبو بكر رضي الله عنه»[١].

ودُفن مع النبي صلى الله عليه وسلم، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يحبه حبّاً جمّاً، وكان يغضب النبي صلى الله عليه وسلم ممن يُغضِب أبا بكر رضي الله عنه، فقد كان صاحباً قويّاً ملازماً له تمام الملازمة، قال شيخ الإسلام: «ولم يختلف الصحابة في عهد أبا بكرٍ في مسألةٍ إلا فصلها وأنهاها، ويقفون عند قوله رضي الله عنه وأرضاه»[٢].

قال: **(وَتَقْدِيماً عَلَى جَمِيعِ الأُمَّةِ)** يعني: هو المقدَّم في هذه الأمَّة، فأوَّل رجلٍ في الأمَّة هو أبو بكر رضي الله عنه، وأفضلهم هو أبو بكر رضي الله عنه وأرضاه.

ثم قال: **(ثُمَّ لِعُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ رضي الله عنه)** يعني: ثم الخلافة أيضاً والتفضيل بعد أبي بكر هو لعمر رضي الله عنه، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يكثر من قول: «دَخَلْتُ أَنا وَأَبُو بَكْرٍ، وَعُمَرُ، وَذَهَبْتُ أَنَا وَأَبُو

---

(١) منهاج السُّنة (٥/ ٤٩٧).

(٢) منهاج السُّنة (٥/ ٤٩٧).

بَكْرٍ، وَعُمَرُ»[١]، وهو الرجل الثاني في هذه الأمَّة، وقال عليه الصلاة والسلام لمَّا صعد جبل أحد: «اثْبُتْ أُحُدُ؛ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ نَبِيٌّ أو صِدِّيقٌ أو شَهِيدَانِ»[٢].

ثم قال: (ثُمَّ لِعُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ رضي الله عنه) الرجل السخي، الكريم العظيم، العابد التالي لكتاب اللَّه سبحانه، الذي تستحي منه الملائكة؛ فالنبي عليه الصلاة والسلام لمَّا ظهر شيءٌ من فخذه ودخل عليه عثمان رضي الله عنه غطَّاه، وقال: «أَلَا أَسْتَحِي مِنْ رَجُلٍ تَسْتَحِي مِنْهُ الْمَلَائِكَةُ؟!»[٣].

---

(١) سبق تخريجه (ص) عند قوله (وكان النبي صلى الله عليه وسلم كثيراً ما يقول).

(٢) رواه البخاريُّ، كتاب أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: «لَو كُنْتُ مُتَّخِذاً خَلِيلاً»، رقم (٣٦٧٥)، ومسلمٌ، كتاب فضائل الصحابة رضي الله عنهم، باب من فضائل طلحة، والزبير رضي الله عنهما، رقم (٢٤١٧)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، ولفظ مسلم: «أَنَّ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم كَانَ عَلَى حِرَاءٍ هُوَ وَأَبُو بَكْرٍ، وَعُمَرُ، وَعُثْمَانُ، وَعَلِيٌّ، وَطَلْحَةُ، وَالزُّبَيْرُ، فَتَحَرَّكَتِ الصَّخْرَةُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: اهْدَأْ؛ فَمَا عَلَيْكَ إِلَّا نَبِيٌّ، أَوْ صِدِّيقٌ، أَوْ شَهِيدٌ»، وفي روايةٍ: «وَسَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ».

(٣) رواه مسلمٌ، كتاب فضائل الصحابة، باب: من فضائل عثمان بن عفان رضي الله عنه، رقم (٢٤٠١)، من حديث عائشة رضي الله عنها.

قال: (ثُمَّ لِعَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رضي الله عنه) وهو الذي يحبُّ اللَّه ورسوله ويحبُّه اللَّه ورسوله؛ كما في الحديث الصحيح: «لَأُعْطِيَنَّ الرَّايَةَ غَداً رَجُلاً يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، وَيُحِبُّهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ»(١) فنادى علي بن أبي طالبٍ وأعطاه الراية.

ثم قال: (وَهُمُ الخُلَفَاءُ الرَّاشِدُونَ) يعني: خلفاء النبي صلى الله عليه وسلم الذين كانت خلافتهم راشدةً، يسيرون على النهج القويم الذي جاء به الكِتاب والسُّنة.

قال: (وَالأَئِمَّةُ المَهْدِيُّونَ) يعني: الذين هداهم اللَّه عز وجل للسَّير على نبراس الكِتاب والسُّنة.

والخلفاء الأربعة أمرنا النبي عليه الصلاة والسلام بالأخذ بسُنتهم؛ لذلك قال: «عَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ مِنْ بَعْدِي»(٢)، وأبو بكر وعمر أضيفت إليهم منقبة أخرى وهي الاقتداء بهما

---

(١) رواه البخاريُّ، كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب علي بن أبي طالب، رقم (٣٧٠٢)، ومسلمٌ، كتاب فضائل الصحابة رضي الله تعالى عنهم، باب من فضائل علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، رقم (٢٤٠٤)، من حديث سلمة رضي الله عنه.

(٢) رواه أحمد في المسند، رقم (١٧١٤٤)، من حديث العرباض بن سارية رضي الله عنه.

في أفعالهما، فحتى في الأفعال يُقتدى بهما؛ لقول النبي صلى الله عليه وسلم: «اقْتَدُوا بِاللَّذَيْنِ مِنْ بَعْدِي: أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ»(١) فلأبي بكرٍ وعمر منقبة ليست في عثمان وعليٍّ رضي الله عنهم؛ لأننا أمرنا بالاقتداء حتى بأفعالهما؛ يعني: أبا بكرٍ وعمر رضي الله عنهما.

(١) رواه الترمذي، أبواب المناقب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، باب، رقم (٣٦٦٢)، من حديث حذيفة رضي الله عنها.

وَإِنَّ العَشَرَةَ الَّذِينَ سَمَّاهُمْ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم، نَشْهَدُ لَهُمْ بِالجَنَّةِ عَلَى مَا شَهِدَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم - وَقَوْلُهُ الحَقُّ -.

وَهُمْ: أَبُو بَكْرٍ، وَعُمَرُ، وَعُثْمَانُ، وَعَلِيٌّ، وَطَلْحَةُ، وَالزُّبَيْرُ، وَسَعْدٌ، وَسَعِيدٌ، وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ، وَأَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الجَرَّاحِ - وَهُوَ أَمِينُ هَذِهِ الأُمَّةِ - رضي الله عنهم أَجْمَعِينَ.

قال رحمه اللَّه: **(وَإِنَّ العَشَرَةَ الَّذِينَ سَمَّاهُمْ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم)** في أكثر من موطن فقال: «أَبُو بَكْرٍ فِي الجَنَّةِ، وَعُمَرُ فِي الجَنَّةِ، وَعَلِيٌّ فِي الجَنَّةِ، وَعُثْمَانُ فِي الجَنَّةِ، وَطَلْحَةُ فِي الجَنَّةِ، وَالزُّبَيْرُ فِي الجَنَّةِ، وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ فِي الجَنَّةِ، وَسَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ فِي الجَنَّةِ، وَسَعِيدُ بْنُ زَيْدِ بْنِ عَمْرِو بْنِ نُفَيْلٍ فِي الجَنَّةِ، وَأَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الجَرَّاحِ فِي الجَنَّةِ»[١]، والنبي صلى الله عليه وسلم بشَّر أيضاً غير هؤلاء بالجنة؛

---

(١) رواه أحمد في المسند، رقم (١٦٢٩)، من حديث سعيد بن زيدٍ رضي الله عنه.

مثل: عكاشة بن محصن[١]، ومثل: ثابت بن قيس بن شماس[٢]، ومثل: بلال بن رباح[٣] رضي الله عنهم جميعاً.

فإذا قيل: لماذا هنا ذكر العشرة؟ نقول: لأنهم كانوا في مجلسٍ واحدٍ.

قال: (نَشْهَدُ لَهُمْ بِالجَنَّةِ عَلَى مَا شَهِدَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم) وهذا من الشهادة لمعيَّن، فإذا أتانا نَصٌّ بالشهادة لمعيَّن بأنَّه في الجَنة نَشهد بعينه أنه في الجَنة مثل العشرة المبشَّرين بالجَنة.

---

(١) كما في حديث ابن عباسٍ رضي الله عنهما، وفيه: «...فَقَامَ عُكَّاشَةُ فَقَالَ: ادْعُ اللهَ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ، قَالَ: أَنْتَ مِنْهُمْ...» الحديث رواه البخاريُّ، كتاب الرقاق، باب: يدخل الجَنة سبعون ألْفاً بغير حسابٍ، رقم (٦٥٤١)، ومسلمٌ، كتاب الإيمان، باب الدليل على دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حسابٍ ولا عذابٍ، رقم (٢١٨).

(٢) كما في حديث أنس بن مالكٍ رضي الله عنه، وفيه: «اذْهَبْ إِلَيْهِ، فَقُلْ لَهُ: إِنَّكَ لَسْتَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، وَلَكِنْ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ» رواه البخاريُّ، كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام، رقم (٣٦١٣)، ومسلمٌ، كتاب الإيمان، باب مخافة المؤمن أن يحبط عمله، رقم (١١٩).

(٣) كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وفيه: «...سَمِعتُ دَفَّ نَعلَيكَ بَينَ يَدَيَّ في الجَنّةِ...» رواه البخاريُّ، كتاب التهجد، باب فضل الطهور بالليل والنهار، وفضل الصلاة بعد الوضوء بالليل والنهار، رقم (١١٤٩)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

قال: (وَقَوْلُهُ الحَقُّ) يعني: وقول النبي صلى الله عليه وسلم حَقٌّ يوحى إليه من اللَّه بأنَّهم من أهل الجَنة؛ فنصدِّق بذلك.

ثم قال: (وَهُمْ: أَبُو بَكْرٍ، وَعُمَرُ، وَعُثْمَانُ، وَعَلِيٌّ، وَطَلْحَةُ، وَالزُّبَيْرُ، وَسَعْدٌ، وَسَعِيدٌ، وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ، وَأَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الجَرَّاحِ - وَهُوَ أَمِينُ هَذِهِ الأُمَّةِ - رضي الله عنهم أَجْمَعِينَ) هؤلاء هم العشرة المبشَّرون بالجَنة، وهم: الخلفاء الراشدون الأربعة، والستة الباقين جمعهم الناظم[1] في قوله:

عيدٌ وسعدٌ وابن عوفٍ وطلحةٌ وعامر فهرٍ والزبير الممدَّح

«سعيد» يعني: سعيد بن زيدٍ، وهو من كتاب الوحي، «وسعد» يعني: سعد بن أبي وقاص الذي قال له النبي صلى الله عليه وسلم: «ارْمِ فِدَاكَ أَبِي وَأُمِّي»[2]، «وابن عوف» يعني: عبد الرحمن بن عوف رضي الله

(١) وهو عبد الله ابن أبي داود رحمه الله. سير أعلام النبلاء (١٣/ ٢٣٥).

(٢) رواه البخاريُّ، كتاب المغازي والسِّير، باب المجن ومن يتترس بترس صاحبه، رقم (٢٩٠٥)، ومسلمٌ، كتاب فضائل الصحابة، باب في فضل سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، رقم (٢٤١١)، من حديث عليٍّ رضي الله عنه.

عنه وأرضاه، «وطلحة» يعني: طلحة بن عبيد اللَّه الذي شُلت يده في أحدٍ وهو يدافع عن النبي صلى الله عليه وسلم.

«وعامر فهرٍ» يعني: أبو عبيدة عامر بن الجراح الفهري الذي قال النبي صلى الله عليه وسلم: «لِكُلِّ أُمَّةٍ أَمِينٌ، وَأَمِينُ هَذِهِ الْأُمَّةِ أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ»(١)، «والزبير الممدَّح» لقول النبي صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ لِكُلِّ نَبِيٍّ حَوَارِيَّ، وَإِنَّ حَوَارِيَّ الزُّبَيْرُ بْنُ الْعَوَّامِ»(٢) رضي الله عنهم وأرضاهم.

فهؤلاء هم العشرة الذين سماهم النبيُّ صلى الله عليه وسلم.

---

(١) رواه البخاريُّ، كتاب المغازي، باب قصة أهل نجران، رقم (٤٣٨٢)، من حديث أنسٍ رضي الله عنه.

(٢) رواه البخاريُّ، كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب الزبير بن العوام، رقم (٣٧١٩)، ومسلمٌ، كتاب فضائل الصحابة، باب: من فضائل طلحة والزبير رضي الله تعالى عنهما، رقم (٢٤١٥)، من حديث جابر رضي الله عنه.

وَمَنْ أَحْسَنَ القَوْلَ فِي أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم، وَأَزْوَاجِهِ، وَذُرِّيَّاتِهِ؛ فَقَدْ بَرِئَ مِنَ النِّفَاقِ.

قال رحمه اللَّه: **(وَمَنْ أَحْسَنَ القَوْلَ فِي أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم)** يعني: ومن أثنى عليهم ولم يطعنهم في شيء، **(وَأَزْوَاجِهِ)** لم يَطعن فيهن، **(الطَّاهِرَاتِ)**[١] يعني: من كل ما يبهته الرافضة؛ كبهتانهم لعائشة بالبهتان العظيم رضي الله عنها وأرضاها.

قال: **(مِنْ كُلِّ دَنَسٍ)**[٢] يعني: مما رمى به الرافضة عائشة رضي الله عنها وقذفوها بالأمر المشين، فمن سلِم لسانه لأصحاب النبي صلى الله عليه وسلم بعدم اللعن والطعن واللمز ونحو ذلك، وكذلك في أزواجه الطاهرات رضي الله عنهن وفي المقدِّمة عائشة رضي الله عنها، فإن من طعن فيها فقد كفر؛ لأنه جاء القرآن بتبرئتها مما رُميتْ به.

ثم قال: **(وَذُرِّيَّاتِهِ)** يعني: ذريات النبي صلى الله عليه وسلم؛ أي: من كان من آل البيت، **(الْمُقَدَّسِينَ مِنْ كُلِّ رِجْسٍ)**[٣]

---

(١) ليست في المطبوع، لعلها في نسخة أخرى.

(٢) ليست في المطبوع، لعلها في نسخة أخرى.

(٣) ليست في المطبوع، لعلها في نسخة أخرى.

يعني: المؤمنين، أما غير المؤمنين فإنهم كغيرهم في وجوب البراءة منهم؛ كأبي لهبٍ وأبي جهلٍ وغيرهم ممن لم يَدخل في الإسلام؛ وإنما نبجِّل ونوالي ونحِب ونعظِّم من كان مؤمناً من آل بيت النبي صلى الله عليه وسلم.

قال: (فَقَدَ بَرِئَ مِنَ النِّفَاقِ) لقول النبي صلى الله عليه وسلم: «لَا يُحِبُّهُمْ إِلَّا مُؤْمِنٌ، وَلَا يُبْغِضُهُمْ إِلَّا مُنَافِقٌ»(١).

وهناك مسألة وهي: يَكثر قول أو قد يوجد عند بعض الوعاظ أو الخطباء يقول: صلى اللَّه عليه وعلى آله الأطهار أو الطاهرين؛ وهذه اللفظة خطأ؛ يعني: لا يوصف أهل ذرية النبي صلى الله عليه وسلم بأنهم طاهرون، وقوله سبحانه: ﴿وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾ [الأحزاب: ٣٣] يعني: ممن أتى من بعدهم ممن لم يُشهد لهم بالإيمان؛ لأن اللَّه عز وجل قال: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾ [الأحزاب: ٣٣]، وقوله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ هذه من الإرادة الشرعية وليس من الإرادة الكونية؛ يعني: اللَّه عز وجل يَطلب منكم ويريد منكم أن تستقيموا على هذا

(١) سبق تخريجه (ص) عند قوله: (لقول النبي عليه الصلاة والسلام عن الأنصار كما في).

الدين، وليس معناه: إن اللَّه أقامهم على هذا الدين، فلا يصح أن نخبر عنهم بأنهم أطهارٌ، لذلك قال شيخ الإسلام رحمه الله في المنهاج: «ومن أخبر بأن آل البيت من الطاهرين فقد كذَب على اللَّه»[1].

بمعنى لو أن شخصاً قال: اللَّهم صلِّ وسلِّم على آل بيت النبي الأطهار؛ هذه عبارةٌ غير صحيحةٍ، لكن لو قال: اللَّهم طهِّر ذرية النبي صلى الله عليه وسلم واجعلهم من أهل الإيمان؛ نقول: ما فيه بأس أن تدعو لهم بالطهارة، أما أن تخبر عنهم بأنهم من الطاهرين فهذا غير صحيح؛ لأنه ليس هناك دليلٌ أنهم من الطاهرين، ففيهم ما في غيرهم مما يعتريهم، أما المؤمن من آل البيت فنعظِّمه ونبجِّله، ونحبّه ونواليه، وندافع عنه ونوقره، وغير ذلك مما يجب علينا من حقوقٍ له من غير غلوٍّ فيه.

---

(١) منهاج السُّنة (٤/ ٢٥٩).

وَعُلَمَاءُ السَّلَفِ مِنَ السَّابِقِينَ والتَّابِعِينَ، وَمَنْ بَعْدَهُمْ مِنْ أَهْلِ الخَبَرِ وَالأَثَرِ، وَأَهْلِ الفِقْهِ وَالنَّظَرِ، لَا يُذْكَرُونَ إِلَّا بِالجَمِيلِ، وَمَنْ ذَكَرَهُمْ بِسُوءٍ فَهُوَ عَلَى غَيْرِ السَّبِيلِ.

لمَّا ساق المصنِّف رحمه الله مكانة الصحابة رضي الله عنهم، أعقبهم بعد ذلك بالعلماء، وأنه يجب احترامهم وتقديرهم، وتبجيلهم والانتفاع بهم، وألَّا يُتطاول عليهم بقول أو لمز ونحو ذلك، فلهم المكانة العليا، وهم الذين خدموا الدِّين ونقلوه إلينا، فهم ورثة الرسل عليهم السلام.

وهذا الذي ذكره المصنِّف رحمه الله يحتاج إليه أهل السُّنة كثيراً، ويحتاج إليه غير أهل السُّنة كثيراً؛ فإن من أسباب وقوع النزاع بين أفراد أهل الإسلام عدم احترام علماء الدِّين، وعدم تبجيلهم وتوقيرهم، وتتبع أخطائهم وتضخيمها والمبالغة فيها؛ بل قد يَصل إلى تحريفها وعدم الخوف من اللَّه عز وجل في التطاول عليهم، وبيَّن المصنِّف رحمه الله أن عقيدة أهل السُّنة والجماعة على خلاف ذلك.

لذلك قال: **(وَعُلَمَاءُ السَّلَفِ مِنَ السَّابِقِينَ)** أي: مَن سبقنا من السلف من القرون المفضَّلة، **(والتَّابِعِينَ)** أي: من صار على نهجهم وتبع أثرهم، **(وَمَنْ بَعْدَهُمْ)** من القرون إلى قيام الساعة.

من هم علماء السلف والتابعون؟ قال: (مِنْ أَهْلِ الخَبَرِ وَالأَثَرِ) يعني: أهل الرواية عن النبي صلى الله عليه وسلم؛ يعني: كأنه يقول: أهل الحديث، فيجب أن يُحترموا ويُبجلوا، (وَأَهْلِ الفِقْهِ وَالنَّظَرِ) يعني: أهل الاستنباط من الأحاديث، فالمحدثون والفقهاء وعلماء العقيدة وعلماء الفرائض والتفسير وغير ذلك من علماء السلف يجب أن يُحترموا، ويجب أن يُقدَّروا، وينبغي أن يُترحم عليهم وأن يُغض الطرف عما يحدث منهم إن حدث؛ فهم بشرٌ ويكفيك اجتهادهم فيما يجتهدون فيه.

لذلك قال: (لَا يُذْكَرُونَ إِلَّا بِالجَمِيلِ) فمن صفاء النفْس وحسن وفائها وسلامة القلب هو شُكر من نقل إلينا العِلم وهم العلماء، فقد بذلوا المُهَج، بل بعضهم قد ابتعد عن الأولاد وجاع في سبيل ذلك، وتعرَّض للمخاطر والمشاق ما اللَّه به عليمٌ؛ من أجل أن يوصل إلينا هذا العِلم، بل إن الإمام البخاري[1] رحمه الله ما خرج من بيته أكثر من يوم؛ لأنه لم يكن عنده ملابس رحمه اللَّه.

(١) هو: أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم الجعفي مولاهم البخاري، وُلد سنة (١٩٤هـ)، وتوفي رحمه الله سنة (٢٥٦). تذكرة الحفاظ للذهبي (٢/ ١٠٤).

قال: ﴿وَمَنْ ذَكَرَهُمْ بِسُوءٍ فَهُوَ عَلَى غَيْرِ السَّبِيلِ﴾ يعني: خالف منهج أهل السُّنة والجماعة؛ لأن منهج أهل السُّنة والجماعة عدم الطعن في العلماء، واحترامهم كاحترام الآباء؛ فالآباء تحملوا المشاق حتى بأمر اللَّه خرجنا إلى هذا المعاش، وكذلك العلماء بذلوا المشاق حتى أوصلوا إلينا هذا العِلم، قال الإمام أحمد رحمه اللَّه: «الناس إلى العلم أحوج منهم إلى الطعام والشراب»[١]، فإذا كان الناس يحتاجون إلى العِلم أكثر مما يحتاجون إلى الطعام والشراب وجب احترام من نقَل إلينا هذا العِلم.

ومن سمع أحداً يطعن في أحد العلماء عليه أن يبيِّن خطأه، ويقول له: إن معتقد أهل السُّنة والجماعة حفظ اللسان عن علماء الإسلام، وصم الأذن عن كل حديثٍ في العلماء، فإن هذا يظلِم القلب ويردي بالمرء إلى المساوئ، فإذا كان الكلام فيهم من الغيبة؛ بل قد يكون من البهتان، فالبهتان على أهل العِلم يتضاعف.

ولأهمية هذه المسألة أَلَّف شيخ الاسلام رحمه الله رسالةً عظيمةً أسماها: «رفع الملام عن الأئمة الأعلام»، وكلها في الاعتذار عن علماء الإسلام، فينبغي لطالب العِلم أن يقرأها مراراً، وأن يعيها، فمن وعيها

---

(١) مدارج السالكين (٢/ ٤٤٠).

أيقن بأن علماء الإسلام بذلوا جهداً مشكوراً، فرحم اللَّه شيخ الإسلام رحمةً واسعةً، وجَمعنا به في جَنات النعيم.

وَلَا نُفَضِّلُ أَحَداً مِنَ الأَوْلِيَاءِ عَلَى أَحَدِ الأَنْبِيَاءِ، وَنَقُولُ: نَبِيٌّ وَاحِدٌ أَفْضَلُ مِنْ جَمِيعِ الأَوْلِيَاءِ.

وَنُؤْمِنُ بِمَا جَاءَ مِنْ كَرَامَاتِهِمْ، وَصَحَّ عَنِ الثِّقَاتِ مِنْ رِوَايَاتِهِمْ.

لمَّا ساق المصنِّف رحمه الله حقوق الصحابة، ثم ذريات النبي صلى الله عليه وسلم وهم من الصحابة، تكلم عن العلماء، ثم بعد ذلك ذكر مرتبة الأولياء، ومن هم الأولياء؟ الأولياء مثل ما بيِّن المصنِّف رحمه الله فقال: (**وَالمُؤْمِنُونَ كُلُّهُمْ أَوْلِيَاءُ الرَّحْمَن**) فإذا قال لك شخصٌ: من هو الولي؟ تقول: مثل ما قال اللَّه عز وجل في كتابه: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٦١ - ٦٢]، فالولي هم المؤمن المتقي، فمن كان مؤمناً متَّقياً نرجو أن يكون وليّاً من أولياء اللَّه عز وجل.

وهي منزلةٌ عظيمةٌ، وغلا من غلى في هذه المرتبة من الصوفية(١)؛ فجعلوا منزلة الولاية أعلى من منزلة النبوة، فقالوا في ترتيبهم - والعياذ

(١) الصوفية: هم طائفة كانوا في القرن الأوَّل يعرفون باسم الزهاد والنساك، وكان اعتقادهم صافياً وإيمانهم نقياً خالصاً، هرعوا إلى الكهوف ورؤوس الجبال حيث الوحدة الصافية والانعزال عن صخب الحياة المادية، ثم بعد مُضِي عصر الصحابة والتابعين وفي أواخر القرن

باللَّه -: رسالة، ولاية، نبوة، فجعلوا الولاية بين الرسالة وبين النبوة؛ وهذا - والعياذ باللَّه - كُفرٌ برب العالمين.

لذلك قال: (وَلَا نُفَضِّلُ أَحَداً مِنَ الأَوْلِيَاءِ عَلَى أَحَدِ الأَنْبِيَاءِ) يعني: لا نفضِّل الصالحين على الأنبياء؛ (وَنَقُولُ: نَبِيٌّ وَاحِدٌ أَفْضَلُ مِنْ جَمِيعِ الأَوْلِيَاءِ)؛ لعلو منزلة النبوة على منزلة الولاية.

ثم قال: (وَنُؤْمِنُ بِمَا جَاءَ مِنْ كَرَامَاتِهِمْ) هذا فيه رَدٌّ على المعتزلة.

فإذا قيل: ما هي الكرامة؟ نقول: الكرامة هي: شيء خارج عن العادة، فإن كانت بوحيٍ فتكون للأنبياء خاصَّةٌ، أما إذا لم يكن يوحى للشخص وأتى بشيءٍ فيه آيةٌ خارقةٌ للعادة؛ فنقول: لا يخلو: إن كان مؤمناً؛ فهي كرامةٌ، وإن كان غير مؤمنٍ؛ فهي من الشعوذة والخرافة ومن أولياء الشيطان.

الثاني الهجري بدأ يطلق عليهم اسم الصوفية؛ إما بسبب لبسهم الصوف، أو من صفائهم، أو من اتصافهم بالصفات الحميدة، ثم بعد ذلك تدرجوا في أطوار عديدة بداية من دخول الألفاظ الموهمة في كلامهم، وصولا إلى تحررهم من التكاليف الشرعية، وإدخالهم في الدين ما ليس منه. التصوف - المنشأ والمصادر - (ص٢٠).

وهي التي يسميها الناس معجزة، مثل: شخصٌ يمشي على البحر، أو شخصٌ يدعو ربه في وقت غير مطر في متاهة ثم ينزل المطر؛ هذا يسمونه معجزة؛ ولم يَرِد في الشرع لفظ «معجزة»؛ وإنما الصحيح لفظ «آية»؛ كما قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ [الإسراء: ١٠١]، وقال فرعون: ﴿فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الشعراء: ١٥٤].

وأنكر المعتزلة الكرامات؛ لأنهم قالوا: لو قلنا إن الكرامة تصح لغير النبي لقلنا أنه نبيٌّ؛ نقول: هذا غير صحيحٍ؛ النبي قد يعطيه اللَّه عز وجل كرامة مع الوحي، أما لو ما أتى وحيٌ والشخص مؤمنٌ متقٍ؛ فنقول: هذه كرامة، هذا جانبٌ، والجانب الآخر: الكرامة لا تدل على شدة صلاح الرجل مع وجود غيره من أهل العِلم ونحو ذلك؛ وإنما الكرامة كما قال ابن القيم: «هي من قبيل المال والولد»(١) يعني: فتنة له إما أن يَشكر وإما أن يَكفر؛ كما قال: ﴿لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ [النمل: ٤٠]، فهي من باب الحظ ومن باب النعمة.

---

(١) لم أقف.

وهكذا قال شيخ الاسلام رحمه اللَّه: «ولم تكن الكرامة موجودةً في عهد الصحابة؛ لعدم الحاجة إليها، ولا يدل على أن غيرهم أفضل منهم»[(١)]، وقال: «وما حدث لمَّا عمر رضي الله عنه بلغ الصحابة المقاتلين فقال: «يَا سَارِيَ الْجَبَلَ، يَا سَارِيَ الْجَبَلَ»[(٢)] ليس هذا من باب الآيات؛ وإنما هذا واحدٌ من الجن قلَّد صوت عمر يُحذِّر أصحابه من العدو»[(٣)].

ومن الكرامات: ما حصل لمريم عليها السلام مع زكريا عليه السلام كما قال اللَّه: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقاً﴾ [آل عمران: ٣٧]، ومثل: ﴿وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَباً جَنِيّاً﴾ [مريم: ٢٥]، ومثل: أصحاب الكهف ناموا أكثر من ثلاث مئة سَنة ولم يصبهم شيءٌ، وهكذا.

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام (١١/ ٢٨٣).

(٢) رواه أحمد في فضائل الصحابة، فضائل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، (١/ ٢٦٩)، رقم (٣٥٥)، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٣) مجموع فتاوى شيخ الإسلام (١٣/ ٨٨).

لذلك قال: (**وَنُؤْمِنُ بِمَا جَاءَ مِنْ كَرَامَاتِهِمْ**) يعني: الأولياء، (**وَصَحَّ عَنِ الثِّقَاتِ مِنْ رِوَايَاتِهِمْ**) يعني: ليس كل ما يُذكر عن رجلٍ صالحٍ حدث له كذا كذا نصدِّق؛ فقد يكون الناقل غير صادقٍ؛ وإنما إذا صح عندنا وجوب الكرامة لرجلٍ مؤمنٍ متقي؛ فنؤمن بها ونصدِّقها.

وَنُؤْمِنُ بِخُرُوجِ الدَّجَّالِ، وَنُزُولِ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ عليه السلام مِنَ السَّمَاءِ.

وَنُؤْمِنُ بِطُلُوعِ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، وَخُرُوجِ دَابَّةِ الأَرْضِ مِنْ مَوْضِعِهَا.

أشراط الساعة تنقسم إلى قِسمين:

القِسم الأوَّل: خرجت، مثل: بعثة النبي عليه الصلاة والسلام كما قال عليه الصلاة والسلام: «بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةُ كَهَاتَيْنِ»[١] يعني: قريبان من بعض، ومثل: خروج النار التي خرجت في المدينة عام ست مئة وخمس وخمسين، فخرجت تضيء لها أعناق الإبل ببصرى، ومثل: مقتل عمر بن الخطاب رضي الله عنه فهو من أشراط الساعة؛ قال: «إذا كُسر الباب»[٢].

---

(١) رواه البخاريُّ، كتاب الرقاق، بَابُ قَوْلِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم: «بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةُ كَهَاتَيْنِ»، رقم (٦٥٠٥)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، ومسلمٌ، كتاب الفتن وأشراط الساعة، رقم (٢٩٥١)، من حديث أنسٍ رضي الله عنه.

(٢) أي: كما في حديث حذيفة رضي الله عنه، وفيه: «أنَّ عُمَرَ بنَ الخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عنْه، قالَ: أَيُّكُمْ يَحْفَظُ قَوْلَ رَسولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم في الفِتْنَةِ؟ فَقالَ حُذَيْفَةُ: أَنَا أَحْفَظُ كما

ومن أشراط الساعة: كثرة شرب الخمر، والزنى، وقلة العِلم وكثرة الجهل[(١)].

والقِسم الثاني: أشراط كبرى إذا خرجتْ خرجتِ الأخرى على تلوها، مثل ما قال النبي صلى الله عليه وسلم في مسند الإمام أحمد[(٢)]: «مِثْلُ فَرْطِ المَسْبَحَةِ» فالمسبحة إذا فُرطت[(٣)] وخرجت حبةٌ الباقي تتبعها.

فإذا قيل: متى الساعة؟ نقول: الساعة حتى الملائكة لا يعرفون متى هي؛ كما قال سبحانه: ﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي

قالَ، قالَ: هَاتِ، إنَّكَ لَجَرِيءٌ، قالَ رَسولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: فِتْنَةُ الرَّجُلِ في أَهْلِهِ ومَالِهِ وجَارِهِ، تُكَفِّرُهَا الصَّلَاةُ، والصَّدَقَةُ، والأمْرُ بالمَعروفِ، والنَّهْيُ عَنِ المُنْكَرِ، قالَ: ليسَتْ هذِه، ولَكِنِ الَّتي تَمُوجُ كَمَوْجِ البَحْرِ، قالَ: يا أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ! لا بَأْسَ عَلَيْكَ منها، إنَّ بيْنَكَ وبيْنَهَا بَاباً مُغْلَقاً، قالَ: يُفْتَحُ البَابُ أَوْ يُكْسَرُ؟ قالَ: لَا، بَلْ يُكْسَرُ، قالَ: ذَاكَ أَحْرَى أَنْ لا يُغْلَقَ...» رواه البخاريُّ، كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام، رقم (٣٥٨٦).

(١) كما في حديث أنسٍ رضي الله عنه، ولفظه: «مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ: أَنْ يُرْفَعَ الْعِلْمُ، وَيَثْبُتَ الْجَهْلُ، وَيُشْرَبَ الْخَمْرُ، وَيَظْهَرَ الزِّنَا» رواه مسلمٌ، كتاب العلم، باب رفع العلم وقبضه، وظهور الجهل، والفتن في آخر الزمان، رقم (٢٦٧١).

(٢) لم أقف.

(٣) أي: انقطعت. المعجم الوسيط (٢/ ٦٨٣).

السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾ [الأعراف: ١٨٧]، فلا أحد يَعرف متى هي، لكن من رحمة اللَّه سبحانه لهذه الأمَّة أن جعل لها أشراطاً؛ ليستعدوا إلى الأهبة والنقلة إلى الدار الآخرة.

فمن أشراطها ما سبق، وهناك أشراط أخرى ذكرها المصنِّف فقال: (وَنُؤْمِنُ بِخُرُوجِ الدَّجَّالِ) والدجال موجودٌ، وكما في حديث تميم الداريِّ[١] في صحيح مسلمٍ[٢] قال: «أعظم إنسان رأيتُه، وأعظم خلق

(١) هو: أبو رقية تميم بن أوس بن خارجة بن سود الداري، أسلم سنة (٩هـ)، وتوفي رضي الله عنه بالشام. الاستيعاب في معرفة الأصحاب (١/ ١٩٣)، الإصابة في تمييز الصحابة (١/ ٤٨٨).

(٢) كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب في خروج الدجال ومكثه في الأرض ونزول عيسى وقتله إياه، رقم (٢٩٤٢)، وفيه: «... فَانْطَلَقْنَا سِرَاعاً حَتَّى دَخَلْنَا الدَّيْرَ، فَإِذَا فِيهِ أَعْظَمُ إِنْسَانٍ رَأَيْنَاهُ قَطُّ خَلْقاً وَأَشَدُّهُ وَثَاقاً مَجْمُوعَةٌ يَدَاهُ إِلَى عُنُقِهِ، مَا بَيْنَ رُكْبَتَيْهِ إِلَى كَعْبَيْهِ بِالْحَدِيدِ، قُلْنَا: وَيْلَكَ مَا أَنْتَ؟ قَالَ: قَدْ قَدَرْتُمْ عَلَى خَبَرِي فَأَخْبِرُونِي مَا أَنْتُمْ؟ قَالُوا: نَحْنُ أُنَاسٌ مِنَ الْعَرَبِ، رَكِبْنَا فِي سَفِينَةٍ بَحْرِيَّةٍ فَصَادَفْنَا الْبَحْرَ حِينَ اغْتَلَمَ، فَلَعِبَ بِنَا الْمَوْجُ شَهْراً، ثُمَّ أَرْفَأْنَا إِلَى جَزِيرَتِكَ هَذِهِ، فَجَلَسْنَا فِي أَقْرُبِهَا فَدَخَلْنَا الْجَزِيرَةَ، فَلَقِيَتْنَا دَابَّةٌ أَهْلَبُ كَثِيرُ الشَّعَرِ، لَا يُدْرَى مَا قُبُلُهُ مِنْ دُبُرِهِ مِنْ كَثْرَةِ الشَّعَرِ، فَقُلْنَا: وَيْلَكِ مَا أَنْتِ؟ فَقَالَتْ: أَنَا الْجَسَّاسَةُ، قُلْنَا: وَمَا الْجَسَّاسَةُ؟ قَالَتِ: اعْمِدُوا إِلَى هَذَا الرَّجُلِ فِي الدَّيْرِ فَإِنَّهُ إِلَى خَبَرِكُمْ بِالْأَشْوَاقِ، فَأَقْبَلْنَا إِلَيْكَ سِرَاعاً، وَفَزِعْنَا مِنْهَا وَلَمْ نَأْمَنْ أَنْ تَكُونَ شَيْطَانَةً.

رأيتُه، شعره طويلٌ، ويداه موثَّقة في قدميه من الخلف، وهو في جزيرةٍ، ولمَّا رآه قال أخبرني عن عين عن نخل بيسان هل يثمر أم لا؟ - نخل في فلسطين -، قال: نعم يوشك ألا يثمر والآن لا يثمر، وسأله عن عين زُغر هل نضبت؟ قال: يوشك ألا تنضب والآن نضبت، وسأل عن بحيرة

فَقَالَ: أَخْبِرُونِي عَنْ نَخْلِ بَيْسَانَ، قُلْنَا: عَنْ أَيِّ شَأْنِهَا تَسْتَخْبِرُ؟ قَالَ: أَسْأَلُكُمْ عَنْ نَخْلِهَا هَلْ يُثْمِرُ؟ قُلْنَا لَهُ: نَعَمْ، قَالَ: أَمَا إِنَّهُ يُوشِكُ أَنْ لَا تُثْمِرَ.

قَالَ: أَخْبِرُونِي عَنْ بُحَيْرَةِ الطَّبَرِيَّةِ. قُلْنَا: عَنْ أَيِّ شَأْنِهَا تَسْتَخْبِرُ؟ قَالَ: هَلْ فِيهَا مَاءٌ؟ قَالُوا: هِيَ كَثِيرَةُ الْمَاءِ، قَالَ: أَمَا إِنَّ مَاءَهَا يُوشِكُ أَنْ يَذْهَبَ.

قَالَ: أَخْبِرُونِي عَنْ عَيْنِ زُغَرَ، قَالُوا: عَنْ أَيِّ شَأْنِهَا تَسْتَخْبِرُ؟ قَالَ: هَلْ فِي الْعَيْنِ مَاءٌ؟ وَهَلْ يَزْرَعُ أَهْلُهَا بِمَاءِ الْعَيْنِ؟ قُلْنَا لَهُ: نَعَمْ، هِيَ كَثِيرَةُ الْمَاءِ، وَأَهْلُهَا يَزْرَعُونَ مِنْ مَائِهَا.

قَالَ: أَخْبِرُونِي عَنْ نَبِيِّ الْأُمِّيِّينَ مَا فَعَلَ؟ قَالُوا: قَدْ خَرَجَ مِنْ مَكَّةَ وَنَزَلَ يَثْرِبَ. قَالَ: أَقَاتَلَهُ الْعَرَبُ؟ قُلْنَا: نَعَمْ، قَالَ: كَيْفَ صَنَعَ بِهِمْ؟ فَأَخْبَرْنَاهُ أَنَّهُ قَدْ ظَهَرَ عَلَى مَنْ يَلِيهِ مِنَ الْعَرَبِ وَأَطَاعُوهُ. قَالَ لَهُمْ: قَدْ كَانَ ذَلِكَ؟ قُلْنَا: نَعَمْ.

قَالَ: أَمَا إِنَّ ذَاكَ خَيْرٌ لَهُمْ أَنْ يُطِيعُوهُ، وَإِنِّي مُخْبِرُكُمْ عَنِّي، إِنِّي أَنَا الْمَسِيحُ، وَإِنِّي أُوشِكُ أَنْ يُؤْذَنَ لِي فِي الْخُرُوجِ فَأَخْرُجَ، فَأَسِيرَ فِي الْأَرْضِ فَلَا أَدَعَ قَرْيَةً إِلَّا هَبَطْتُهَا فِي أَرْبَعِينَ لَيْلَةً، غَيْرَ مَكَّةَ وَطَيْبَةَ، فَهُمَا مُحَرَّمَتَانِ عَلَيَّ كِلْتَاهُمَا، كُلَّمَا أَرَدْتُ أَنْ أَدْخُلَ وَاحِدَةً أَوْ وَاحِداً مِنْهُمَا اسْتَقْبَلَنِي مَلَكٌ بِيَدِهِ السَّيْفُ صَلْتاً يَصُدُّنِي عَنْهَا، وَإِنَّ عَلَى كُلِّ نَقْبٍ مِنْهَا مَلَائِكَةً يَحْرُسُونَهَا...» الحديث.

طبريَّة تنضب أو لا؟ قال: يوشك ألا تنضب» فكثيرٌ من العلامات مما ذكره قريبة من المسيح الدجال.

فيخرج المسيح الدجال وعينه فيها عوَر ومكتوب على جبينه «ك ف ر» يعني: كافرٌ، يقرؤه كل مؤمن وإن كان أمِّيّاً، أما الكافر وإن كان متعلِّما لا يقرأ ذلك.

وفتنته عظيمة فيقول: أنا ربكم، ويأمر السماء أن تمطر فتمطر، ويأتي بالرجل يشقُّه نصفين ثم يجمعه فيحيه بإذن اللَّه، ويأتي للأرض الخربة فيقول: أخرجي كنوزك؛ فتُخرج ما فيها من ذهبٍ وفضةٍ، فهو فتنةٌ للناس، ويتبعه ناسٌ كثرٌ حتى إن الرجل ليقيد خالته بالحبال، ثم يخرج؛ يَخشى أن يَتبعوه، ثم إذا عاد الرجل إلى بيته يرى أنها قد حلت الوثاق وتبعته؛ لذلك أكثر أتباعه اليهود والنساء.

وإذا سمع الناس به يَهربون إلى أعالي الجبال؛ خوفاً منه، ثم من كان من المنافقين أو من الكافرين - والعياذ باللَّه - يتبعوه؛ لذلك أمر

النبي صلى الله عليه وسلم بالتعوذ منه[١]، وما من نبيٍّ إلا حذر منه؛ لشدة فتنته، فيأتي للمدينة يريد أن يدخلها، فإذا عليها سبعة أنقاب على كل نقب منها – يعني: طريق – ملكان معهما السيف مصلَتاً – يعني: مرفوعاً –، فإذا أراد أن يدخل يَخشى منهم فيَخرج وما يدخلها، ففي الحديث قال النبي صلى الله عليه وسلم: «وعليها يومئذ سبعة أنقاب» – يعني: على المدينة –، والآن عليها ستة طرق، والطريق السابع يُعمل؛ فدل على قرب الساعة، فكان مِن قبل ليس في المدينة إلا طريقين فقط؛ من الشرق والغرب، ثم الآن أصبح للشمال اثنان، وللغرب اثنان، وللشرق اثنان، وبقي واحد الآن يعمل بين حائل وبين القصيم.

فلمَّا لم يدخلها يَضرب خيمته في الجُرف، والجُرف الآن في الأرض السَّبِخة[٢]، والأرض السَّبخة هذه الجهة الجنوبية منها فيها منازل،

---

(١) كما في حديث عائشة رضي الله عنها: «أَنَّ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم كَانَ يَدْعُو فِي الصَّلَاةِ: اللهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ المَسِيحِ الدَّجَّالِ...» الحديث رواه البخاريُّ، كتاب الأذان، باب الدعاء قبل السلام، رقم (٨٣٢)، ومسلمٌ، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب ما يستعاذ منه في الصلاة، رقم (٥٨٩).

(٢) أي: التي لا تنبت شيئاً. شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم (٥/ ٢٩٥٩).

والشرق فيها منازل، والشمال فيها منازل، والشرق فيها طريق، والمكان الذي يَنزل فيه إلى الآن ليس فيه أيّ عمارةٍ، فكأنه مهيئ للنزول فيه[1]، قال: «فَيَضْرِبُ قُبَّتَهُ فِيهِ»[2] وفي لفظ: «فَيَصْعَدُ أُحُداً، فَيَنْظُرُ إِلَى الْمَدِينَةِ، فَيَقُولُ لِأَصْحَابِهِ: أَتَرَوْنَ هَذَا الْقَصْرَ الْأَبْيَضَ؟ هَذَا مَسْجِدُ أَحْمَدَ»[3] يعني: يقصد المسجد النبوي، والآن المسجد النبوي من رآه من بعيد أو مِن على الطائرة يراه أنه أبيض، ولم يكن من قبل لونه أبيض؛ فدل على قُرب خروجه، ثم بعد ذلك يذهب إلى الشام، ويتبعه الناس، فينزل عيسى عليه السلام هناك عند المنارة البيضاء فيقتله كما سيأتي.

فنؤمن بنزول الدجال، وسمي الدجال؛ لكثرة كذبه على الناس، فيدجِّل عليهم: أنا ربكم، أنا أفعل كذا وكذا، وهكذا.

---

(١) كل المعلَّم بالأصفر يراجع لأن هذا وقت شرح المتن ولا أدري هل ما زال كما وصف الشيخ أم لا؟ فينظر هل تبقى أو تغير.

(٢) رواه مسلمٌ، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب قصة الجساسة، رقم (٢٩٤٣)، من حديث أنسٍ رضي الله عنه، ولفظه: «فَيَأْتِي سَبْخَةَ الْجُرُفِ فَيَضْرِبُ رِوَاقَهُ».

(٣) رواه أحمد في المسند، رقم (١٨٩٧٥)، من حديث محجن بن الأدرع رضي الله عنه.

ثم قال رحمه اللَّه: (وَنُزُولِ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ عليه السلام مِنَ السَّمَاءِ) ليس في السماء الثانية، ويَنزل عند المنارة البيضاء، ونزوله يكون في دمشق، ومكان نزوله الآن فيه مسجدٍ في طرفه منارةٌ بيضاء معروفة، فإذا نزل يَكسر الصليب ويَقتل الخنزير، والحيّ الآن المجاور لتلك المنارة فيه نصارى يعلِّقون الصلبان وعندهم الخنازير؛ فدل ذلك على قرب نزوله عليه السلام.

فينزل عيسى عليه السلام، فإذا رآه المسيح الدجال قال النبي صلى الله عليه وسلم: «ذَابَ كَمَا يَذُوبُ الْمِلْحُ فِي الْمَاءِ»(١)، فيقول عيسى: «إِنَّ لِي فِيكَ ضَرْبَةً»(٢)؛ يعني: لن أُخطأها، فيضربه عيسى عليه السلام بضربةٍ فيقتله، فيهلك المسيح الدجال بيد عيسى عليه السلام.

إذاً من أشراط الساعة: نزول عيسى عليه السلام، فعيسى الآن بجسده وروحه في السماء حيٌّ؛ كما قال سبحانه: ﴿بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ﴾

---

(١) رواه مسلمٌ، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب في فتح قسطنطينية وخروج الدجال ونزول عيسى ابن مريم، رقم (٢٨٩٧)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) رواه ابن ماجه، أبواب الفتن، باب فتنة الدجال وخروج عيسى ابن مريم وخروج يأجوج ومأجوج، رقم (٤٠٧٧)، من حديث أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه.

[النساء: ١٥٨]، خلافاً للنصارى الذين قالوا إنه قُتل، وأخبر سبحانه فقال: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ﴾ [النساء: ١٥٧]، فهم ظنوا أنَّ ذاك الرجل هو عيسى فقتلوه، لكن اللَّه سبحانه رفعه إلى السماء، وسيَنزله إلى الأرض، فيَحكم بشريعة محمدٍ عليه السلام.

ثم قال: (وَنُؤْمِنُ بِطُلُوعِ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا) يعني: نؤمن بطلوع الشمس من المغرب، كما في صحيح البخاري[1]: «إنَّ الشَّمْسَ تَذْهَبُ حتَّى تَسْجُدَ تَحْتَ العَرْشِ، فَتَسْتَأْذِنَ، فيُؤْذَنُ لَهَا، ويُوشِكُ أنْ تَسْجُدَ، فلا يُقْبَلَ منها، وتَسْتَأْذِنَ فلا يُؤْذَنَ لَهَا، يُقَالُ لَهَا: ارْجِعِي مِن حَيْثُ جِئْتِ، فَتَطْلُعُ مِن مَغْرِبِهَا»؛ يعني: تذهب بعد الغروب فتسجد تحت العرش تستأذن أن تَخرج فتَخرج، فإذا أتى اليوم الموعود لا يؤذَن لها، فتعود فتخرج من المغرب، قال النبي صلى الله عليه وسلم: «فَإِذَا طَلَعَتْ فَرَآهَا النَّاسُ آمَنُوا أَجْمَعُونَ، فَذَلِكَ حِينَ ﴿لا يَنْفَعُ نَفْساً إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ

---

(١) كتاب بدء الخلق، باب صفة الشمس والقمر، رقم (٣١٩٩)، من حديث أبي ذرٍّ رضي الله عنه.

مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْراً﴾»[١] فإذا رأوا ذلك آمنوا جميع من في الأرض؛ لعِلمهم بقروب الساعة.

فإذا قيل: لماذا خرجت من المغرب؟ نقول: إيذاناً بزوال الكون، فاللَّه خلقها ليبتلي الناس ماذا يعملون، فلمَّا انتهى ما خلقه اللَّه عز وجل على الدنيا من خلقٍ يُطوى هذا البساط، فتطلع الشمس من المغرب، وتتناثر النجوم، والبحار تفجَّر وتسجَّر[٢]، وغير ذلك.

ثم قال: (وَخُرُوجِ دَابَّةِ الأَرْضِ مِنْ مَوْضِعِهَا) كما قال سبحانه: ﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ [النمل: ٨٢]، وليس هناك حديثٌ صحيحٌ في موضع خروج الدابة، فقيل: من المسعى[٣]، وقيل غير ذلك، لكن نؤمن بأنَّ هناك في آخر الزمان تخرج دابَّة وتتكلم.

---

(١) رواه البخاريُّ، كتاب الرقاق، بَابُ قَوْلِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم: «بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةُ كَهَاتَيْنِ»، رقم (٦٥٠٦)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أي: تمتلئ ماء. الصحاح (٢/ ٦٧٧).

(٣) وهو منسوب لعبد الله بن عمر رضي الله عنهما. تفسير القرطبي (١٣/ ٢٣٦).

وَلَا نُصَدِّقُ كَاهِناً، وَلَا عَرَّافاً، وَلَا مَنْ يَدَّعِي شَيْئاً بِخِلَافِ الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَإِجْمَاعِ الأُمَّةِ.

وَنَرَى الجَمَاعَةَ حَقّاً وَصَوَاباً، وَالفُرْقَةَ زَيْغاً وَعَذَاباً.

قال رحمه اللَّه: (وَلَا نُصَدِّقُ كَاهِناً، وَلَا عَرَّافاً...) عندنا كاهنٌ، وعندنا عرَّافٌ وعندنا ساحرٌ، وعندنا مشعوذٌ.

فالقِسم الأوَّل: الكاهن هو: الذي يتكهن الأزمان؛ ماذا سيحدث غداً، فمثلاً: شخصٌ يقول: غداً يموت فلان، أو غداً يحيى فلانٌ، أو غداً يحدث كذا؛ هذا يسمى كاهنٌ، ما حال الكهان؟ قال النبي صلى الله عليه وسلم عنهم: «لَيْسُوا بِشَيْءٍ»[1]؛ يعني: يَكذبون فلا تصدقوهم أو تأتوهم، قال سبحانه: ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [النمل: ٦٥]، وقال سبحانه: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً﴾ [الجن:٢٦]، وحتى جبريل عليه السلام لا يَعلم ماذا سيحدث غداً، فلا أحد يَعلم، فكيف يأتي كاهنٌ يدَّعي معرفة ذلك؟!

---

(١) رواه البخاريُّ، كتاب الأدب، باب قول الرجل للشيء: ليس بشيءٍ، وهو ينوي أنه ليس بحقٍّ، رقم (٦٢١٣).

والقِسم الثاني: العرَّاف هو: الذي يدَّعي معرفة الأعيان في المستقبل، فالأعيان مثلاً يقال له: أين سيارة فلان؟ فعنده رأي من الجن فيقول: سيارته في المكان الفلاني، فهو الذي يدَّعي معرفة الأشياء؛ وهذا أيضاً لا يجوز؛ بل كفرٌ الذهاب إليه، كما في الكاهن.

والقِسم الثالث: الساحر وهو: الذي يَعقد أو ينفخ من أجل صرفٍ أو عطفٍ يحبِّب رجلاً إلى شيء أو يبغِّضه إلى شيءٍ؛ وهذا هو أخطرهم وأبشعهم وأعظمهم ضرراً على الخلق، وأبشعهم وأخطرهم عقيدة هو الكاهن؛ لأنه يدَّعي شيئاً من مقتضيات الربوبية للَّه سبحانه وتعالى؛ يعني: ادَّعى شيئاً ما ادَّعتْه الملائكة، وكلهم على خطرٍ عظيمٍ.

والقِسم الرابع: المشعوذ وهو: الذي ليس بكاهنٍ ولا عرَّافٍ ولا ساحرٍ؛ وإنما يدَّعي معرفة تلك الأمور؛ من أجل أن يَكذِب على الناس ليأخذ أموالهم، لكنه كذَّابٌ ما يَعرف شيئاً، لكن يتصنَّع بأنه يَعرف شيئاً.

وحُكم الذهاب للجميع: قال عليه الصلاة والسلام: «مَنْ أَتَى كَاهِناً، أَوْ عَرَّافاً، فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ، فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ»(١)، وقال عليه الصلاة والسلام في السحر: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ تَطَيَّرَ أَوْ تُطُيِّرَ لَهُ، أَوْ

---

(١) رواه أحمد في المسند، رقم (٩٥٣٦)، من حديث أبي هريرة والحسن رضي الله عنهما.

تَكَهَّنَ أَوْ تُكُهِّنَ لَهُ، أَوْ سَحَرَ أَوْ سُحِرَ لَهُ»[1]، وفي النسائي[2] قال: «وَمَنْ سَحَرَ فَقَدْ أَشْرَكَ».

وذكر الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله أن الناقض السابع من نواقض الإسلام السِّحر فقال: «السِّحر، ومنه: الصرف و العطف، فمن فعله أو رضي به كفر»[3] والعياذ باللَّه، ففعله كفرٌ برب العالمين، فمن فعل ذلك فعليه أن يتوب إليه سبحانه، وأن يَحلَّ عَقد ما قد ربط.

لذلك قال المصنِّف: (وَلَا نُصَدِّقُ كَاهِناً، وَلَا عَرَّافاً، وَلَا مَنْ يَدَّعِي شَيْئاً بِخِلَافِ الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَإِجْمَاعِ الأُمَّةِ) مثل: من يقول: إن الصلوات ست صلواتٍ، أو يقول: ليس هناك زكاةٌ مفروضةٌ، فيدعي أشياء تخالف الكِتاب والسُّنة وإجماع الأمَّة من أهل التصوف مثلاً أو من غيرهم من أهل الأهواء.

---

(١) رواه البزار، (٩/ ٥٢)، رقم (٣٥٧٨)، من حديث عمران بن حصينٍ رضي الله عنه.

(٢) كتاب تحريم الدم، باب الحُكم في السحرة، رقم (٤٠٧٩)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) نواقض الإسلام – ضمن متون طالب العلم، المستوى الأول، بتحقيقنا – (ص ١٦٧).

ثم قال: (**وَنَرَى الجَمَاعَةَ حَقّاً وَصَوَاباً، وَالفُرْقَةَ زَيْغاً وَعَذَاباً**) سبق هذا الكلام عند قوله: (**وَنَتَّبِعُ السُّنَّةَ وَالجَمَاعَةَ، وَنَجْتَنِبُ الشُّذُوذَ وَالخِلَافَ وَالفُرْقَةَ**)، وهنا أعاد هذا الأمر تأكيداً؛ لأنه أمر مهمٌّ الذي هو عدم النزاع بين أهل السُّنة من طعنٍ ولمزٍ، وتنافرٍ وحسدٍ بينهم، وحقدٍ وافتراقٍ وأهواء، ونحو ذلك ممن هو على ملة الإسلام.

لذلك قال: (**وَنَرَى الجَمَاعَةَ حَقّاً وَصَوَاباً**) يعني: يجب علينا أن نتمسك بالجماعة، ويجب علينا أن نعتقد بقلوبنا أن الجماعة حقٌّ، فيجب أن نلزمها؛ لذلك النبي صلى الله عليه وسلم قال: «يَدُ اللَّهِ مَعَ الْجَمَاعَةِ وَمَنْ شَذَّ شَذَّ إِلَى النَّارِ»[1]، فيجب على الشخص أن يَلزم جماعة المسلمين وألَّا يفترق ويبتعد عنهم.

ثم قال: (**وَالفُرْقَةَ زَيْغاً وَعَذَاباً**) يعني: نرى الافتراق والنزاع والخلاف والشذوذ والطعن في علماء أهل السُّنة وغير ذلك فرقةً عظيمةً يجب أن تُجتنب، ونراها عذاباً على المسلمين؛ فهي من أسباب ضعفهم وتسلُّط الأعداء عليهم، وتمكُّن أهل الاهواء والشهوات من فعْل ما

---

(١) رواه الترمذي، أبواب الفتن، باب ما جاء في لزوم الجماعة، رقم (٢١٦٧)، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

يفعلونه مما يريدون من اعتداءٍ مثلا على شباب المسلمين أو على فتياتهم من الوقوع في أعراضهم ونحو ذلك؛ لانشغال أهل العِلم أو طلبة العِلم أو الصالحين أو اهل السُّنة بعضهم ببعضٍ.

فيجب على الشخص أن يَحفظ لسانه، وأن يَحفظ قلبه، وأن يَحفظ عقيدته، وأن يكفَّ سمعه عما يؤثر على ذلك، مما فيه فرقة ونزاع، ويجب أن تجتمع كلمة الجميع على الحق على طاعة اللَّه سبحانه.

وَدِينُ اللَّهِ فِي السَّمَاءِ وَالأَرضِ وَاحِدٌ، وَهُوَ دِينُ الإِسْلَامِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِيناً﴾.

وَهُوَ بَيْنَ الغُلُوِّ وَالتَّقْصِيرِ، وَبَيْنَ التَّشْبِيهِ وَالتَّعْطِيلِ.

وَبَيْنَ الجَبْرِ وَالقَدَرِ، وَبَيْنَ الأَمْنِ وَاليَأْسِ.

قال رحمه اللَّه: (وَدِينُ اللَّهِ فِي السَّمَاءِ وَالأَرضِ) نسبة الدين للَّه نسبة تشريفٍ وتعظيمٍ لهذا الدين، (وَاحِدٌ) أي: إن الواجب على الخلق اتباع دينٍ واحدٍ، وليس المقصود بقوله: (وَاحِدٌ) أي: في الوجود؛ لأنه يوجد

في الأرض أكثر من دينٍ كالنصرانية[١] واليهودية[٢] والبوذية[٣] وغيرها من الأديان، لكن المطلوب قدراً وكوناً وشرعاً هو دينٌ واحدٌ وهو دين الإسلام.

وقوله: (**وَالأَرضِ**) يعني: المطلوب من أهل الأرض أن يتبعوا ديناً واحداً، وهو دين الإسلام؛ كما قال سبحانه كما سياتي: (﴿**إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ**﴾)، وقال سبحانه: ﴿**وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ**﴾ [آل عمران:٨٥].

---

(١) هم: أمَّة المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام، وكتابهم الإنجيل، وهم فِرَقٌ كثيرة، بلغت اثنتين وسبعين فرقة، فهم من جهلهم ليس لهم ضابط، ولا لكفرهم حدٌّ، فمنهم مَنْ يعتقد عيسى إلهاً، ومنهم مَنْ يعتقده شريكاً، ومنهم مَنْ يعتقده ولداً. الفصل في المِلَل والأهواء والنِّحل (١/ ٤٧)، المِلَل والنِّحَل (٢/ ٢٥)، تفسير ابن كثير (٢/ ٤٧٩).

(٢) هم: أمَّة موسى عليه السلام، وكتابهم التوراة، عبدوا العجل وعزيراً، ومن معتقداتهم: منع النسخ، والتشبيه، والقول بالقدر، والجبر، واستحالة الرجعة. المِلَل والنِّحَل (٢/ ١٥).

(٣) البوذية: هي طائفةٌ ظَهرت في الهند، تُنسب إلى رجلٍ يُلقَّب ب (بوذا)، وهي تميل إلى الإلحاد والوثنية. الأديان والفرق والمذاهب المعاصرة (ص ٧١)، الموسوعة الميسرة في المذاهب والأديان المعاصرة (٢/ ٧٥٨).

وقوله: (**فِي السَّمَاءِ**) لا يُعلم تكليفٌ في السماء؛ وإنما ينزِّهون اللَّه ويعظِّمونه.

فقوله: (**وَدِينُ اللَّهِ فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ**) يعني: ودين اللَّه الواجب اتباعه في الأرض والذي أُنزل من السماء واحدٌ وهو دين الإسلام، (**قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾**)، يعني: الدِّين الذي أمر اللَّه به هو الإسلام، كما قال سبحانه أيضاً: ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُوداً أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [البقرة: ١٣٥]، وبلقيس قالت: ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [النمل: ٤٤]، وقال فرعون: ﴿آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٩٠].

فدين الرسل واحدٌ؛ كما قال عليه الصلاة والسلام: «نَحْنُ مَعَاشِرَ الْأَنْبِيَاءِ دِينُنَا وَاحِدٌ»[(١)]، وهو إفراد اللَّه سبحانه، قال عز وجل: ﴿وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾

---

(١) رواه البخاريُّ، كتاب أحاديث الأنبياء، بَابُ قَوْلِ اللهِ {وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا}، رقم (٣٤٤٣)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، ولفظه: «وَالْأَنْبِيَاءُ إِخْوَةٌ لِعَلَّاتٍ أُمَّهَاتُهُمْ شَتَّى وَدِينُهُمْ وَاحِدٌ».

[الزخرف: ٤٥]؟ لا، بل هو واحدٌ، وقال سبحانه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وقال: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

فدينهم واحدٌ، أما الشرائع فمختلفةٌ مثل: شُرب الخمر مباحٌ في غير شريعة محمّد عليه الصلاة والسلام بعد أن نُسخ منها؛ يعني: أنه حتى في شريعة محمد في صدرها كان الخمر مباحاً، ثم حُرِّم، قال سبحانه: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً﴾ [المائدة: ٤٨].

فالشرائع فيها اختلافٌ، لكن أصل الدين واحدٌ؛ يعني: لم يَدْعُ نبيٌّ قط بأن يكون مع اللَّه شريك - والعياذ باللَّه -؛ وإنما دينهم واحدٌ، لكن الفروع فيها اختلافٌ.

ثم قال: (وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِيناً﴾) يعني: اللَّه عز وجل لم يرضَ لأحد من عباده أن يسلك ديناً سوى دين الإسلام؛ كما قال سبحانه: ﴿إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا﴾ يعني: بالتوحيد ﴿يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر: ٧].

ثم بيَّن رحمه الله محاسن وفضائل ومعتقد هذا الدين وهو دين الإسلام وأنه دينٌ وسطٌ، فقال: (وَهُوَ بَيْنَ الغُلُوِّ وَالتَّقْصِيرِ) أي: في الاعتقاد والعمل، فمثال الغلو في الاعتقاد: أن يعتقد أن عيسى عليه السلام إلهٌ، ونحو ذلك؛ كما قال عز وجل: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ﴾ [النساء: ١٧١].

ومثال الغلو في العمل: لمَّا جمع الصحابة رضي الله عنهم حجارة في الحجِّ، فقال عليه الصلاة والسلام: «إِيَّاكُمْ وَالْغُلُوَّ»[١]، وقال: «هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ»[٢]، ومن الغلو في العمل أيضاً: الذين أتوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم وقال أحدهم: لا أتزوج، وقال الثاني: أصوم ولا أفطر،

(١) رواه أحمد في المسند، رقم (١٨٥١)، من حديث ابن عباسٍ رضي الله عنهما.

(٢) رواه مسلمٌ، كتاب العِلم، باب: هلك المتنطعون، رقم (٢٦٧٠)، من حديث ابن مسعودٍ رضي الله عنه.

والثالث قال: أصلِّي فلا أنام؛ فنهاهم عليه الصلاة والسلام عن هذا الغلو[١].

وكذلك التقصير يكون في الاعتقاد أو العمل، فمثال التقصير في الاعتقاد: اعتقاد أن اللَّه سبحانه وتعالى معه شريكٌ؛ فهذا يكون تقصيراً في الاعتقاد؛ لأنه يعتقد أن اللَّه غير قادرٍ على قضاء الحاجات؛ فيجعل معه شريكاً تعالى اللَّه عن ذلك، ومثال التقصير في العمل: فعل المنكرات من زنى وسرقة، ومثل: ترك الصلاة، وعدم أداء الزكاة، وغير ذلك.

فدين الاسلام وسطٌ بين هذا وهذا، فلا غلو ولا تقصير.

ثم قال: (وَبَيْنَ التَّشْبِيهِ وَالتَّعْطِيلِ) يعني: في صفات اللَّه عز وجل لا يشبِّهون اللَّه بخلقه، ولا يعطِّلون صفات اللَّه عز وجل عنه سبحانه؛ بل

(١) رواه مسلمٌ، كتاب النكاح، رقم (١٤٠١)، من حديث أنسٍ رضي الله عنه، ولفظه: «أَنَّ نَفَراً مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم سَأَلُوا أَزْوَاجَ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم عَنْ عَمَلِهِ فِي السِّرِّ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَا أَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَا آكُلُ اللَّحْمَ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَا أَنَامُ عَلَى فِرَاشٍ، فَحَمِدَ اللهَ، وَأَثْنَى عَلَيْهِ، فَقَالَ: مَا بَالُ أَقْوَامٍ قَالُوا كَذَا وَكَذَا؟! لَكِنِّي أُصَلِّي وَأَنَامُ، وَأَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي».

هم وسطٌ كما قال سبحانه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

ثم قال: (وَبَيْنَ الجَبْرِ وَالقَدَرِ) هذا في باب أفعال اللَّه، فالجبرية غلَو في إثبات القدَر وقالوا: إن العبد ليس له اختيارٌ في فعل نفسه؛ وإنما القدَر يسيِّره، والقدَرية غلَو في أفعال العبد فقالوا: العبد هو الذي يَخلق فعل نفسه، وأهل السُّنة توسَّطوا فقالوا: اللَّه عز وجل له مشيئةٌ، والعبد له مشيئةٌ، لكن مشيئة اللَّه غالبة على مشيئة العبد.

قال: (وَبَيْنَ الأَمْنِ) يعني: الأمن من عذاب اللَّه ومكره، وسخطه وعقوبته، كما قال سبحانه: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتاً وَهُمْ نَائِمُونَ * أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ * أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٧-٩٩]، وقال سبحانه: ﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ * أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ * أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [النحل: ٤٥-٤٧].

(وَاليَأْسِ) يعني: القنوط من رحمة اللَّه سواء في قبول التوبة، أو القنوط من دخول جَنته وطلب مرضاته، قال سبحانه: ﴿وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾ [الحجر: ٥٦]، وقال في اليأس: ﴿إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧]، فهنا كفر وهناك ضلال ومؤداهما واحد، وقال سبحانه: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣]، وأهل السُّنَّة وسطٌ؛ يخافون من اللَّه ويرجون رحمته؛ كما قال سبحانه: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠].

فَهَذَا دِينُنَا وَاعْتِقَادُنَا ظَاهِراً وَبَاطِناً، وَنَحْنُ بُرَآءُ إِلَى اللَّهِ مِنْ كُلِّ مَنْ خَالَفَ الَّذِي ذَكَرْنَاهُ وَبَيَّنَّاهُ.

وَنَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يُثَبِّتَنَا عَلَى الإِيمَانِ، وَيَخْتِمَ لَنَا بِهِ، وَيَعْصِمَنَا مِنَ الأَهْوَاءِ الْمُخْتَلِفَةِ، وَالآرَاءِ الْمُتَفَرِّقَةِ، وَالمَذَاهِبِ الرَّدِيَّةِ - مِثْلِ: الْمُشَبِّهَةِ، وَالجَهْمِيَّةِ، وَالجَبْرِيَّةِ وَالقَدَرِيَّةِ، وَغَيْرِهِمْ - مِنَ الَّذِينَ خَالَفُوا الجَمَاعَةَ، وَحَالَفُوا الضَّلَالَةَ.

وَنَحْنُ مِنْهُمْ بُرَآءُ، وَهُمْ عِنْدَنَا ضُلاَّلٌ أَرْدِيَاءُ.

وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالصَّوَابِ، وَإِلَيْهِ المَرْجِعُ وَالمَآبُ.

لمَّا بيَّن رحمه الله هذه المعتقدات العظيمة في الإسلام، وما يسير عليه اهل الحق، قال: **(فَهَذَا دِينُنَا وَاعْتِقَادُنَا ظَاهِراً وَبَاطِناً)** يعني: هذا هو الدِّين الذي ندين اللَّه عز وجل به، ونعلن تمسكنا به في الظاهر والباطن، وقوله: **(ظَاهِراً)** من الجوارح، **(وَبَاطِناً)** من أعمال القلوب.

قال: **(وَنَحْنُ بُرَآءُ إِلَى اللَّهِ)** يعني: نتبرأ إلى اللَّه **(مِنْ كُلِّ مَنْ خَالَفَ الَّذِي ذَكَرْنَاهُ وَبَيَّنَّاهُ)** يعني: من الذي خالف المعتقد السالف؛ معتقد أهل السُّنة والجماعة.

ثم دعا رحمه الله بعد ذلك أن يثبِّته اللَّه عز وجل نحن وإياه وجميع المسلمين على هذا الإيمان ويَختم لنا به، فقال رحمه اللَّه: (وَنَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يُثَبِّتَنَا عَلَى الإِيمَانِ) يعني: نبقى عليه ما نتغير، (وَيَخْتِمَ لَنَا بِهِ) يعني: نبقى على هذا الثبات حتى الممات؛ بمعنى: يا ربِّ! ثبِّتنا عليه، فحتى نَصل الموت ونحن ندعو ربنا أن نَثبت عليه ولا نرتد على أعقابنا.

قال: (وَيَعْصِمَنَا مِنَ الأَهْوَاءِ المُخْتَلِفَةِ) الذي يُهلِك ابن ادم هو الهوى؛ لذلك قال اللَّه سبحانه: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾ [النازعات: ٤٠-٤١]، ولخطورة الهوى وصفه اللَّه سبحانه بأنَّه إله من دونه؛ قال سبحانه: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً﴾ [الفرقان: ٤٣]، وقال جل شأنه: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ٢٣].

وذم اللَّه عز وجل اليهود؛ لاتباعهم الهوى، فلخطورة الهوى يؤدِّي بالشخص إلى قتل الأنبياء والمرسلين وأتباعهم؛ قال سبحانه: ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقاً

تَقْتُلُونَ﴾ [البقرة: ٨٧]، لذلك قال رحمه اللَّه: **(وَيَعْصِمَنَا مِنَ الأَهْوَاءِ الْمُخْتَلِفَةِ)** لكثرتها في تحريف النصوص، فهوىً في اتباع الشهوات، وهوىً في اتباع الشبهات، وهوىً في اتباع مطامع الدنيا، وهكذا، فهي أهواءٌ متفرقةٌ.

قال: **(وَالآرَاءِ الْمُتَفَرِّقَةِ)** قال سبحانه: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، فحذَّر من الأهواء المختلفة، وكذا الآراء المختلفة المتفرقة، فكل ما فيه اختلافٌ وافتراقٌ فالشخص منهيٌّ عنه؛ كما قال سبحانه: ﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ * مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [الروم: ٣١-٣٢].

ثم قال: **(وَالمَذَاهِبِ الرَّدِيَّةِ)** المقصود بالمذاهب هنا: المعتقدات، فكل معتقدٍ يَذهب وراءه ناسٌ سمي مذهباً لِمَا يسيرون عليه، وليس المقصد بالمذهب هنا: تخفيف ما ظَلُّوا فيه؛ وإنما المقصود ما ذُهب إليه على غير السبيل.

قال: (مِثْلِ المُشَبِّهَةِ وَالمُعْتَزِلَةِ[١] وَالجَهْمِيَّةِ)، عندنا مشبِّهةٌ في جانبٍ، والمعتزلة والجهمية في جانبٍ آخر؛ مشبِّهةٌ يشبِّهون اللَّه بصفات خلقه، والمعتزلة يثبتون الأسماء وينفون الصفات، والجهمية ينفون الأسماء والصفات، فالمصنِّف رحمه الله جعل المشبِّهة في مقابل المعتزلة والجهمية.

ثم قال: (وَالجَبْرِيَّةِ وَالقَدَرِيَّةِ) طائفتان متقابلتان؛ فالجبريَّة غلَو في إثبات القدَر؛ فقالوا: إن العبد لا يتصرف بنفسه وإنما هو مثل الريشة في مهب الريح، والقدَرية غلو في نفي القدَر؛ فقالوا: ليس للَّه عز وجل مشيئةٌ على عبده، والعبد هو الذي يتصرف كيفما شاء.

قال: (وَغَيْرِهِمْ) يعني: وغير تلك من الطوائف التي خرجت أو تخرج؛ لأنها ليس لها حصرٌ ولا عددٌ؛ لأن قوله سبحانه: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ﴾ فهو واحدٌ، ثم قال: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، بدون تحديدٍ؛ لأنها كثيرةٌ.

قال: (مِنَ الَّذِينَ خَالَفُوا الجَمَاعَةَ) سواء في إثبات أسماء اللَّه أو صفاته، أو في إثبات أفعاله، أو في أسماء الدين والإيمان، وغير ذلك مما

(١) ليست في المطبوع، لعلها في نسخة أخرى.

ذكره المصنِّف في عقيدته، (وَحَالَفُوا الضَّلَالَةَ) أي: صالحوا الضلالة والتزموها والتحفوها، وكانت مرافقةً لهم.

ثم بعد ذلك قال: (وَنَحْنُ مِنْهُمْ بُرَآءُ، وَهُمْ عِنْدَنَا ضُلَّالٌ أَرْدِيَاءُ) يعني: ما موقف أهل السُّنة والجماعة من الطوائف المنحرفة؟

موقفنا منهم أمران:

الأمر الأوَّل: اعتقادنا بأنهم أهل ضلالةٍ ورداءةٍ، وأهل ضَلالٍ وشقاوةٍ.

والأمر الثاني: التبرؤ مما اعتقدوه في ذلك.

ثم قال رحمه اللَّه: (وَبِاللَّهِ الْعِصْمَةُ وَالتَّوْفِيقُ)[١] يعني: لا يَحصل الشخص على المذهب والصراط المستقيم إلا إذا عصمه اللَّه من أهل الأهواء والآراء المختلفة والمتفرقة، والتوفيق بيد اللَّه سبحانه في سلوك ذلك الطريق؛ يعني: بالإكثار من الدعاء بأن يوفِّق اللَّه العبد للطريق السديد؛ لذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم في صحيح مسلمٍ[٢]

---

(١) ليست في المطبوع، لعلها في نسخة أخرى.

(٢) كتاب الذِّكر، والدعاء، والتوبة، والاستغفار، باب التعوذ من شرِّ ما عمل، ومن شر ما لم يَعمل، رقم (٢٧٢٥)، من حديث عليٍّ رضي الله عنه.

لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه: «يَا عَلِيُّ! قُلِ: اللَّهُمَّ اهْدِنِي، وَسَدِّدْنِي» فالعبد ينبغي أن يُكثر من هذا الدعاء كثيراً.

قال: (وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالصَّوَابِ) أي: اللَّه هو العالِم بما هو صحيحٌ وصوابٌ، (وَإِلَيْهِ المَرْجِعُ وَالمَآبُ) أي: إليه سبحانه مرجعنا ومآبنا؛ كما قال سبحانه: ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة: ٢٨]، وقال: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يونس: ٥٦].

ويكون المصنِّف رحمه الله بهذا قد ختم مصنَّفه العظيم الجليل المفيد الذي حوى كثيراً من معتقد أهل السُّنة والجماعة، ومن أبرز ما يتميز به هذا المصنَّف: أنه من المصنَّفات المتقدِّمة جدّاً في العقيدة؛ فمصنِّفه توفي في القرن الرابع، وهو من أوائل من صنَّف في معتقد أهل السُّنة والجماعة، فرحمه الله رحمةً واسعةً، وجزاه عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء.

ونسأل اللَّه عز وجل أن يثبِّتنا على الإيمان وأن يختم لنا به، واللَّه أعلم، وصلى اللَّه على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم.